الأدب القرآني

عند

مصطفى صادق الرافعي

محمد الياس

ASIAN RESEARCH INDEX
2023

الأدب القرآني عند مصطفى صادق الرافعي

محمد الياسين

ASIAN RESEARCH INDEX
2023ء

حقوق الطبع محفوظة عند المصنف

الطبعة الأولى

1444هـ - 2023ء

ISBN: 9786277680022
ARI ID: 1683034285969
https://asianindexing.com

Licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.

إهداء

أهدي هذه المقالة إلى قائد المجاهدين وخاتم النبين محمد صلى الله عليه وسلم والأنبياء والمرسلين ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين وإلى والدى الكريمين الذين ربيانى تحت عباءة العطف صغيرة وربيانى جميل اللطف كبيرة وسهرا فى تربيتى وأجود العطاء وشجعانى على العلم والعمل- وإلى استاتذة الكرام كلهم الذين غرسوا فى قلبى حب العلم والعرفان من أول يوم إلى يومى هذا إليهم جميعاً أهدى هذا العمل المتواضع داعيا الله سبحانه وتعالىٰ لهم المغفرة وأن يجزى لهم الأجر والثواب فى الدنيا والآخرة آمين يا رب العالمين .

الفهارس

الفهارس ..... أ

المقدمة ..... ج

كلمة الشكر و التقدير ..... ش

البـاب الأول: أدب القرآن الكريم تعريفه وآثاره 1

الفصل الأول : تعريف القرآن الكريم و الأدب لغة واصطلاحاً 3
تعريف القرآن لغة 3
تعريف القران اصطلاحا 4
تعريف القرآن عند الأصوليين والفقهاء وأهل العربية 6
تعريف الأدب لغة 7
الفصل الثاني: مفهوم الأدب والأديب عند مصطفى صادق الرافعي 11
الأفكار عن مفهوم الأديب 13
رأي عمر الدسوقي عن مفهوم الأديب 13
فنّ الأدب بين الأسلوب والقيم الجمالية 15
الفصل الثالث: أثر القرآن في الأدب من جهة ألفاظه و جهة معانيه 17
أوجه الإعجاز القرآني 17
الإعجاز البلاغي 20
موارد الإعجاز البلاغي 21
الفصل الرابع : أثر القران الكريم في الأدب : "الشعر و النثر" 27
توارد الأفكار القرانية في اللغة العربية الجاهلية 28
أثر القران الكريم في الشعر 31
ابن قتيبه عن نقيض الشعراء 39

أثر القران الكريم في النثر 40
الخطابة 41

البـاب الثانى: حياة مصطفى صادق الرافعى ومكانته العلمية والأدبية.....49

الفصل الأول: حياة مصطفي صادق الرافعي 51
اسم و نسبه 51
ولادته 51
نشأته وتعليمه 54
بدايته وانطلاقه 54
مفاصحة 55
مرضه وانقطاعه 55
دلائل تأمله 56
في الوظيفة 56
أخلاقه و سيرته 57
حياته الأدبية 57
الفصل الثانى: أحوال الإجتماعية والثقافية والأدبية 75
نشاطه الاجتماعي 76
الحياة الثقافية 77
التعليم 77
ما يعوز التعليم الحديث 78
الصحافة والنثر الحديث 78
أحوال الأدبية 79
نص كتاب الأستاذ الإمام 80
الفصل الثالث: المعارك الأدبية 81
حياته وآثاره 82
حياة عباس محمود العقاد 83

حياة سلامة موسى 84
زكي بن عبد السلام بن مبارك 84
معركة تحت راية القرآن 85
تمصير اللغة العربية: بين مصطفى صادق الرافعي ولطفي السيد 87
خصومته مع طه حسين 87
الخصومة بين القديم والجديد في الأدب، طه حسين 88
معركة الشعر الجاهلي 90
معركة مفاهيم الأدب 91
خصومته مع العقاد 91
بين مصطفى صادق الرافعي وعباس محمود العقاد 92
من الرافعي إلى العقاد 92
معركة بين أنصار الرافعي وأنصار العقاد 93
معارك الرافعي مع زكي مبارك 93
بين الرافعي وسلامة موسى 94
رد الرافعي 94
الفصل الرابع: انتاجه الأدبي والفكري وسمات أدبه 95
البعثات العلمية 96
الصحافة 98
دواوينه الشعرية 101
كتبه النثرية 102

البـاب الثالث: دراسة الأدب القراني الكريم في آثار مصطفى صادق الرافعي 105

الفصـل الأول: اعجاز القرآن وبلاغة النبوية 107
الكتاب الأول : الفصل الأول : تاريخ القُرآن (جمعُه وتدوينه) 108
الفصل الثاني : إعجاز القرآن 125
الكتاب الثاني: الفصل الأول: البلاغة النبوية 137

الفصل الثاني: وحي القلم 146
مختارات من الكتاب 147
في الربيع الأزرق 147
بنته الصغيرة 147
الانتحار 148
قرآن الفجر 148
تلخيص الكتاب حسب المباحث 150
الفصل الثالث: تحت رأية القران 174
تصريح أساليب الفصاحة القرانية والحديث النبوية 174
رأي الرافعي عن كتابه تحت رأية القران 175
الفصل الرابع: أوراق الورد 180
أوراق الورد 180
قول ابراهيم المصري عن الثقافة العربية 181

خاتمة الكتاب 183

فهرس الآيات القرآنية.....186

فهرس أطراف الأحاديث.....192

المصادر و المراجع 194

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الصلاة والسلام على سيدنا محمّد الأمين - صلى الله عليه وسلم- المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلا شكّ أنَّ البشرية، لم تعرف كتابًا حظي بالدرس، والتمحيص، واحتفاء الناس به، كما هو الحال مع (القرآن العظيم). فمنذ تنزل الوحي على قلب نبينا - صلّى الله عليه وسلّم - لم يتوقف تأثير هذا الكتاب على قُلوب الناس، وعقولهم، وذلك لأنّه نزل مفصلاً، قيمًا، متصفاً بمعجز النظم كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: 42). جعله الله متلوًا لا يمل على طول التلاوة، وعجيبًا لا تنقضي عجائبه.

وقد أنزل الله - عزّ وجلّ - القرآن الكريم بلسانٍ عربيّ مبين، وجعلهُ محكمًا فقال: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1). وجعله معجزًا، تحدى به العرب، أنْ يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: 23). وحكم عليهم بالعجز أنْ يفعلوا ذلك في الماضي، أو الحاضر، أو المستقبل فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [االبقرة: 24]. ولم يكن هذا التحدي للعرب الذين اشتهروا بالفصاحة وحدهم، بل كان للإنس والجنّ قاطبةً، يقول تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88].

أما الفصاحة لهذه الايات الكريمة تنمي إلى أدب القرآن فالآداب لا تكون في الإنسان إلا شرائع، ولكن الإنسان إذا عَرِيَ من الأدب النفسي، فربما شرع لنفسه ما لا يصنع الشيطانُ أخبثَ منه بل ما يَركضُ فيه الشيطانُ ركضاً، وقلما انتفعَ مَن لا أدب له بشريعة من الشرائع وإن كانت في الغاية التي لا مذهبَ وراءها في تهذيب النفس ودرء المفسدة عنها بحَسم مادتها أو ما سبيلُها أن ترد به، من تقويم الطباع، وتثقيف الأخلاق،

وتثبيت الإرادة، وتعيين الحد النفسي لكل منزع إلى الخير وإلى الشر، حتى تستوضحَ للمرء مذاهبُ نفسه، فيمضي إذا مضى على بينة، ويعدلُ إذا عدل عن بينة.

من أجل ذلك كانت آداب القرآن ترمي في جملتها إلى تأسيس الخُلق الإنساني المحض الذي لا يضعفُ معه الضعيفُ دون ما يجبُ له، ولا يقوى معه القوي فوق ما يجب له، والذي يجعل الأدبَ عقيدة لا فكراً إذ تبعث عليه البواعث من جانب الروح، فيكون هو الحاكم والمحكوم، ويرى عينَ الله لا تنفك ناظرة إليه من ضميره.

إذا تدبرنا هذه القوة الروحية في آداب القرآن الكريم، واعتبرناها بما أتاها في الطباع، ومَساغها إلى النفوس، واشتمالها على سنن الفطرة الإنسانية، فإنا نتبين من جملتها تفصيلَ تلك المعجزة الإجتماعية التي نهض بها أولئك الجفاة من العرب فنفضوا رمال الصحراء على أشعة الشمس في هذا الشرق كله، فحيثما استقرت منها ذرة وقع وراءها عربي! بل نفضوا أقدامهم على عروش الممالك، وهم كانوا بين داع للصنَم وراع للغنم، وعالم على وهم، وجاهل على فهم،وبين شيطان كأنه لخبثه مادة لوجود الشيطان، وإنسان كأنه لشره آلة لفناء الإنسان، فما زالوا يبسطون تلك الجزيرة حتى بلغت أضعافها، ومازالوا بالدنيا حتى جمعوا إليهم أطرافها.

وقال الرافعي في كتابه "تاريخ آداب العرب":فإن للأدب غاية ،وغايته هي صلاح الناس وهديهم وكشف حقائق هذا الكون والتمتع بجمال هذه الحقائق.تحدى القرآن أهل البيان في عبارات فارغة محرجة، ولهجة واجزة مرغمة، أن يأتوا بمثله أو سورة منه، فما فعلوا، ولو قدروا ما تأخروا، لشدة حرصهم على تكذيبه ومعارضته بكل ما ملكت أيمانهم، واتسع له إمكانهم.

أن الأدب أمرهم جداً، فهو من أبرز سمات الشخصيّة المسلمة ، ومظاهر تميّزها بهذا الدين، لذا فإنه يتحتم على الإنسان المسلم معرفة الآداب الشرعية ، والإلتزام بها في جميع الأمور، وقد حثَّ الإسلام المسلم على أن يعتني بالآداب في أحوال أولاده وذويه ولا يتغافل عنهم ويذكّرهم ويؤدبهم بآداب الإسلام ، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (التحريم: 6)، قال عليّ رضي الله عنه : علّموهم وأدِّبوهم . وقال مجاهد رحمه الله: أوقفوا أنفسكم وأهليكم بتقوى الله وأدّبوهم .ومماجاء في نصوص

الشريعة في معاني الأدب والتأديب قول النبي صلى الله عليه وسلم ، كما جاء في الحديث الصحيح : (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين :وذكرمنهم ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ، ثم أ دّبها فأحسن تأديبها ،وعلّمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها وتزوجها ، فله أجران) .(**صحيح البخارى حديث رقم 3011**)

يرتبط الأدب الإنسان منذ وجوده على وجه الأرض. و علاقته بالبشر طبيعي أي فطري. فالأدب وسيلة لنشر آراءحول أحوال المجتمع البشري ولتكوين السيرة الشخصية وإصلاح الأحوال والعادات، يدعو الأدب إلى مكارم الأخلاق وتكريم بني آدم وينجي الإنسان به في الدنيا و الآخرة.

وكذلك كان الرافعي رحمه الله حريصا على تجديد أصيل، يصون للأدب العربي شخصيته، ويحفظ عليه خصائصه في البيان والفكر، لا تجديدٍ يزهق روحه، ويغيب أصالته وملامح وجهه، تجديدٍ لا يعتدي على عقيدة الأمة وأخلاقها، ولغتها، بل ينطلق منها ليحلق بعد ذلك في سماءِ الإبداع والتجديد ما شاء أن يحلق،بل هو لن يحلق أصلا بغيرذلك، لأن المقلد لا يحلق، لأنه تابع غير متبوع، ولاحق غير ملحوق، والتقليد "لا يكون إلا في الطبقات المنحطة، وصناعة التقليد وصناعة المسخ فرعان من أصل واحد"ـ

وقال الرافعي:

سعيت لدار المقتطف لأمر، فوافقت العقاد هناك، ولكنه لقيني بوجه غير الوجه الذي كان يلقاني به، فاعتذرت من ذلك إلى نفسي، وجلسنا نتحدث، وسألته الرأي في "إعجاز القرآن" فكأنما ألقيت حجراً في ماء آسن، فمضى يتحدث في حماسة وغضب وانفعال، كأن ثأرًا بينه وبين إعجاز القرآن، ولو كان طعنه وتجريحه في الكتاب نفسه لهان علي، ولكن حديثه عن الكتاب جره إلى حديث آخر عن القرآن نفسه وعن إعجازه وإيمانه بهذا الإعجاز. ونحن من جانبنا لا نرتاب في أن الرافعي كان يتعسف أحياناً في أساليبه تعسفاً واضحاً في غالبية مؤلفاته الشعرية كالسحاب الأحمر، وحديث القمر، ورسائل الأحزان، وأوراق الورد، وغيرها. ومنها نأخذ قوله : "وفي تلك الساعة كانت الأرض قد عريت من أواخر الناس وطوارق الليل وبقية من يقظة النهار تحبو في الطريق ذاهبة إلى مضاجعها". وقوله في مقام آخر واصفاً البحر: "فكأنما البحر سحاب عظيم قد حبسه الله في الأرض فهو أبداً

ثائر يضج ويرعد ولا يبرح تنازع الأرض أنْ يفرّ منها" ـ
وكذلك ذكر فى كتابه "دلائل الإعجاز" عني فيه بنظم القرآن، مرجعًا إعجاز القرآن إليه، ويقصد أن القرآن في حروفه وألفاظه وتراكيبه، وما ضم ذلك من معان، وجاء على أحسن صورة، لا يستطيع أحد معها أن يأتي بمثلها، فكل ما جاء في القرآن معلق بعضه على بعض، مبني بعضه على بعض، وذلكم سر الإعجاز في النظم القرآني الذي وضع الكلام الذي يقتضيه علم النحو".
أما رأي مصطفى صادق الرافعي في كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" فيوجزه في ثلاث نقاط: فالقرآن معجز لاستقرار القرآن وثباته على الزمان، وهو شريعة وأخبار وآداب، ولدفعه النسيان عن اللغة العربية، فهو وجود لغوي ركب كل ما فيه على أن يبقى خالدًا مع الإنسانية: يدفع عن هذه اللغة العربية النسيان الذي لا يدفع عن شيء؛ ولأن معانيه تتوالد وتتكاثر، وتتجدد حسب قدرته على كل عصر في استخلاص معانيه".
أن كتاب إعجاز القرآن والبلاغة النبوية هو في حقيقة أمره الجزء الثاني من كتاب تاريخ آداب العرب، أو يشكل الحلقة الوسطى من سلسلة تاريخ آداب العرب، وأن الرافعي حين وضع منهجه انطلق من حقيقة أن اللغة العربية لغة جديرة بالعناية والقداسة لأنها لغة القرآن الكريم، وكان ذلك سببًا في انصراف المؤلف عن المنهج التقليدي الذي وضعه المستشرقون لدراسة الأدب العربي، ووضع منهجًا ابتكره، رآه إليق بدراسة الأدب العربي، فكان المنهج الذي وضعه موصولَ الأسباب بتاريخ اللغة ونشأتها وتفرعها وما يتصل بذلك، ثم تاريخ الرواية ومشاهير الرواة وما تفرع عن ذلك في ميدان الشعر واللغة في تفصيل دقيق ومنهج موسع ودراسة شاملة.
و كذلك في ماهية اللغة العربية ثراءً وعمقًا واتساعًا وصلة بالقرآن الكريم، فقد عمد الرافعي إلى أن يكون الجزء الثاني من كتابه دراسة للقرآن الكريم وإعجازه، وألحق به فصلاً عن البلاغة النبوية.
وحين صدر الكتاب، اُستقبل استقبالاً حارًّا من صفوة الرجال والعلماء المسلمين بصورة أوفر وأعمق مما استُقبل به الجزء الأول، ولكن فريقًا صغيرًا من المنكرين، على قلّتهم، كانوا يتهامسون فيما بينهم بسوء، فزعًا من أن يُضعف صفوفهم، ويُعيد إلى حظيرة الإيمان عددًا منهم، الأمر الذي دعا سعد زغلول باشا زعيم مصر وكبير ساستها في العصر الحديث

إلى أن يكتب تقريظًا دافئًا للكتاب، ومن العلماء الأجلاء الذين بهرهم كتاب إعجاز القرآن وأصر على أن يكتب مقدمة له الشيخ محمد رشيد رضا، استهلها بقول الله عز وجل: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:٨٨).

ولم يقف الإعجاب بكتاب إعجاز القرآن عند المسلمين وحدهم، بل إن كثيرًا من علماء النصارى سطروا ذلك في كتبهم ومقالاتهم، وفي مصر يطلع الدكتور يعقوب صروف صاحب مجلة المقتطف على كتاب إعجاز القرآن فيقول: يجب على كل مسلم عنده نسخة من القرآن أن تكون عنده نسخة من هذا الكتاب. ومن الأدباء غير المسلمين الذين أشادوا بكتاب إعجاز القرآن الشيخ نصيف إليازجي والشاعر خليل مطران شاعر القطرين.

أن الرافعي لم يكن عدوانيًا بطبعه، ولا متجاوزًا حدود المألوف بقلمه، إلا في حالتين اثنتين: إذا ما اعتدى صاحب قلم على الإسلام عقيدةً ورسالةً وقرآنًا، أو تعرض كاتب للغة الفصحى وما يتصل بها من أدب أو تراث بتجريح أو تزييف، وفيما عدا ذلك كان الرجل رقيق الحاشية وضيء الطلعة مهذب القلم في نطاق من سعة الاطلاع وعمق الفكر ورصانة الأسلوب ووفرة التحصيل.

أما معركة الرافعي الحقيقية في الدفاع عن الإسلام فقد كانت مع طه حسين؛ حيث إن طه حسين في نظر الرافعي أعلن تنكره ورفضه لبعض ما جاء به القرآن جهارًا نهارًا؛ فيما ألقاه في الجامعة من محاضرات.

ومن معارك الرافعي الأخرى ما جرى بينه وبين العقاد الذي كان صديقًا له، دائم الثناء على كتبه ومقالاته، وبخاصة كتابه "المساكين"، ولكن العقاد تفوه بكلمات جارحة حين كتب الرافعي كتابه إعجاز القرآن، وكان العقاد آنذاك لم يطرق بعدُ بابَ العقيدة الإسلامية، فقسا الرافعي عليه بعدد من المقالات الحادة ونشرها بعد ذلك في كتابه المشهور "على السّفود".

يُعد الرافعي أبا المقالة الإسلامية ورائدها، والمدافع عن القرآن وأركان الإسلام عقيدة وشريعة، ويعتبر العدوان على اللغة العربية عدوانًا على الإسلام، ويعُد الدفاع عنها دفاعًا عن الإسلام، لأنها لغة القرآن، كتاب الله ووحي السماء الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فنرى الرافعي يكتب عن الإسراء والمعراج كمعجزة إلهية خص الله

بها محمدًا دون غيره من الأنبياء والمرسلين، ويكتب عن الهجرة ومولد الرسول وعن الدعوات التي يخاصمها الإسلام مثل دعوة ارتداء القبعة، وانصياع مصطفى كمال لكيد إليهود المتتركين وإسقاط الخلافة العثمانية والقضاء على صلة تركيا بالعالم الإسلامي.

رحم الله الرافعي رائدا عظيما من رواد الأدب الإسلامي في الإبداع والتنظير النقدي، وفي الدفاع الحار عن أصالة الكلمة ونبل الفكر، وشرف التعبير.

استطاع الرافعي خلال فترة حياته الأدبية التي تربو على خمسٍ وثلاثين سنة إنتاج مجموعة كبيرة ومهمة من الدواوين والكتب أصبحت علامات مميزة في تاريخ الأدب العربي.

لقد عاش "الرافعي" في عصر كثر فيه أدعياء التجديد ونبذ القديم، بل وقف الرافعي وحده في الميدان مدافعًا، لا يستند إلا على ربه، وما وهبه من علم، فكان يبارز الكثير منهم في ساحة الصحف والمجلات والمطبوعات برغم أنه كان يعيش في (طنطا) بعيداً عن أضواء الصحافة والمجلات الكثيرة التي كان يسيطر عليها أمثال هؤلاء، فكان يعتمد على مرتبه البسيط الذي كان يتقاضاه من المحكمة الأهلية، التي كان يعمل بها؛ لذلك نجده لم ينافق ولم يراءِ في معاركه، لأن ضميره ودينه يفرضان عليه خوض هذه المعارك.

كان الرافعي ناقداً أديباً عنيفاً حديد اللسان والطبع لا يعرف المداراة، ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه، وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس، وكان فيه حرص على اللغة كما يقول: " من جهة الحرص على الدين إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء لا منفعة بأحدهما إلا بقيامهما معاً "(أحمد أنور سيد أحمد الجندي ، المعارك الأدبية ص264 ،مكتبة الأنجلو المصرية،الطبعة: 1983).

ومن هنا كانت المعارك التي خاضها "الرافعي" مع "طه حسين" و"العقاد"، و"سلامة موسى" و"زكي مبارك" و"عبد الله عفيفي"، وإن كانت معاركه مع العقاد أشهر هذه المعارك، إلا أن معظمها كانت من منطلق إيمانه بمنهجه وطريقته في الإبداع والنقد، والاحتماء بالتراث العربي الأصيل.. كما أسس الرافعي بتلك المعارك منهجه النقدي من خلال أبرز كتبه، وهي:

تحت راية القرآن

المعركة (رد فيه علي الدكتور طه حسين في كتابه "الشعر الجاهلي")

لقد كان الرافعي كاتب الإسلام الأول في هذا العصر وفي هذه المعركة ومع أنه كان واحداً من كثيرين في هذه المعركة، ولكن الرافعي هو العلم المتميز بقوة العاطفة الهادرة وبأسلوبه الناري وقمعه الرادع وصلصلته المرنة التي لا تستمدّ رنينها من قوة الألفاظ وحدها، فالألفاظ في متناول الكاتبين جميعا، ولكنها تستمد قوتها مما وراء الألفاظ من روح غلاّبة قاهرة، هي روح البطل الجبار الذي يثق من قوته الحربيّة، ومهارته الفنية في حلبات الصّيال.

وكان السبب فيها كتاب الرافعي " إعجاز القرآن والبلاغة القرآنية " إذ كان عباس محمود العقاد يرى رأياً مخالفاً لما يرى الرافعي، وقد نشبت بينهما لذلك خصومة شديدة تجاوزت ميدانها الذي بدأت فيه، ومحورها الذي كانت تدور عليه إلى ميادين أخرى؛ جعلت كلا الأديبين الكبيرين ينسى مكانه، ويغفل أدبه ليلغو في عرض صاحبه، ويأكل لحمه من غير أن يرى ذلك مَعابة عليه، وكان البادئ الرافعي في مقالاته " على السفود " التي جمعها له في كتاب صديقه إسماعيل مظهر، وتوقفت المعركة بينهما فترة وجيزة ما لبثت أن اشتعل أوارها مرة أخرى عندما نشر العقاد ديوانه "وحي الأربعين" فكتب الرافعي نقداً لديوانه، تلقفه العقاد بالسخرية والتهكم والشتم والسباب، ولم تزل بينهما الخصومات الأدبية حتى توفي الرافعي رحمه الله.(**المعارك الأدبية ص428**)

وتبدأ معركة الرافعي مع العقاد منذ صدور "الديوان" للعقاد والمازني وقد تناول العقاد الرافعي وأدبه بالنقد ثم استؤنفت معركة الرافعي مع العقاد بعد صدور كتاب الرافعي "إعجاز القرآن" الذي أثنى عليه سعد زغلول ووصفه بأنه "كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم" كان أسلوب الرافعي في النثر قريب الشبه بأسلوب أبي تمام في الشعر؛ تزدحم فيه الاستعارات والمجازات والكنايات والتشبيهات وهذا كله يأتيها من جهة إعمال الفكر وتحكيم المهارة أنها تستلهم المعجم القرآني والسني والتراثي على وجه العموم؛ حيث يتكئ الكاتب في كثير من المواطن على لفظة أو عبارة من القرآن الكريم، أو على كلمة أو جملة من الحديث الشريف، أو على حكمة أو مثل أو بيت شعر من مأثورات العرب.(تطور الأدب الحديث في مصرص387)

منهج البحث

يشتمل هذا البحث المتواضع على ثلاثة أبواب وكل باب يحتوي على أربعة فصول، مقدمة،خاتمة البحث و توصيات البحث۔ قد استفدت من الكتب الذي الفت عن اعجاز القران خاصة منها الاعجاز القران للباقلاني ، مباحث في علوم القرآن لصبحي صالح، دراسات في علوم القرآن الكريم لفهد بن عبد الرحمن، البرهان في علوم القرآن للزركشي ، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، مناهل العرفان للزرقاني ، المناظرة في القرآن، عبد الله المقدسي تاريخ القرآن الكريم لمحمد طاهر عبدالقادر الكردي،وأخص بالذكر مؤلفات الرافعي منها اعجاز القران والبلاغة النبوية ،تاريخ آداب العرب ،وحي القلم ومعارك الأدبية لسيد أحمد الجندي، كان منهجا مختلفا بين هؤلاء الأعلام۔

أما منهج في هذا البحث المتواضع دراسة تحليلية ونقدية لأن الرافعي كان ناقداً أدبياً عنيفاً حديد اللسان والطبع لا يعرف المداراة، ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه، و أيضاً بعض النقاد قد نقدوا علي الرافعي مثل عباس محمود العقاد و طه حسين ،وكذ لك أسس الرافعي معاركه علي منهج النقدي من خلال أبرز كتبه۔ حينما أصدر الرافعي "الديوان"نقد العقاد علي الرافعي ثم أصدر الرافعي في رده " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"۔ولذا قد اخترت هذا المنهج "دراسة تحليلية نقدية "۔قد ذكرت الهوامش في كل ذيل الصفحة حسب مقترحات المجلس التعليم العالى باكستان لتدوين الأطروحة بمرحلة الدكتواره ۔ وبحمد الله تعالى قد بذلت قصارى جهدي في هذا البحث المتواضع بتوفيقه وأسال الله عزّ وجلّ أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه الكريم، وأن ينفع به الآخرين وأحمده علي ما كان فيه من صواب.وأستغفره مما كان فيه من خطاء أو زلل وما توفيقي إلابالله عليه توكلت وإليه أنيب.

كلمة الشكر و التقدير

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: 144). ويقول أيضًا: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: 7). فالحمد لله حمد الشاكرين، والحمد لله حمدًا على كل النعم. والحمد لله حمدًا يليق برب النعم. فيا ربنا لك الحمد.

وقد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ" هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.(سنن الترمذى حديث رقم 1954) لذلك أتقدم بالشكر الجزيل، إلى كل من تعاون معي في إتمام هذا البحث وأخص بالذكر من أعطاني، وأجزل بعطائه، ومن سقى، وروّنى علماً وثقافة، ومن ضحى بوقته وجهده معالي الأستاذ الدكتور حافظ شفيق الرحمن،الأستاذ، بقسم اللغة العربية، كلية الدراسات الاسلامية والعربية، الجامعة الإسلامية بهاولبور باكستان.

فقد شجعني شخصيته على أن أواصل دراستي العليا تحت إشرافه، وقد نهل كثيرا من رعايته وتوجيهه، وتذليله للصعوبات الذي واجهني في أثناء مراحل البحث المختلفة، فقومني بحسن أسلوبه، فكان لي مشجعًا، وأتقن، فكان لي محفزاً. أسأل المولى -عز وجل - أنْ يبارك في عمره، وعلمه، وان يجزيه عني، وعن طلاب العلم خير الجزاء.

وأيضًا أقدم جزيل الشكر والإمتنان من أعماق قلبي للأستاذ الدكتور سليم طارق خان رئيس الجامعة الاسلامية بهاولبور (سابقاً) الذي ارشدني في هذا البحث المتواضع بكل أوقاته الثمينة الغالية فلن أنسى فضله أبداً على ما دمت حياً ، فجزاه الله عني خير الجزاء. وأسأل المولى عز وجل له التوفيق والسداد، وأنْ ينفع طلاب العلم بعلمه في طيلة حياته.

ولا أنسي بتقديم الشكر والامتنان للاستاذة الدكتورة راحيله خالد قرشي رئيسة قسم اللغة العربية الجامعة الاسلامية التي شجعتني في تقديم البحث في وقت محدد ، فبكل الحب والوفاء، وبأرق كلمات الشكر والثناء، وجزاها الله عني خير الجزاء. كما أتقدم بالشكر إلى جميع أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها.

وكذلك أقدم جزيل الشكر والامتنان لوالديّ ،أخوتي و أخواتي وأصدقائي اللذين دعوا لي بالعافية وللاتمام هذا البحث وأتمنى من الله عز وجل أن يعطيهم الصحة والعافية و

جزاء حسنة في الدارين.
وختامًا أسأل الله أنْ يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، فهو حسبي، ونعم الوكيل، وآخر دعوانا " أنْ الحمد لله رب العالمين .

دكتور محمد الياس

بقسم اللغة العربية الجامعة الاسلامية بهاولبور

البـاب الأول: أدب القرآن الكريم تعريفه وآثاره

فيه أربعة فصول

الفصل الأول: تعريف القرآن و الأدب لغة واصطلاحاً

الفصل الثاني: **مفهوم الأدب والأديب عند مصطفى صادق الرافعي**

الفصل الثالث: أثر القرآن في الأدب من جهة ألفاظه و جهة معا

الفصل الرابع: أثر القرآن في الأدب"الشعر والنثر"

الفصل الأول : تعريف القرآن الكريم و الأدب لغة واصطلاحاً

القرآن الكريم هو الكتاب الرئيسي في الإسلام، الذي يُقدّسه ويؤمن به المسلمون أنّه كلام الله المنزّل على نبيه محمد للبيان والإعجاز،المنقول عنه بالتواتر حيث يؤمن المسلمون أنه محفوظ في الصدور والسطور من كل مس أو تحريف، وهو المتعبد بتلاوته، وهو آخر الكتب السماوية بعد صحف إبراهيم والزبور والتوراة والإنجيل.كما يعدّ القرآن أرقى الكتب العربية قيمة لغوية ودينية، لما يجمعه بين البلاغة والبيان والفصاحة.وللقرآن أثر فصل في توحيد وتطوير اللغة العربية وآدابها وعلومها الصرفية والنحوية، ووضع وتوحيد وتثبيت اللّبنات الأساس لقواعد اللغة العربية.

تعريف القرآن لغة

قال الله تعالى:" إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَه (1)لفظ القرآن مصدر مشتق من (قرأ) يقال قرأ ، يقرأ ،قراءة ، وقرآناً.

فالقرآن لغة: الجمع. تقول: قرأت الشيء قرآنا، إذا جمعت بعضه إلى بعض.

قال أبو عبيدة :وسمي القرآن لأنه يجمع السور ويضمها(2)

اختلف العلماء -رحمهم الله تعالى- في لفظ القرآن لكنهم اتفقوا على أنه اسم فذهب جماعة من العلماء منهم الشافعي، الأشعري، ابن كثير ، الفراء، اللحياني ، الزجاج و ابن الأثير وغير ذلك من العلماء اللغويين الذين ذهبوا إلى أنه اسم جامد غير مهموز الان نورد بعض التعريفاتهم اللغوية .

قرأ ابن كثير وهو اسم للقرآن مثل التوراة والإنجيل.(3)

وقال الأشعري: إنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممته إليه ومنه قولهم: قرن بين

---

(1) سورة القيامة : 18

(2) أبو بكر الأنباري:محمد بن القاسم ، الزاهر في معاني كلمات الناس،ص 71،حققه: حاتم صالح الضامن، بيروت:مؤسسة الرسالة ،الطبعة الأولى، 1412 هـ -1992

(3) الدكتور: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، دراسات في علوم القرآن الكريم،ص 18،الطبعة الثانية عشرة 1424هـ - 2003م

البعيرين إذا جمع بينهما ومنه سمي الجمع بين الحج والعمرة في إحرام واحد قران.[4]
وقال الفراء: إنه مشتق من القرائن جمع قرينة لأن آياته يشبه بعضها بعضا.[5].
قال اللحياني: إن القرآن مصدر مهموز بوزن الغفران مشتق من قرأ بمعنى تلا سمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر[6]
وقال الزجاج: إنه وصف على وزن فعلان مشتق من القَرْء بمعنى الجمع ومنه: قرأ الماء في الحوض إذا جمعه[7] ـ
قال ابن الأثير: "وسمي القرآن قرآنًا لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض وهو مصدر كالغفران والكفران" [8].
يَقُولُ الشافعي: الْقُرَانَ اسْمٌ وَلَيْسَ بِمَهْمُوزٍ ولم يؤخذ من قرأت وَلَكِنَّهُ اسْمٌ لِكِتَابِ اللَّهِ مِثْلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ.[9]
لقد بذل العلماء العلماء كل وسعهم لإيجاد تعريف للفظة القرآن فتناولوها من الجانبين اللغوي والاصطلاحي كما هو معهود عند كل تعريف، وأوردوا في ذلك أقوالاً وآراء يكاد يكون كل واحد منها تكراراً للآخر.

تعريف القران اصطلاحا

هو كلام الله المعجز المنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) ، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته[10]

(4) الزركشي : أبو عبد الله بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن، 278/1 حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية الطبعة:الأولى، 1376 هـ - 1957 م.
(5) السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين ، الإتقان في علوم القرآن ، 181/1 ،المطبعة ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/ 1974 م
(6) المرجع السابق ، 182/1
(7) البرهان في علوم القرآن، 278/1.
(8) ابن الأثير :مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر ، ج4 ص30، حققه: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي بيروت :المكتبة العلمية،الطبعة 1399هـ - 1979م.
(9) الإتقان في علوم القرآن ،181/1.
(10) مناهل العرفان للزرقاني (15/1) ، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1996، وانظر: كتاب

قال الشافعي رحمه الله تعالى وهو: ان لفظ القرآن المعرف بأل ليس مهموزا ولا مشتقا بل وضع علما على الكلام المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وأما القرآن فقد قال أهل السنة القرآن كلام الله تعالى منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود وهو مكتوب في المصاحف محفوظ في الصدور مقروء بالالسنة مسموع بالآذان والاشتغال بالقرآن من أفضل العبادات سواء كان بتلاوته أو بتدبر فيه(11)

ومن التعاريف التي ذكرها العلماء والكتّاب للقرآن الكريم ما يلي:

قال الجرجاني في تعريف القرآن هو: المنزّل على الرسول، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه نقلاً متواتراً بلا شبهة (12) .

وقيل أيضاً في تعريف القرآن الكريم هو: كلام الله المعجز المنزّل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالوحي المنقول إلينا بالتواتر (13) .

قال الباقلانى: اسم للمتلوّ المحفوظ المرسوم في المصاحف (14) .

قال الرازي: اسم لما بين الدفتين من كلام الله (15) .

قال الشوكاني: الكلام المنزّل على الرسول، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا نقلاً متواتراً(16).

النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز (ص: 10) دار طيبة للنشر الطبعة الأولى، 1997، وانظر: المناظرة في القرآن، عبد الله المقدسي (1/ 22) ، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1409،

(11) محمد, طاهر بن عبد القادر الكردي، تاريخ القرآن الكريم ص10، الحجاز :مطبعة الفتح بجدة، الطبعة الأولى: 1365 هـ و 1946 م

(12) الجرجاني : الشريف ،علي بن محمد بن علي ، كتّاب التعريفات ص 174 ،بيروت: دار الكتب العلمية –لبنان،الطبعة الأولى 1403هـ -1983م-

(13) الدكتور: محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنيبي، معجم لغة الفقهاء، ص 359 ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع،الطبعة الثانية، 1408 هـ - 1988 م

(14) الباقلاني: أبو بكر، محمد بن الطيب، إعجاز القرآن 20/1 ، حققه: السيد أحمد صقر، مصر: دار المعارف، الطبعة الخامسة، 1997م-

(15) الرازي : فخر الدين ،أبو عبد الله محمد بن عمر، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير،253/5 بيروت:دار إحياء التراث العربي،الطبعة الثالثة - 1420 هـ

(16) (الشوكاني: محمد بن علي بن محمد، إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول،ج1 ص)85، (حققه: الشيخ) (أحمد عزو عناية،دار الكتّاب العربي،الطبعة الأولى 1419هـ - 1999م)

قال الزُّرْقاني: اللفظ المنزّل على النبي صلى الله عليه وسلم من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس[17] .

اختص القرآن الكريم بخصائص كثيرة ولعل هذه الخصائص سبب الاختلاف في تعريف القرآن بين العلماء، فكل تعريف يذكر خاصية للقرآن يعرف بها لا يذكرها الآخر ولهذا تعددت التعريفات.

الان نقدم بعض التعريفات عن الاصوليين والمتكلمين.

تعريف القرآن عند الأصوليين والفقهاء وأهل العربية:

هو كلام الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر، المكتوب في المصاحف، من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس - [18]

القرآن هو كلام الله المعجز، ووحيه المنزّل على نبيه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته [19].

ولعلماء الأصول والفقهاء تعريف للقرآن خاص بهم يقولون فيه: هو كلام الله المنزل على نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته، المنقول بالتواتر، المكتوب في المصاحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس.[20]

وردت عن العلماء تعريفات كثيرة للقرآن الكريم وهذه التعريفات تتفاوت من ناحية الشمول، فبعضها أشمل من بعض، وتتفاوت كذلك من ناحية الألفاظ. إن قل الاعتداد بكثرة ألفاظ التعريف أو قلتها - أقر بأن التعريف ينبغي أن يكون دالاً على جميع أجزاء المعرف بأقل لفظ ممكن، مهما كثرت ألفاظه.

---

(17) الزُّرْقاني:مناهل العرفان في علوم القرآن، ص18

(18) محمد، أحمد خلف الله، القرآن وعلومه، الحديث وعلومه ،ص 5، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،الطبعة الأولى 1986.

(19) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن ،ص 21دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة والعشرون كانون الثاني/ يناير 2000.

(20) محمد أحمد خلف الله، القرآن وعلومه، الحديث وعلومه "مطبوع ضمن موسوعة الحضارة العربية والإسلامية"ص5 ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،الطبعة: الطبعة الأولى 1986.

هناك تعريفات متعددة ولكن نحن نتفق بتعريف السيوطى لانه قال القرآن من مادة "قرأ بمعنى تلا سمي به المقروء " باسم المفعول وأنه ذكر تعريفات متعددة من اللغوين مثلاً الشافعي،الراغب ،الزجاج ،أبو عبيدة و قطرب ولكن المختار عندالسيوطي فِي هذه المسألة ما نص عليه الشَّافعي.

تعريف الأدب لغة

كلمة "أدب" لغةً:من أُدُب يأدب مأدبةَ ، والآدب وهي تحمل معنىً واضحا في الجاهلية، بل كانت تنحسر في مدلولاتها لتدل على معنى (كالدعوة إلى مأدبة أو وليمة) كما قال الشاعر طرفة بن العبد:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى *** لا ترى الآدِبَ فينا ينتقر([21])

والجفلى هي الدعوة العامة و الآدب هو الداعي.

ان لكلمة أدب فِي المعاجم العربية معان متعددة منها:

فَالْأَدْبُ أَنْ تَجْمَعَ النَّاسَ إِلَى طَعَامِكَ. وَهِيَ الْمَأْدَبَةُ وَالْمَأْدُبَة .كما ذُكر فِي كتاب العين للفراهيدي" أدب: رجلٌ أَدِيبٌ مُؤَدَّبٌ يؤدب غيره ويتأدب بغيره. والآدِبُ: صاحبُ المَأْدُبة، وقد أَدَبَ القَومُ أَدْباً، وأَدَبْتُ أنا. والمَأدوبة: المرأة التي صُنِعَ لها الصَّنيعُ "([22])

والأَدْبُ: مَصْدَر، أَدَبَ القومَ يَأْدِبُهُم، بِالْكَسْرِ، أَدْباً، إِذَا دَعَاهُمْ إِلَى طعامِه. والآدِبُ: الداعِي إِلَى الطعامِ.

قال ابن منظورالافريقى:

زَجِلٌ وَبْلُهُ، يجاوبُه دُفٌّ ... نِحُونٍ مَأْدُوبَةٍ، وزَمِيرُ" الَّتِي قَدْ صُنِعَ لَهَا الصَّنِيع"([23])

وقال أيضاً :

---

(21) ابن سعيد الأندلسي :نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب،ص620 حققه: الدكتور نصرت عبد الرحمن،مكتبة الأقصى، عمان – الأردن

(22) الفراهيدي:خليل بن أحمد ،أبو عبد الرحمن، كتاب العين ص 85/8،حققه: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي،دار ومكتبة الهلال

(23) ابن منظور:الإفريقى،محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، لسان العرب207/1، بيروت دار صادر،الطبعة: الثالثة 1414هـ

الأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس ، سمي أدبا لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح ـ[24]

قال الجوهري:

مصدر أدب القوم يأدبهم بالكسر، إذا دَعاهُمْ إلى طعامِه. والآدِبُ: الداعي ، حكاها أبو زيد، واسم الطعام المأدبة والمأدبة.[25]

يقول ابن فارس:

"الهمزة والدال والباء، أصلٌ واحد تتفرع مسائله وترجع إليه: فالأدْب أن تجمع النّاس إلى طعامك، وهي المَأْدَبَة والمأْدُبَة، والآدِبُ الداعي"، ثمّ قال: "ومن هذا القياس الأدَبُ أيضاً، لأنّه مُجمَعٌ على استحسانه"[26].

يقول ابن القيّم:

"وهذه اللفظة مؤذنةٌ بالاجتماع، فالأدب: اجتماعُ خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة، وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس". [27] كما جا في الحديث :

"عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ، قَالَ: " إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ، فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَأْدُبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ"[28]

قال صاحب مختار الصحاح

(أَدُبَ) بِالضَّمِّ أَدَبًا بِفَتْحَتَيْنِ فَهُوَ (أَدِيبٌ) وَ (اسْتَأْدَبَ) أَيْ (تَأَدَّبَ). [29]

(24) لسان العرب 18/1ـ

(25) الجوهري:أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ص 86/1، حققه: أحمد عبدالغفور ،عطار،بيروت: دار العلم للملايين،الطبعة الرابعة 1407 هـ - 1987م

(26) ابن فارس: أبو الحسين ،أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة: 1/ 74، حققه: عبد السلام محمد هارون،دار الفكر،الطبعة: 1399هـ - 1979م.

(27) ابن قيم :الجوزية محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين 2/ 356 ،حققه: محمد المعتصم بالله البغدادي ،بيروت: دار الكتاب العربي،الطبعة الثالثة، 1416 هـ - 1996م

(28) الطبراني : أبو القاسم،سليمان بن أحمد بن أيوب ، المعجم الكبير 130/9 ،حققه: حمدي بن عبد المجيد السلفي،مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.

(29) الرازى: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ، مختار الصحاح،ص15 ،حققه: يوسف الشيخ محمد،بيروت: المكتبة العصرية -الدار النموذجية،- صيدا،الطبعة الخامسة، 1420هـ / 1999م.

قال الجوهري في بيان معني الأدب لغة:
الأَدَبُ: أدَب النَّفْس والدَّرْسِ، تقول منه: أَدُبَ الرجُلُ بالضم فهو أَديبٌ، وأَدَّبْتهُ فَتأَدَّبَ. وابن فلان قد استأدَبَ، في معنى تأدب. ([30])
الان نقدم بعض المصطلحات حول " أدب "
قال الجرجانيّ، الّذي عرّف الأدب بعبارةٍ مختصرة، قائلاً:
"الأدب: عبارة عن معرفة ما يُحترز به عن جميع أنواع الخطـ
قال الزبيدي :
"الأَدَبُ مَلَكَةٌ تَعْصِمُ مَنْ قَامَت بِهِ عمَّا يَشِينُه"([31])
يقول ابن القيّم:
علمُ الأدب:"هو علم إصلاح اللسان والخطاب، وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصيانته عن الخطأ والخلل، وهو شعبةٌ من الأدب العام"([32])
"الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط، وهي القرآن والحديث."([33])
وتعريف ابن القيّم يخُصُّ مجالاً من مجالات اللّغة العربيّة، لكنّه كذلك يعتني بجانبٍ من أهمّ جوانب الأدب، على حدّ قول الشاعر الجاهليّ الحكيم زهير بن أبي سُلمى:
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه فلم يبقَ إلا صورةُ اللّحم والدّمِ([34])
أن الأدب في أصله عبارةٌ عن علمه وغايته وهدفه عبارةٌ عن عمل يقوم به الإنسان لأن الأدب علمٌ ينتج عنه عمل.
أما استعمالات هذه الكلمة في كتب أهل العلم ، فإنها تأتي بمعنى خصال الخير مثل

(30) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،ص86
(31) الزَّبيدي: مرتضى،محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس ص 12،حققه: مجموعة من المحققين،دار الهداية.
(32) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: 2/ 356
(33) مقدمة ابن خلدون "طبعة المطبعة البهية" ص408،
(34) أبي عمرو الشيباني: شرح المعلقات التسع،تحقيق وشرح: عبد المجيد همو،بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- لبنان،الطبعة:الأولى، 1422 هـ - 2001 م

آداب الطعام وآداب الشراب وآداب النكاح وآداب القضاء وآداب الفُتيا وآداب المشي وآداب النوم ونحو ذلك ، وللعلماءفي هذا مصنّفات .

ويُطلق بعض الفقهاء كلمة آداب على كل ماهو مطلوب سواءً كان واجبًا أو مندوبًا و كلمة الأدب تطلق أيضاً على ما يتعلق باللغه من إصلاح اللسان ، وفن الخطاب ، وتحسين الألفاظ ، والصِّيانه عن الخطأ والزلل .وقد صنف ابن قتيبة- رحمه الله - في ذلك " أدب الكاتب " . إذاً فكلمة الأدب المستعملة في اللغة - مثل ما يرتبط بالشعر والنثر ، حيث أطلقوا على بعض الأشياء المتعلقه باللسان من الشعر والنثر أدباً- وفي "المصباح المنير" : ((قال أبو زيد الأنصاري : الأدب : يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل[35])

(35) أبو العباس: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبيرص9،بيروت: المكتبة العلمية-

الفصل الثاني: مفهوم الأدب والأديب عند مصطفى صادق الرافعي

حظي مفهوم الأدب والأديب منذ زمن طويل بعناية بالغة من قبل النقاد العرب قدامى ومحدثين على اختلاف رؤاهم وتعدد مشاربهم. إذا اعتبرت الخيال في الذكاء الإنساني وأوليته دقة النظر وحسن التمييز، لم تجده في الحقيقة تقليدًا من النفس للألوهية بوسائل عاجزة منقطعة، قادرة على التصور والوهم بمقدار عجزها عن الإيجاد والتحقيق.

ومصطفى صادق الرافعي واحد من كبار أدباء العرب وناقديهم الذين أبدوا عديدا من الآراء في تعريف هذين المصطلحيْن، حيث أولى مجال الأدب تعريفاً وماهيةً أوفر نصيب من عنايته، كما قال في كتابه وحي القلم:

" الأدب، أنه لا بد معه من البيان؛ لأن النفس تخلق فتصور فتحسن الصورة؛ وإنما يكون تمام التركيب في معرضه وجمال صورته ودقة لمحاته؛ بل ينزل البيان من المعنى الذي يلبسه منزلة النضج من الثمرة الحلوة إذا كانت الثمرة وحدها قبل النضج شيئًا مسمى أو متميزًا بنفسه، فلن تكون بغير النضج شيئًا تامًا ولا صحيحًا، وما بد من أن تستوفي كمال عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها".([36])

وعبارة الرافعي في تعريف الأدب تدلّ على أنه الأديب العربي أعظم أثر في وقته، إذا ما تحققت له عناصر الأدب، التي حصرها في الحياة والخلْق والقوة والإبداع، ومن فعاليتها في النص الأدبي تأتي قيمة ذلك الأدب.

ونجد الرافعي بعد ذلك يذهب في تحديد مفهوم الأدب بعد تصوره لواقع الأدب في أيامه، ويقف عند حدّ بيان أنَّ الأدب العربي كان يعاني محنة ليس فقط : "في الأدب من لغته وأساليب لغته، ومعانيه وأغراض معانيه، بل حتى في القائمين عليه في مذاهبهم ومناحيهم وما يتفق من أسبابهم وجواذبهم" ([37])

ومن هذا المنطلق، عكف الرافعي على الإصلاح اللغوي كمرحلة أساسية لوضوح الرؤية في التنظير للأدب كما يقول حلمي مرزوق، أنَّ "العُجْمَة قد غلبت على ذوق العصر وأنَّ العامية تفشت فيه، فأحرى به أنْ يحمل على الصحيح لا أنْ يُقاس الصحيح إلى

(36) الرافعي : مصطفى صادق ،وحى القلم ص 91 ، بيروت، دار الكتاب اللبناني.
(37) وحي القلم، 3/ 207.

خطئه"([38])

ومن هنا حدد المنهج الذي يسلكه، بدءً بالاهتمام بقضية اللفظ والمعنى أو بمنهجه البياني، حيث أدرك حقيقة أنَّ الألفاظ عناصر أساسية بدونها لا يُعْتَمد الأدب، فلا فضل للمعنى على الصياغة اللغوية وإنما تعوزهما أهمية متساوية لكل منهماكماذكر في كتابه: "إذا قيـل الأدب، فاعلم أنه لابد معه من البيان، لأنَّ النفس تخلق فتصور فتحسّ الصورة، وإنما يكون تمام التركيب في معرضه وجمال صورته دقّة لمحاته" ([39])

وبذلك، يرى الرافعي أنَّ صناعة الأدب لا تؤدي وظيفتها إلاَّ داخل سياق الألفاظ، وعلى الأديب الذي يستهدف الإبداع نظماً ونثراً، عليه طلبه بعد أن تستقر له ملكة البيان ويتخلص من العُجْمَة. ولا نرى الرافعي في هذا الطرح إلا أنه يقرر ما ذهب إليه قبله ابن جني في خصائصه حين قال: "فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا ترينَّ أنَّ العناية إذْ ذلك إنما هي الألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني، وتنويه بها وتشريف منها" ([40])

والرافعي بذلك يقرب من إمام البيان العربي، الجاحظ، قرباً بيِّناً، بل إنه ينقل رأي الجرجاني، حيث يذكر "أنَّ فضل الشعر بلفظه لا بمعناه، وأنه إذا عدم الحسن في لفظه ونظمه لم يستحق هذا الاسم بالحقيقة" ([41]). ومن هذا يتبين لنا أنَّ الرافعي كالجاحظ والجرجاني في العناية بالصياغة، التي يعتبرها وسيلة انفراد النص وتميزه عن غيره.

فإذا تدبرنا فيما تقدم، حكمت بعلوّ اللفظ و"غموضه " وبانعدام الفائدة في المعنى، إلا أنَّ الرافعي في كل ذلك لا يتصور للفظ موضعاً من غير أنْ يعرف معناه وبعد أنْ يفرغ من معرفة المعاني وترتيبها في نفسه، يتبعها بالألفاظ الدالة عليها، وبدون ذلك لا يتأتى له أنْ يشتق لفظاً من لفظ، وذلك هو الأصل في الاشتقاق.

---

(38) حلمي مرزوق، تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين ص370، بيروت، دار النهضة العربية، 1982ـ

(39) وحي القلم3/211.

(40) ابن جني، الخصائص1/ 218 ، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية 1371هـ/1952م.

(41) الجرجاني: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، كتاب دلائل الإعجاز1/256،حققه: محمود محمد شاكر أبو فهر،مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة،الطبعة: الثالثة 1413هـ - 1992م

الأفكار عن مفهوم الأديب

حيث قال ابن عبد ربه :

" لا يستغنى الأديب عن ثلاثة واثنين: فأمّا الثلاثة: فالبلاغة والفصاحة وحسن العبارة. وأما الاثنان فالعلم بالأثر والحفظ للخبر.(42)

أما الاثنين منها العلم بالاثر فقال ياقوت الحموي عن العالم و الأديب فى معجم الأباء:

"والفرق بين الأديب والعالم أن الأديب من يأخذ من كلّ شيء أحسنه فيألفه، والعالم من يقصد لفنّ من العلم فيعتمله ولذلك قال علي كرّم الله وجهه: العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كلّ شيء أحسنه،"(43)

رأي عمر الدسوقى عن مفهوم الأديب

" أن الأديب الأصيل هو الذي يكون له أسلوبه الخاص، لأن الأسلوب صورة من النفس، ولكل ذهن التفاتاته الخاصة، وطريقة في تناول المسائل وعرضها "(44)

وبهذا المنحى يؤمن كمال زكي "بأنَّ الأديب يعيش بإحساسه أكثر مما يعيش بعقله، أيْ أنه يفسر حياته تفسيراً قائماً على الوجدان" (45).

ويمضي الرافعي، بعد ذلك، مؤكداً سرّ تلك اللغة وغناها، الذي يراه دائماً ألفاظها وفي اتساع وجوه التصرف فيها، تأكيداً شاملاً، وذلك حين يعمق هذه النظرة باللجوء إلى الكشف عن الصلة التي يجب أن تنفصم بين الأديب المجدد واللغة وفق ما تؤديه شروط محددة بينهما كالحرية والنظام والنمو (46)

من أجل ذلك، نميل إلى القول بأن سبب خلود الرافعي في عصره وبعده يكمن في هذه

---

(42) ابن عبد ربه: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد ، العقد الفريد260/2، بيروت: دار الكتب العلمية،الطبعة الأولى، 1404 هـ

(43) ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ،معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب 20 ،حققه: إحسان عباس،بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1993 م

(44) عمر الدسوقي ،في الأدب الحديث ص284،دار الفكر العربي،الطبعة: 1420 هـ- 2000م

(45) أحمد كمال زكي، دراسات في النقد الأدبي، ص 18.

(46) الرافعي، تاريخ آداب العرب، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 2، 1394هـ/1974 م - ج 1، ص 216.

الأمور على الخصوص، وهي ترجع إلى طبيعة منهجه البياني بزواياه اللغوية المنوعة التي كشفت لنا عن قدرته على تصريف العبارة وتنويع الأسلوب طبقاً لمقتضيات القول: "على أن العبرة هنا وهناك ليست في الوقوف على هذه القوانين أو أصول هذه المزية، وإنما هي في نفس الثقافة والمعرفة بهذه الأداة، والرافعي كان موفور الحظّ في هذه الجهة" (47)

هذه المآخذ في أسلوب الرافعي تسلم إلى إثبات أنَّ الرافعي كان يعمد إلى الغموض والالتواء قصداً، ويلجأ إليه عمداً.

ونحن من جانبنا لا نرتاب في أن الرافعي كان يتعسف أحياناً في أساليبه تعسفاً واضحاً في غالبية مؤلفاته الشعرية كالسحاب الأحمر، وحديث القمر، ورسائل الأحزان، وأوراق الورد، وغيرها. ومنها نورد قوله : "وفي تلك الساعة كانت الأرض قد عريت من أواخر الناس وطوارق الليل وبقية من يقظة النهار تحبو في الطريق ذاهبة إلى مضاجعها" (48). وقوله في مقام آخر واصفاً البحر: "فكأنما البحر سحاب عظيم قد حبسه الله في الأرض فهو أبداً ثائر يضج ويرعد ولا يبرح تنازع الأرض أنْ يفرّ منها" (49)

فعندما ينظر الرافعي، مثلاً، إلى ألوان الطبيعة من أرض وليل ونهار وبحر، إنما ينظر إلى جمالها الشكلي وتشكلها عبر الأيام والسنين، فأحسّ بتلك اللذّة جماليةالتي كانت ترتديه، ولم ينظر إليها في وظيفتها التي تقوم بها. وهو بذلك يحيلنا على ذلك السر الذي لا يراه إلا في أنَّ "الجمال حيث أصبته شيء واحد يكبر ولا يصغر، ولكن الحسّ به يكبر في أناس ويصغر في أناس، وها هنا يتأله الأدب، فهو خالق الجمال في الذهن، والممكن للأسباب المعينة على إدراكه وتبين صفاته ومعانيه" (50)

على أن هذه الخاصية لن تستطيع أن تضفي على نصوصه بعداً جمالياً بدون صياغة وأسلوب، وقد "ذهب النقد الأدبي إلى أبعد من ذلك حين رأى أنَّ في الإمكان الوصول إلى أقصى

(47) حليم مرزوق، تطور النقد و التفكير الأدبي، ص 372.
(48) الرافعي، السحاب الأحمر ص 100، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الثامنة 1402هـ/1982م.
(49) الرافعي، أوراق الورد ص 253، مصر:الطباعة السلفية، الطبعة 1349هـ/1931 م.
(50) الرافعي، وحي القلم، ج3، ص 215.

آفاق الجمال بتتبع جرس الألفاظ دون المعاني" (51)، و هذاالقول يشير إلى ذلك بأنه لا يمكن تصور وجود أدب بدون أسلوب لدى أيّ باحث أو متذوق أو ناقد، فالصلة بينهما متينة وأكيدة.

فنّ الأدب بين الأسلوب والقيم الجمالية

جاء تصور الرافعي للازدواجية الواجبة في فنّ الأدب بين الأسلوب والقيم الجمالية، حين تمثل في قوله "بأن البيان صناعة الجمال في شيء وجماله هو من فائدته، وفائدته من جماله، فإذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره، عاد باباً من الاستعمال بعد أنْ كان باباً من التأثير" (52)

هذه هي نظرية الرافعي في جمالية النص الأدبي التي تقوم أساساً على الكشف عن أسرار جمال العبارة وما يبلغه الأدب من أهداف مثل التأثير في نفس المتلقي، وحصول ملكة الذوق التي تهيئ للأديب تقدير عمله الأدبي والوقوف عند أسرار الحسن فيه. ثم ينتقل من هذه الفكرة إلى فكرة أخرى أعمق وأدق من الأولى. وهي التي يجملها قوله :

"فالغرض الأول للأديب المبين أنْ يخلق للنفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها إلى المجهول وإلى مجاز الحقيقة ولن يكون الأدب أدباً إلاَّ إذا وضع المعنى في الحياة التي ليس لها معنى، أو كان متصلاً بسرّ هذه الحياة فيكشف عنه أو يومئ إليه من قريب، أو غيَّر للنفس هذه الحياة تغييراً يجيء طباقاً لغرضها وأشواقها" (53)

وإنَّا لنجد في قول الرافعي هذا مدى اهتمامه التي يراها مصدر كل معرفة ومنبع القوة والإلهام والإبداع الأدبي في الأديب، بل يتعمق الرافعي أكثر حين يعين الشعور العميق المتأصل في نفس كل أديب هو المعين على تتبع أثر المبدع في مثيره طلباً للسمو والجمال الفني. ولذلك يبقى، كما يذهب إليه أحمد عامر، دائماً: "الأدب صورة النفس، أو ترجمان النفس، والشاعر أو الأديب هو الذي يعبر عن نفسه، فيجيد التعبير بلا تزويق ولا تمنيق،

(51) أحمد كمال زكي، دراسات في النقد الأدبي، بيروت، دار الأندلس، ط 2، 1980، ص19.
(52) أوراق الورد، ص 212.
(53) وحي اللقم، ج3، ص 212.

إنه يترك نفسه على سجيتها تنبض بما في داخلها، مندفعة بطاقات التجارب المتعددة" (54) ومن أجل ذلك، ظلَّ الرافعي يفرز عالمه الرحب والأبقى على غرار عوالم الأدباء، زاهداً عن كل ما بالحياة ابتغاء التفرد والاستئثار بعلوّ المنزلة. وقد رست تلك الحقيقة لديه لما قادته شحناته النفسية والشعورية إلى أساس ذلك الفن المرجو الذي لم يره إلاَّ بعد "ثورة الخالد في الإنسان على الفاني فيه، وأنَّ تصوير هذه الثورة في أوهامها وحقائقها بمثل اختلاجاتها في الشعور والتأثير، هو معنى الأدب وأسلوبه" (55)

هذا ما يقودنا إلى القول بأنَّ معنى الأدب عند الرافعي، يتحدد في تلك العلاقة بين الأدب والنفس المبدعة التي توجد ذلك التوازن بين العقل والقلب لدى الأديب. وهنا تتمثل لنا النظرة الجديدة إلى الأدب عند الرافعي: إنها تلك الثورة الفنية الجديدة التي أضافها إلى رصيدنا الأدبي، المجسدة في تلك الخواطر الأدبية ذات القيمة الفنية، والمنبعثة من أعماق نفسه الملهمة بعد أنْ اعتملت فيها انطباعاته القوية أثناء تجربته الشعرية التي مرَّ بها، فكان الأدب عنده على الإطلاق علم المشاعر والأحاسيس، وما القلب إلاَّ ضوء الحقيقة في مثيره الفني .

(54) فتحي أحمد عامر، من قضايا التراث العربي: الشعر و الشاعر، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1405هـ/1985م، ص 95.

(55) المصدر السابق، ص 213.

الفصل الثالث: أثر القرآن في الأدب من جهة ألفاظه و جهة معانيه

كان الإعجاز القرآني خليقا أن يثير في الحياة الإسلامية مباحث على جانب عظيم من الأهمية يتصدى بها العلماء للكشف على وجوه البلاغة القرآنية.

وبذل العلماء جهودا مشكورة، وقاموا بمحاولات مضنية، لإبراز البلاغة القرآنية في صورة موحية ذات ظلال، ولكنهم وقفوا غالبا عند النص الواحد، فاقتطعوه اقتطاعا من الوحدة القرآنية الكبرى ، ودرسوه دراسة تحليلية جزئية ذهب بمعالم جمالها الذي لا يتناهى حول مشكلة اللفظ والمعنى، فكانت النزعة الكلامية تفسد عليهم تذوقهم للنصوص، وإدراكهم مواطن البلاغة والإعجاز. قال الجاحظ في كتابه الحيوان: "ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن الكريم لتعرف بها ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز، والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة.(56)

فمنها قوله حين وصف خمر أهل الجنة ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ (57) وهاتان الكلمتان جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا. وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة: ﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ (58) جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني.

كان عبد القاهر ذواقة للأسلوب القرآني، حتى أوشك أن يسبق عصره في بعض لمحاته الموفقة التي نفذ بها إلى إدراك الجمال الفني في كتاب الله. واستمع إليه وهو يفسر هذه الصورة البارعة فسيعجبك منه بلا ريب حسه المرهف الدقيق وفهمه طريقة القرآن المفضلة في التعبير والتصوير (59) كما في قوله تعالى: ﴿واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ (60)

أوجه الإعجاز القرآني

أن ما في القرآن أوجه وأفصح وأكثر معاني. والفرق بينهما في البلاغة من أربعة أوجه.

(56) الجاحظ: أبو عثمان ،عمرو بن بحر، الحيوان 42/3،بيروت :دار الكتب العلمية ،الطبعة: الثانية، 1424هـ

(57) الواقعة ، 19

(58) الواقعة ، 33

(59) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن ص 314 ،دار العلم للملايين ،الطبعة الرابعة والعشرون كانون الثاني/ يناير ،2000ـ

(60) مريم ، 04

الأول ، وهو أنه أكثر في الفائدة.
الثاني ، وأوجز في العبارة.
الثالث ، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة.
الرابع ، أحسن تإليفاً بالحروف المتلائمة.

أما الكثرة في الفائدة ففيه كل ما في (القتل أنفى للقتل) ، وزيادة معاني حسنة، منها إبانة العدل لذكره القصاص، لأنه ليس في قولهم القتل أنفى للقتل بيان أنه قصاص، ومنا إبانة الغرض المرغوب فيه وهو الحياة، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة وحكم الله به.([61])

وأما الإيجاز في العبارة، فإن الذي هو نظير القتل أنفى للقتل، وقوله تعالى:﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾([62]).

قال ابن سنان الخفاجي عن وجوه اعجاز القرآن:

وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك. وإذا كان الأمر على هذا فنحن بمعزل عن ادعاء ما ذهب إليه من أن بين تإليف حروف القرآن وبين غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم ثم لو ذهبنا إلى أن وجه إعجاز القرآن الفصاحة وادعينا أنه أفصح من جميع كلام العرب بدرجة ما بين المعجز والممكن لم يفتقر في ذلك ادعاء ما قاله من مخالفة تإليف حروفه لتإليف الحروف الواقعة في الفصيح من كلام العرب وذلك أنه لم يكن بنفس هذا التإليف فقط فصيحا وإنما الفصاحة لأمور عدة تقع في الكلام من جملتها التلاؤم في الحروف وغيره.([63])

فيقال له فما عندك في تإليف كل لفظة من ألفاظ القرآن بانفرادها أهو متلائم في الطبقة

---

(61) أبو الحسن: علي بن فَضَّال بن علي بن غالب ، النكت في القرآن الكريم (في معاني القرآن الكريم وإعرابه) ،دراسة وتحقيق: د. عبد الله عبد القادر الطويل، بيروت:دار النشر، دار الكتب العلمية - الطبعة: الأولى، 1428 هـ - 2007 م

(62) البقرة ،179

(63) ابن سنان الخفاجي: أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد، سر الفصاحة 100،دار الكتب العلمية،الطبعة الأولى 1402هـ_1982م

العليا أم في الطبقة الوسطى فإن قال في الطبقة العليا قيل له أو ليس هذه اللفظة قد تكلمت بها العرب قبل القرآن وبعده لأن التلائم من ألفاظ القرآن في الطبقة الوسطي ،فقد بان أن الذي يجب اعتماده أن التإليف على ضربين متلائم ومتنافر وتإليف القرآن وفصيح كلام العرب من المتلائم ولا يقدح هذا في وجه من وجوه إعجاز القرآن.

وأبو سليمان حمدين محمد الخطابي يثبت رأيه في إعجاز القرآن، فيبين أن الكلام الفاصل ثلاثة أقسام: بديع رصين جزل، فصيح قريب، سهل جائز مطلق، ومن هنا: إعجاز القرآن؛ لأنه أخذ من كل قسم، وجمع ذلك في قوة واحدة، فكان إعجازه وبلاغته".(64)

فهناك عدة أوجه آخر عن إعجاز القرآن وقد حاولنا تقصيها في كل سورة وفي كل آية منها:

أحد تلك الأوجه التي يعجز الإتيان بمثلها وهذا الصدق الذي نزل به القرآن " لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ "- (65)

وهو الذي جعل لكلماته هذه الحياة القوية المتمكنة، المتجددة، الخالدة التي لا تنال منها الأيام ولا تنتقص ذرة من كيانها الدهور

أما الثاني إعجازه في إتقان معانيه فلم يترك القرآن الكريم أمرا إلا بينه أو أشار إليه. في الخلق والخالق وفي ما وراء الطبيعة في الماضي والحاضر والمستقبل وفي العبادات والمعاملات في الحقوق والواجبات ((وقد أتى في جميع ذلك بالحقائق الراهنة، التي لا يتطرق إليها الفساد والنقد في أية جهة من جهاتها... وهذا شيء يمتنع وقوعه عادة من البشر)) فقد قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ**﴾ (66).

أما الثالث: في أخباره عن الغيب عما لم يقع بعد... ووقع كما ذكره فعلا كقوله تعالى:﴿**غُلِبَتْ الرُّومُ *فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ**﴾(67) وقوله تعالى:﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾ (68).

(64) المقال وتطوره في الأدب المعاصر ، 319

(65) سورة فصلت:42

(66) الاسراء: 89.

(67) الروم: 3.2.

(68) القمر: 45.

أن جهة إعجاز القرآن بتلك الروحانية التي يحتويها القرآن وتسيطر على اللب عند قراءته وهي أمر من الله لا يعلم كنهها وروح من الله.

في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس. فانك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا. إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه(69).ولم تقف أوجه الإعجاز القرآني عند هذه فلقد قال ابن سراقة في كتابه الإعجاز بانه قد "اختلف أهل العلم في وجه اعجاز القرآن فذكروا في ذلك وجوها كثيرة كلها حكمة وصواب، وما بلغوا في وجوه اعجازه جزءا واحدا من عشر معاشره"(70).

وصحيح أن تلك الصورة والأوجه الاعجازية متوافرة في سور القرآن الكريم وتتحداهم بقوله تعالى:﴿**قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ**﴾ (71).

وقوله تعالى:﴿**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ**﴾ (72) وبهاتين الآيتين تحدى بكل القرآن لكي يكون حاويا بأجمعه كل تلك الأوجه الاعجازية.

الإعجاز البلاغي

كل تلك الوجوه من وجوه الإعجاز جاءت بكلام بليغ وألفاظ سامية ارتفعت فوق كلامهم، وأخرست أمام بيانه ألسنتهم، ومن هذا الباب جاءت شمولية هذا الوجه للأوجه الأخرى.. هذا أولا.

ولكون الله سبحانه وتعالى تحداهم بالإتيان بعدد من السور وذلك بقوله تعالى:﴿**قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ**﴾ (73)، بل تحداهم في الإتيان بسورة واحدة فقال تعالى:﴿**فَأْتُوا بِسُورَةٍ**

(69) اعجاز القرآن للباقلاني: 64.
(70) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية: 155.
(71) الاسراء: 88.
(72) الطور: 34.
(73) هود: 13.

مِنْ مِثْلِهِ﴾ (74).

وقوله تعالى:﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ (75)، وتلك الأوجه الاعجازية لا تتوافركلها في كل سورة من سور القرآن.بل تختلف كل سورة بوجه إعجازي عن السورة الأخرى ولكن الوجه البلاغي يتوافر في كل سورة من سور القرآن ـ

"وأبو بكر محمد الطيب البقلاني، ألف كتابه: "إعجاز القرآن" تكلم فيه عن سبل البلاغة، وبلاغة الرسول، وإعجاز القرآن، ولا يوافق من قال بالصرفة؛ لأن التحدي لا يتفق معها، ثم يرد إعجاز القرآن إلى ثلاثة: ما تضمنته الأخبار عن الغيب، وما فيه من قصص الأنبياء مع أمية الرسول وبلاغته(76)

موارد الإعجاز البلاغي

لما كان الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم هو أهم الأوجه الاعجازية له كان لا بدّ لنا أن نشير إلى موضع ذلك الإعجاز وأين يكمن... فلقد "ورد عليهم أسلوب القرآن يحمل ألفاظهم باعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرف الخطاب وألوان المنطق ليس في ذلك إعنات ولا معاياة، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها. وكلماته في جملها، ونسق هذا الجمل في جملته ما أذهلهم في أنفسهم من هيبة رائعة وروعة مخوفة"(77).

اجتمعوا على الإتيان بمثلها وعجزوا واعترفوا بذلك ،فقال بلغاؤهم: "ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، أن له لحلاوة وان عليه لطلاوة. وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وأنه يعلو ولا يعلى عليه"(78) ولجأوا بعد ذلك إلى مقارعته بالسيوف والسنان بدلا من البلاغة والبيان. لأنه لم يكن متعلقا بوجه من وجوه البلاغة ولا قسم

(74) البقرة: 23.

(75) يونس: 38.

(76) أبو ذكري: السيد مرسي ،المقال وتطوره في الأدب المعاصر،ص 319دار المعارف ،الطبعة: 1981-1982

(77) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية: 189.

(78) الكشاف ،تفسير سورة المدثر: 649/4.

من أقسام الفصاحة فمن قال باختصار فبالقرآن منه كل أوجهه. ومن أراد الإطناب وجد فيه ضالته.

فمن الاستعارة أوجهها ومن البديع أبدعه ومن السجع أروعه. جاء للكناية نهجا وللمجاز تصويرا ومن التشبيهات ضروبا. بل وأخذت قواعد كل تلك الأبواب منه ورسمت لها كل صفاتها عليه فجاء بشأو من النظم قال الباقلاني:"ليس له مثال يحتذى به ولا أمام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقا"(79).

ولا جدال في الإعجاز القرآني من هذا الوجه فقد قامت عليه أدلة قاطعة شهد لها التاريخ منذ نزوله حتى اليوم وإنما وقع الجدال في هذا الوجه من الإعجاز في أسراره ووجوه تلك الأسرار حيث أن الأمر لا يقع موقع المشاهدة والحس وإنما هو حقيقته مضمرة في كلمات القرآن وآياته والكشف عنها ليس مما يتيسر لكل طالب إذ لا بدّ لمن يريد شيئا من هذا أن يكون على علم بمقاييس البلاغة وموازين الفصاحة وان يكون مع هذا ذا احساس فني يمكنه على تذوق الكلام والتفريق بين أجناسه لأن القرآن جاء بالكمال اللغوي والكمال البلاغي بكل صنوفهما وبجميع معاييرهما فقد علا لفظه فوق كل لفظ وأحكم معناه على كل معنى فلو أفردنا مفرداته واحدة واحدة وألفاظه لفظة لفظة وجدناه معجزا باستعمالها ولو جمعناها إلى بعض وجدناها هي الاخرى أية في التصوير وضرب من ضروب السحر البياني.

فقال الرافعي :" لقد جمع في أسلوبه أرقى ما تحس به الفطرة اللغوية من أوضاع البيان ومذاهب النفس إليه وبهذا ـ أحسوا بعجزهم عما امتنع مما قبله وكان كل أمرئ منهم كأنما يحمل في قرارة نفسه برهان الإعجاز وان حمل كل افكٍ وزور على طرف لسانه"(80).

وقال الباقلاني "جمع في كتابه الكثير من المباحث البلاغية القرآنية ولكنه ـ على سعته وشموله ـ لا يصور إلا الفكرة السائدة عن الإعجاز في عصره ممزوجة بالمسائل الكلامية الكثيرة التي تفقد الكتاب سماته في استقصاء الجمال الفني في القرآن"(81).

---

(79) اعجاز القرآن للباقلاني: 112.

(80) اعجاز القرآن والبلاغه النبوية: 192.

(81) مباحث في علوم القرآن: 316.

ولكن الحق أن كل هؤلاء ومن سبقهم قاموا بمحاولات مضنية لإبراز البلاغة القرآنية في صورة موحية ذات ظلال. ولكنهم وقفوا غالبا عند النص الواحد فاقتطعوه اقتطاعا من الوحدة القرآنية الكبرى ودرسوه على حده دراسة تحليلية جزئية ذهبت بمعالم جمالها (82).

وبالرغم من أنّ الأسباب التي دعتهم إلى البحث في البلاغة من حيث ألفاظها أو معانيها هو الدفاع عن القرآن وبيان إعجازه وإثبات ذلك الإعجاز. وقد سموا بذلك عناوين مؤلفاتهم التي ألفوها ولكننا نرى استشهادهم بالشعر العربي ونقده ومميزاته أكثر بكثير من الحديث حول آيات القرآن الكريم أو توضيح أوجهها البلاغية لان كل لفظة تختلف عن الأخرى بخاصية تتميز بها في معناها في حالة ترادفهما.

فقد عرف بتأكيده على اللفظ دون المعنى من عنصري البلاغة تأكيد بالغ فيه كثيرا فاعتبره الباحثون زعيما لمدرسة اللفظ البلاغية وقطبا من أقطابها البارزين وجل أولئك الباحثين قد اعتمدوا على قول الجاحظ:"بان المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة النماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير"(83).

البلاغة عند الجاحظ في حسن اللفظ دون المعنى. كما قال فى كتابه البيان والتبيين:" أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة"(84).

وقال أيضا في كتابه الحيوان :"فان لكل قوم ألفاظ حظيت عندهم. وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون لا بدّ أن يكون قد لهج وألف ألفاظا بأعيانها ليديرها في كلامه وان كان واسع العلم عزيز المعاني"(85).

---

(82) المصدر نفسه: 313.
(83) الحيوان: 161/3.
(84) البيان والتبيين: 82/1.
(85) الحيوان: 366/3.

وما أميل إليه أن الجاحظ لم يهمل المعاني في صياغة الكلام عندما يوصف بالبلاغة أو البيان فاللفظة المفردة لا يمكن أن تكون بليغة إن انفصلت عن سابقتها وما تلحق بها وإنما تكون اللفظة فصيحة تمييزا لها من الألفاظ السوقية فالجاحظ اعطى أهمية للألفاظ أكثر من المعاني. لأن الناس يختلفون بكيفية وصول مرادهم من الكلام معناه إلى أفهام الناس. فمنهم من اختار الإسهاب ومنهم من تخيّر الإيجاز.وتأتي بلاغة المتكلم هنا باختياره الألفاظ المناسبة الجميلة واخصرها عددا وأوفرها معنى.

كما وضح أبو هلال العسكري: " ليس الشأن في ايراد المعاني لأن المعاني يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي، وانما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه وكثرة حلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من اود النظم والتاليف وليس بطلب المعنى إلا أن يكون صوابا ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت"(86).

فقال العكسري:"الكلام ألفاظ تشتمل على معانٍ يعبر عنها،فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ، لأن المدار بعد على اصابته المعنى ولأن المعاني تحلّ من الكلام محل الابدان والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة ومرتبطة أحدهما على الأخرى"(87).

أن مراد الجاحظ والعسكري في تحسين اللفظ كي يدل على المعنى الأصح اثناء الاستعمال فالمعلوم من ألفاظ اللغة العربية في أثناء استعمالها انها تدل على معنى يختلف عن الآخر فيما إذا انفردت عن الاستعمال، فان استعملت بمكان اللفظة المراد بناء المعنى عليها لفظة اخرى مرادفة لمعناها فقد فسد المعنى المراد، فان كانا يريدان الألفاظ المفردةكماقال ابن سنان الخفاجي:" وان كانا يردان الألفاظ المؤلفة ،لأن مرادهما هذا، فان المحدثين إذا أخذوا ألفاظا قد ألفها ناظم قبلهم لم يؤثر فيها أخذهم لها حتى يقال: إنها في شعر الاول أحسن منها في شعر الآخر"(88).

وبعد هذه الجولة في اللفظ لا يمكن عدّ بلاغة القول من ألفاظه مفردة قائمة وحدها وقال

(86) الصناعتين: 57 ـ 58.
(87) المصدر نفسه: 69.
(88)) سر الفصاحة: 274.

أيضاً:"فالفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني فلا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة. وان قيل فيها فصيحة وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغ"(89).

ولا يمكن أن يكون الإعجاز القرآني بألفاظه المفردة ولو انها ارتفعت وسمت ولكنها متوافرة قبل نزول القرآن ومستعملة في كلام العرب وأشعارهم واستعمالها في القرآن اعجزهم عن الإتيان بذلك الاستعمال لتلك الألفاظ.

ذهب فريق من البلاغيين إلى أن بلاغة الكلم تتوافر في المعنى من دون اللفظ وكان نظر هذا الفريق من أهل البيان إلى المعاني بانها هي الأصل والصياغة والألفاظ، انما هي تبعٌ لها.

وقال ابن جني :"فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها وحموا حواشيها وهذبوها وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا ترين أن العناية إذ ذاك انما هي بالألفاظ بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني"(90).

ولكن لوعدنا إلى آراء العلماء المختلف لوجدناهم لم يفصلا بين اللفظ والمعنى ولم يذهبا إلى أن بلاغة الكلام تكمن في معناه دون لفظه. ولكن ابن جني يرى الاهتمام بالمعاني من خلال الألفاظ المتساوقة في الكلام لأن المعاني عنده أشرف من الألفاظ وهذه الألفاظ ما هي إلا خدم للمعاني لتوضيحها وكشف اسرارها.

أما عبد القاهر الجرجاني فأظن أن من قال بأنه يذهب إلى تفضيل المعنى استند إلى قوله:"لا يكون لأحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها ومن انكاره مذهب مدرسة اللفظ ونقده لآراء روادها واعتبار تلك الآراء خطأ والقول بها يؤدي بصاحبها إلى إنكار إعجاز القرآن من حيث لا يشعر"(91).

فلو تصفحنا بعض آيات القرآن الكريم في هذا الباب لوجدنا انه اكتفى بألفاظ قليلة منمقة مختارة تدل على معانٍ كثيرة واسعة مختارة هي الاخرى ففي قوله تعالى:﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ يدخل فيها العدل والمساواة وألفاظه خير من قولهم:

(89) المصدر نفسه، 49.

(90) ابن جني، الخصائص: 218/1.

(91) دلائل الإعجاز: 199.

(القتل انفي للقتل)) وأعم منه وأشمل لأنه يشمل القصاص في القتل والجروح والضرب ويختص بالقصاص لأهل العقل والبصيرة ليخرج المجنون والطفل والحيوان وقال الجاحظ(92) عن قوله تعالى: ﴿ لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ﴾ (93)بان هاتين الكلمتين قد جمعتا جميع عيوب اهل الدنيا.

وفي قوله تعالى:(لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ (94) جمع جميع تلك المعاني.

وكذلك اوجه الحذف فهي كثير في آيات القرآن الكريم فقد استغنى القرآن الكريم عن الكلمة والكلمتين ولم يختل المعنى ولم يفسده بل زاد اللفظ نغما ووقعا اكثر.

قال ابن رشيق القيرواني:" بان اللفظ جسم والمعنى روح ذلك الجسم ولا يمكن فصل الروح عن الجسم"(95)- ويرى ابن قتيبة أن هناك دواعي تؤثر في الشعر وتلعب دورا هاما في بلاغة النص الأدبي من حيث اختيار ألفاظه أو معانيه كدواعي الغصب والطمع والرثاء والمديح والشرب والطرب والأوقات(96). وعلى هذا الرأي يترفع النص القرآني عن تلك التأثيرات أو الدواعي، فألفاظه سمت وتواشجت مع معانيها في كل قصد من مقاصده وفي كل آية من آياته فهو ينتقل من موضوع إلى موضوع ومن غاية إلى غاية بآياته وإرشاداته فمن أحكامه إلى قصصه ومن الفلسفة إلى الأدب بالترغيب تارة والترهيب تارة أخرى يمدح هؤلاء ويمنيهم ويذم اولئك ويتوعدهم وقد جمع فيه من كل مثل **(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ)**(97) وقد عجز أولئك عن هذا الكلام وأصبحت حقيقة ودراية ثابتة لا مجرد رواية قابلة للنقص أو الإبرام ولذلك نعتوه بالسحر**(أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ)**(98).

---

(92) الحيوان: 86/3.
(93) الواقعة 19
(94) الواقعة 33
(95) العمدة: 124/1.
(96) الشعر والشعراء:ص 8 .
(97) الكهف: 54.
(98) الطور: 15.

الفصل الرابع : أثر القران الكريم في الأدب : "الشعر و النثر"

كان العرب يتذوّقون بكلامهم في صورة الشعرالتي تشتمل علي أوصاف مختلفة منها المدح ، الرثاء ،الهجاء ،الغزل ،التشبيب ،الحكمة و الكرامة وأما النثر التي يشمل الخطابة والكتابة منها أدب الرسائل والمسرح والأقاصيص ،لأن القرآن الكريم نزل بألسنتهم اللسان العربي المبين ورأؤ فيه فصحاء العرب وبلغاؤهم جوهر فطرتهم في اللغة والبيان، وأدركوا منذ أن استمعوا إلى آياته البينات، أنه فاق المستوى الذي تعارفوه في بيانهم وأشعارهم، فكانوا أول من شهد بإعجازه.

روي أن الوليد بن المغيرة- وكان من فصحاء العرب وذوي الرئاسة فيهم- "جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا. قال: لم؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له قال: وماذا أقول «فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته»

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: " هذا سحر يؤثر يأثره من غيره (99) فنزلت ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (100)

كان القرآن يروع أولئك الفصحاء بسحر بيانه، ويشد إليه أسماعهم، ويهز مشاعرهم هزا قويا، وينفذ إلى نفوسهم فيؤثر فيها، ثم تختلف استجاباتهم.

حينما أقبل الناس على القرآن يحفظونه ويرتلونه، ويدرسونه ويتعلمون علومه، فأصبح القرآن أساسا رئيسيا في التربية والتعليم، وعنصرا هاما في الثقافة والتكوين لعامة أبناء المسلمين، ثم تكون مصدرا لاستنباط العلوم، ومرجعا لاستخلاص القواعد والشواهد،

---

(99) ابن البيع: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد، المستدرك على الصحيحين550/2،حققه: مصطفى عبد القادر عطا،بيروت: دار الكتب العلمية ،الطبعةالأولى، 1411 – 1990

(100) المدثر: 11

ومثالا يستضاء بنوره في البيان وطرق التعبير، كل يجد فيه بغيته. قال الراغب الأصفهاني في مقدمة كتابه " المفردات في غريب القرآن" : " فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب، وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء الحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم" ([101])

شاعت في أساليب الأدباء العذوبة والسلاسة في جزالة، وأخذت بأطرافه القوة والجمال والوضوح وروعة التأثير وقوة الحجة وتأجج العاطفة والتهاب الشعور ودقة الإحساس الأدبي، فالقرآن رقق من نفوسهم القاسية، فسلست طباعهم وألسنتهم وملكاتهم ولم تقبل إلا السمح المهذب من الأساليب. ولعل شعر حسان بن ثابت وكعب بن زهير خير شاهد على رقة طباع الشعراء نتيجة التأثر بأساليب القرآن الكريم.

فهناك أمثلة كثيرة التي توضح تاثير القران في جميع ميادين الشعر والنثر.

توارد الأفكار القرانية في اللغة العربية الجاهلية

أما الشعر فتاثير القران الكريم فيه من ناحية مختلفة مثلا من حيث اللفظ المختلف ومجاز المعني ،مضمونا وأسلوبا واخري عديدة بغير ذلك.

قال امرؤ القيس بن حجر في موافقة اللفظ مجزوء الكامل بمفهوم التلميح

وَتَبَرَّجَتْ لتَرُوعَنا، فَوَجدتُ نَفسي لم تُرَعْ ([102])

وقال تعالى: " غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ " ([103])والتبرج: هو أن تبدي المرأة زينتها،

وقال امرؤ القيس بن حجر باشارة إلى التمثيل:

وماءٍ آسِنٍ بركَتْ عليه، كأنّ مُناخَها مُلقى لجامِ ([104])

الآسن: المتغير، قال تعالى: " فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ "([105]) أي غير متغير،

وقال النابغة للنعمان بن المنذر:

---

(101) راغب الأصفهانى: أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن ص55 ، حققه: صفوان عدنان الداودي،بيروت: دار القلم، الدار الشامية - دمشق ،الطبعة الأولى - 1412 هـ.

(102) ابو زيد محمد ،جمهرة أشعار العرب ص 15

(103) النور، 60

(104) جمهرة أشعار العرب ص 15

(105) محمد،15

إلاّ سلَيْمَانَ، إذ قالَ المَليكُ لَهُ قُم في البريّة، فاحدُدْها عن الفَنَدِ[106]

الفند الكذب، قال الله تعالى" لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ "[107] أي تكذبون.

وقال الأعشى:

سُبُطاً تَبَارَى في الأعنّة بَينَها حتى تَفِيءَ عَشيّةً أنفالُها[108]

الأنفال: الغنائم، وهو قوله تعالى: " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ " [109]

وقال لبيد ابن ربيعة العامري:

يا عينُ هَلاّ بكَيتِ أربدَ إذْ قُمنا وقامَ الخُصومُ في كَبَدِ [110]

يعني: في شدة، قال الله تعالى: " لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ "[111]

وقال أمية بن أبي الصلت:

كيفَ المحودُ، وإنّما خُلِق الفتى مِنْ طِينِ صَلصالٍ لَه خَفّارِ[112]

الصلصال: ما تفرق من الحمأة فتكون له صلصة إذا وطيء وحرك، وهو قوله عز وجل: " خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ "[113].

وقال أبو ذؤيب الهذلي:

وعَلَيهما مَسرودَتانِ قَضَاهُما داودُ أو صَنْعُ السّوابغِ تُبّعُ [114]

قضاهما: أي أحكمهما، قال الله تعالى: " إِذَا قَضَى أَمْرًا "[115]، أي أحكمه،

---

(106) الثعالبي : ابو منصور ،عبد الملك بن محمد ،ثمار القلوب في المضاف والمنسوب58 ، القاهرة : دار المعارف

(107) يوسف ،94

(108) جمهرة أشعار العرب ،ص20

(109) الانفال، 1

(110) صلاح الدين خليل بن ايبك ، الوافي بالوفيات ص217/8 حققه: احمد الارناؤوط وتركي مصطفى بيروت : دار احياء التراث ،الطبعة:1420هـ- 2000م

(111) البلد،14

(112) جمهرة أشعار العرب ،ص26

(113) الرحمن ،16

(114) الضبي : المفضل بن محمد، المفضليات ص 428 ،حققه: احمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون،القاهرة : دار المعارف ،الطبعة السادسة

(115) ال عمران، 47

أما الشاعر الجاهلي النابغة الذبياني، وهو من قبيلة ذبيان من نجد والعراق،فهو القائل:
الخالق البارئ المصوّر فى ال أرحام ماء حتّى يصير دما (116)
وهو ما يمكن مقارنته بالآية من سورة الحشر:﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (117)
وجاء أيضاً في شعر أمية بن أبي الصلت بخصوص سفينة نوح عليه السلام:

المسبحُ الخَشْبُ فوقَ الماءِ سَخَّرها ... خلالَ جريَتِها كأنّها عومُ
تجري سفينةُ نوحٍ في جوانبِه ... بكلِّ موج مع الأرواحِ تقتحِمُ
نودي قُمْ وأركبْن بأهلكَ أنَّ ... اللّهَ مُوفٍ للناسِ ما زَعَموا
مشحونةٌ ودُخانُ الموجِ يرفَعُها ... ملئاً وقدْ صُرِعَتْ من حولِها الأمَمُ
حَتّى تَسَوَّتْ على الجوديِّ راسيةً ... بكُلِّ ما أستودَعَتْ كأنها أطَمُ (118)

فهذه الأبيات مقارنتها بالآيات،
قال الله تعالى :﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (119)
وقال أمية بن أبي الصلت:

منَ الحقد نيرانُ العداوةِ بيننَا ... لَئن قالَ رَبّي للملائكةِ إسجدوا
لآدمَ لمّا أكمَلَ اللهُ خلقَهُ ... خَرّوا لَهُ طَوْعاً سجوداً وركّعا
فقالَ عدوَّ اللهِ للكُبرِ والشَقا ... أَطينٌ على نارِ السمومِ يَسودُ !؟(120)

(116) ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء ص 285 ، دار الحديث، القاهرة ،الطبعة 1423هـ
(117) سورة الحشر،24
(118) عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب135/9 ، حققه: عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي، القاهرة،الطبعة الرابعة، 1418 هـ - 1997 م
(119) سورة هود 44
(120) ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك153/3 ،حققه: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا،بيروت: دار الكتب العلمية،الطبعة الأولى، 1412هـ-1992 م

وهومقارنةسورة الإسراء : قال الله تعالى:﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ ([121])

أما الشاعر زيد بن عمرو بن نفيل، وهو من شعراء الحجاز، ومات قبل ظهور الإسلام بقليل، فقد قال:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرا ثقالا

دَحاها فلما إستوَتْ شَدَّها بأيدٍ وأرسى عليها الجِبالا ([122])

وكلمة "دَحاها" التي إعتبرها بعض المفكرين المسلمين الحديثين دليلاً على قول القرآن الكريم بكروية الأرض، واردة في سورة النازعات الآية: قال تعالى﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ([123])

أثر القران الكريم في الشعر

ليس القرآن شعراً ، ولم يكن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم شاعراً ، بل وما ينبغي له ، قال تعالى:(فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ . وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ([124])

وقال تعالى:(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) ([125])

وقال تعالى: وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ([126])

قال ابن كثير في تفسير هذه الاية : ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾

---

(121) سورة الإسراء 61

(122) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك 331/2

(123) النازعات 30

(124) الحاقة 38-43

(125) يس 69.

(126) الشعراء 224

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن. وكذا قال مجاهد، رحمه الله، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما.وقال عكرمة: كان الشاعران يتهاجيان، فينتصر لهذا فئام من الناس، ولهذا فئام من الناس.(127) ولذلك أنزل الله تعالى هذه الاية عن الشعراء الذين هم في الضلال الغي.

جاء في الحديث النبوي الشريف عن الشعراء :

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ نَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعَرْجِ إِذْ عَرَضَ شَاعِرٌ يُنْشِدُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خُذُوا الشَّيْطَانَ، أَوْ أَمْسِكُوا الشَّيْطَانَ لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا.

وقد روى ابن أبي حاتم أيضا، عن أبي سعيد الأشج، عن أبي أسامة، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي الحسن مولى بني نوفل، أن حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت: {والشعراء يتبعهم الغاوون} يبكيان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يقرؤها عليهما: {والشعراء يتبعهم الغاوون} حتى بلغ: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} ، قال: "أنتم" (128) .

ان الشعراء المشركين يتبعهم غواة الناس ومرده الانحراف في القول والعقيدة ، فهم هائمون على وجوههم لا يلون على شيء' مقصود فتجاوزوا طريق الحق والاستقامة والرشاد وقصد السبيل. والشعراء من هذه الطبقة لا تربطهم بالحق رابطة وبالاستقامة طريق.

وقيل ان رسول الله فرح حين سمع شعر لبيد في قوله :(ان كل شيء ما خلا الله باطل). فالشعر في ميزان الدعوة هو متضمناته وليس يكره لذاته.فأيما شعر نشأ من هذا التصور فهو الشعر الذي يرضاه الإسلام. وننظر أثر القرآن الكريم

وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

إنشُزُوا عَنّا، فأنتم مَعشَرٌ آلُ رِجسٍ وفجورٍ وأشَر (129)

---

(127) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم175/6 ،حققه: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع،الطبعة الثانية 1420هـ - 1999 م

(128) تفسير القرآن العظيم175/6

(129) جمهرة أشعار العرب،ص27

انشزوا: أي انهضوا، قال الله تعالى: " وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا [130]".

وقال أيضا لبيان صورة وحدة المسلمين :

مستعصمين بحبل غير منجدم مستحكم من حبال الله ممدود [131]

قد وردت هذه الصورة الكاملة في القران الكريم كما قال الله تعالى :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [132]

وقال أبو بكر، رضي الله عنه:

عَزّرُوا الأَمْلاكَ فِي دَهرِهُمُ، وأطاعوا كلَّ كَذّابٍ أثِمْ [133]

عزروا: أي عظموا قال الله تعالى: " وَعَزَّرُوهُ "[134] أي عظموه.

وقال عمر، رضي الله عنه:

يَكلأُ الخلقَ جَميعاً، إنّهُ كإلىءُ الخلقِ، ورَزّاقُ الأُمَم [135]

الكإلىء: الحافظ، قال الله تعالى: " قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ "[136]

وقال عثمان ابن عفان، رضي الله عنه: الطويل

وأعلَمُ أنّ اللَّهَ لَيسَ كصنعِهِ صَنيعٌ ولا يخفَى على اللَّهِ مُلْحِدُ [137]

الملحد: المائل، قال الله عز وجل: " إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا"[138]، أي يميلون.

وقال حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه:

وزُفّوا إلينا في الحَديدِ، كأنّهم أُسُودُ عَرِينٍ ثَمّ عندَ المَبَارِكِ [139]

---

(130) المجادلة،11

(131) ديوان حسان بن ثابت الأنصارى ص55

(132) ال عمران 103

(133) جمهرة أشعار العرب،ص29

(134) الاعراف ،157

(135) جمهرة أشعار العرب،ص29

(136) الانبياء،42

(137) جمهرة أشعار العرب،ص29

(138) فصلت،60

(139) جمهرة أشعار العرب،ص29

الزف: المشي قدماً، قال الله تعالى: " فَأَقْبَلُوا إليهِ يَزِفُّونَ "(140)

وقال العباس، رضي الله عنه:

أنتَ نورٌ من عَزيزٍ راحِمٍ، تَقمَعُ الشّركَ وعُبّادَ الوَثَنْ(141)

نورٌ: أي هدى، قال الله عز وجل: " اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ "(142)، أي هداها.

وقال الزبير بن العوام، رضي الله عنه:

يَخرُجُ الشَّطْءُ على وَجه الثَّرَى، ومِنَ الأشجارِ أفنانُ الثّمَر(143)

الشطء: النبت، قال الله تعالى: " كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَه "(144)

وقال عثمان بن مظعون، رضي الله عنه:

أهل حوبٍ وعيوبٍ جمة ومعراتٍ بكسب المكتسب(145)

المعرة: الإثم، قال الله تعالى: " فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُم مَعَرَّةٌ ".(146)

قال جرير:

قوم لهم خص إبراهيم دعوته إذ يرفع البيت سورا فوق تأسيس(147)

أخذه عن الآية ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ (148)

وقوله:

أعطاك ربي من جزيل عطائه حتى رضيت فطال رغم الحاسد

والبيت مقتبس في المعنى من الآية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (149)

(140) الصافات 94

(141) جمهرة أشعار العرب،ص29

(142) النور ،35

(143) جمهرة أشعار العرب،ص30

(144) الفتح، 29

(145) جمهرة أشعار العرب،ص30

(146) الفتح،25

(147) أبو العباس، أحمد بن عبد السلام الجرّاوي التادلي،(الحماسة المغربية) مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب639/1، حققه: محمد رضوان الداية، بيروت:دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، 1991م

(148) البقرة، 127

(149) سورة الليل الآية : 5

وقوله:

من يهده الله يهتد لا مضل له ومن أضل فما يهديه من هاد

وهو اقتباس لمعنى الآية ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ (150)

وقوله:

يجزيك ربك حسن قرضك انه حسن المعونة واسع المتقرض

أخذه عن الآية ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (151)

وقوله:

قوم لهم خص إبراهيم دعوته إذ يرفع البيت سورا فوق تأسيس

أخذه عن الآية) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ(152)

ولم يتوقف تأثير جرير بالقرآن الكريم عند باب المديح في شعره بل انه تسرب إلى الهجاء ، وهو ينهج عليه في المديح من تلخيص واقتباس للآيات التي توافق الفكرة التي يريد صياغتها شعرا ، ومن أمثلة ذلك قوله للفرزدق:

قوله :

تخف موازين الخناثي مجاشع ويثقل ميزاني عليهم فيرجح

وهو إشارة إلى الآية : فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ(153) .

ومن إشارته إلى أحكام القرآن الكريم قوله في هجاء الأخطل يعيره بدفع الجزية

الضاربون على النصارى جزية وهدى لمن تبع الكتاب ونورا

قال الله تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِاليوم الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ

(150) سورة الأعراف، 178

(151) سورة التغابن ، 17

(152) البقرة : 127

(153) سورة القارعة الآية : 6 – 9

وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (154)

وقوله يشير إلى قطع يد السارق:

ولو يعلم السلطان ما تفعلونه لبانت يمين منكم ويمين

قال الله تعالى :وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (155)

قال الأخطل مادحا بنى أمية عامة ، وبشر بن مروان خاصة ، وهاجيا قيس عيلان :

أقفرت البلخ من عيلان فالرحب فالمحليبيات ، فالخابور ، فالشعب

فاصبحو لاتري الا مساكنهم كأنهم من بقايا أمة ذهبو(156)

أخذ الأخطل هذا المعنى من الآية القرآنية: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (157)

نلاحظ بذلك التقارب في النسيج الاجتماعي في ذاك العصر ، و تأثر الأخطل النصراني با الثقافة الاسلامية

وقال مفاخرا بقومه ما دحا بعضهم :

ألا جعل الله الأخلاء كلهم فداء لغوث ، حيث أمسوا وأصبحوا(158)

اقتبس الاخطل هذه الألفاظ من الاية القرانية :﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (159)

وقال الاخطل في هجو جرير :

---

(154) التوبة 29

(155) المائدة 38

(156) ديوان الاخطل ، الاخطل غياث بن غوث ،ص 20 ،،حققه عبدالرحمن المصطاوي ،بيروت : دار المعرفة ،لبنان الطبعة الاولي 2003

(157) الاحقاف:25

(158) ديوان الاخطل ، الاخطل غياث بن غوث ،ص 54 ،حققه عبدالرحمن المصطاوي ،بيروت : دار المعرفة لبنان الطبعة الاولي 2003

(159) الزخرف 67

وقضيت بينكما قضاء فيصلا في الناس ، مثل تبيُّنِ الفرقان([160])

قد اشار بلفظ الفرقان في هذ الشعر إلى القران الكريم

كان الفرزدق من فحول شعراء بنو أمية ويقال عنه" لولا الفرزدق لذهب ثلث العربية" ، هنا أتي الفرزدق مع خصومته جرير.

يقول الفرزدق يهجو جريراْ

ضربت عليك العكنبوت بنسجها وقضي عليك بها الكتاب المنذر

وأراد أن يبين ضعف خصم لأن العكنبوت وبيتها ونسجها مذكور في القران لكنهم مذكور على سبيل الضعف كما قال الله تعالى في كلامه الحميد :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ([161])

فلما أراد الفرزدق أن يضع من مكانته جرير قال له :

ضربت عليك العكنبوت بنسجها وقضي عليك بها الكتاب المنذر

والفرزدق له مكانة كبيرة في شعر العرب في العصر الأموي وأيضاً معدود في فحول الشعرا العربية الذين مروا بها على مر التاريخ

يقول الفرزدق في هجا الأزديين :

وما لله تسجد ازد بصري ولكن يسجدون بكل نار ([162])

ذلك أن السجود لا يكون الا لله وفي هذا البيت يأبي فرزدق عن الساجدين لغير الله كعبدة النار فالسجود لا يكون الا لله وقال سبحانه و تعالى:﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ([163])

وأورد الفرزدق المصطلحين "الزكاة والجزية" في هجائه الطرماح قائلا:

---

(160) شعر الاخطل ص235،حققه د نخر الدين قبادة، بيروت:دار الافاق الجديدة، البطعة الاولي 1971م

(161) العنكبوت 41

(162) الديوان321

(163) النحل 49

فلم يبق من يؤدي زكاته إلينا ومعط حين حلت جزية [164]

كما قال الله تعالى عن الزكاة :﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [165]

وقال سبحانه و تعالى عن الجزية :

﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [166]

وقال فرزدق :

سبقتم إلى الاسلام حين هداكم به الله اذ يهدي له كل مصبر [167]

وكذلك اقتبس الفرزدق المسابقة إلى الاسلام في شعره من القران الكريم كما قال الله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [168]

شعر النقائض شعر النقائض هو أحد فنون الأدب التي بدأت منذ العصر الجاهلي وتطورت وأصبحت فنا أدبيا قائما بذاته في العصر الأموي على أيد ثلاثة شعراء أمويين هم الفرزدق وجرير والأخطل ، ولكن نقائض فرزدق وجرير قد اشتهرت في هذا المجال الأدب العربي على مر العصور .

أما تعريف النقائض اصطلاحا فهو أن يهجو الشاعر شاعرا آخرا أو أن يفتخر بنفسه أو بقومه أمامه بقصيدة على بحر معين وقافية محددة وحرف روي، فيرد عليه الشاعر الآخر على نفس البحر والقافية وحرف الروي بقصيدة من نفس الموضوع.

هنا نقدم نموذجا لأشهر شعراء النقائض في الشعر العربي "جرير والفرزدق "

قول الفرزدق في جرير:

يا صاحبي دنا الرواح فسيرا *** غلب الفرزدق في الهجاء جريرا[169]

---

(164) الديوان 132

(165) البقرة 43

(166) البقرة 29

(167) الديوان332

(168) التوبة100

(169) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ص 71/1

وهذا من قول جرير يقول:

فغض الطرف انك من نمير *** فلا كعبا بلغت ولا كلابـــــا([170])

فهذا الفرزدق يقول:

تحن بزوراء المدينة ناقتي *** حنين عجول تبتغي البو رائم([171])

وهذا اعتذار للفرزدق عما قاله:

ولست بمأخوذ بلغو تقوله *** اذا لم تعمد عاقدات العزائم ([172])

وهذا ما قاله جرير في فسق الفرزدق الذي اشتهر به:

لقد ولت ام الفرزدق فاجرا *** وجـــاءت بوزواز قصير القوائم

وما كان جار للفرزدق مسلم *** ليامـــــن قردا ليله غير نائـــم

اتيت حدود الله مذ انت يافع *** وشبت فما ينهاك شيب الهـــازم

تتبع في المأخور كل مريبة *** ولست باهل المحصنات الكرائم ([173])

ابن قتيبه عن نقيض الشعراء

سمر الفرزدق والأخطل وجرير عند سليمان بن عبد الملك ليلة، فبينما هم حوله إذ خفق فقالوا: نعس أمير المؤمنين! وهموا بالقيام، فقال لهم سليمان: لا تقوموا حتى تقولوا في هذا شعرا. فقال الأخطل:

رماه الكرى في رأسه فكأنه ... صريع تروّى بين أصحابه خمرا

فقال له: ويحك! سكران جعلتني! ثم قال جرير بن الخطفي:

رماه الكرى في رأسه فكأنما ... يرى في سواد الليل قنبرة حمرا

فقال له: ويحك! أجعلتني أعمى! ثم قال الفرزدق بعد هذا:

رماه الكرى في رأسه فكأنما ... أميم جلاميد تركن به وقرا

---

(170) العقد الفريد 177/6

(171) المرزباني: أبو عبيد الله بن محمد ،الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ص144/1

(172) العقد الفريد 229/6

(173) الشعر والشعراء479،89/1

قال له ويحك! جعلتني مشجوجا، ثم أذن لهم فانقلبوا فحباهم وأعطاهم.([174])
يثبت من هذا البحث المتواضع بأن الشعر تتاثر بالقران الكريم حينما نقرء أبيات الفرزدق ،الأخطل وجرير وأيضا نقائضهم التي أوردناها لنقف على خشونة ألفاظهم وجزالة أسلوبهم ومتانة شعرهم.

أثر القران الكريم في النثر

النثر لغة:

يقول ابن منظور الافريقي : "النثر نَثْرُكَ الشيءَ بيدك ترمي به متفرقا مثل نثر الجوز واللوز والسكر وكذلك نثر الحبّ إذا بُذر([175]).

يقول صاحب قاموس المحيط:

نَثَرَ الشيءَ يَنْثُرُهُ ويَنْثِرُه نَثْراً ونِثاراً: رَماهُ مُتَفَرِّقاً. كَنَثَّرَهُ فانْتَثَرَ وتَنَثَّرَ وتَناثَرَ.والنُّثَارَةُ، بالضم، والنَّثْرُ، بالتحريك: ما تَناثَرَ منه ([176])

فالنثر هو الكلام الكثير المتفرق عبارات مختلفة وهو خلاف للكلام المنظوم

النثر اصطلاحاً:

النثر الفني الذي يحتفل به قائله، ويجود فيه، ويهذب من حواشيه، ويعنى بصياغته صياغة فنية مؤثرة، يعبر به عن أجمل ما في نفسه وخواطره من معانٍ وأفكار([177])

يقسم النثر في الأدب العربي إلى قسمين :

الأول :النثر العادي هي لغة التخاطب

الثاني :النثر الفني هي لغة الأدب

أما الضرب الأول فهو النثر العادي أو اللغة التخاطب، أو الخطاب اليومي للتواصل بين الناس مثل أمثالا وحكماً.

---

(174) العقد الفريد 229/6

(175) لسان العرب:191/5

(176) القاموس المحيط: 479

(177) عبد الله عبد الجبار - محمد عبد المنعم خفاجى، قصة الأدب في الحجاز247،مكتبة الكليات الأزهرية

وأما الضرب الثاني فهو النثر الذي تشتمل علي فن ومهارة وبلاغة، ويبحث فيه عن اللغات المختلفة ومن أحداث وأطوار، وأيضا يمتاز بكل صفات وخصائص، وهو يتفرع إلى فرعين هامين ، هما الخطابة والكتابة الفنية ـ ويسميها بعض الباحثين باسم النثر الفني ـ

الخطابة

الخطبة لُغويًا - عند العرب - الكلام المنثور المسجع ونحوه،
وقال صاحب لسان العرب، أَنَّ الخُطْبَة اسمٌ لِلْكَلامِ، الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ الخَطِيب، فيُوضَعُ موضِعَ المَصْدر([178])
والخطابة اصطلاحًا فن من فنون الكلام غايته إقناع السامعين واستمالتهم والتأثير فيهم، بصواب قضية أو بخطأ أخرى، وبلوغ موضع الاهتمام من عقولهم وموضع التأثير في وجدانهم.([179])
من شواهد الخطابة في الكتاب العزيز في حقّ داود عليه السلام قال الله سبحانه و تعالى:
﴿ وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ﴾ ([180])
و الخطابة هي الكلام الذي يلقى في جمهور الناس للإقناع والتأثير. وله أنواع متعددةمثلاً دينية وسياسية وقضائية واجتماعية.
أما الخطابة الاجتماعية، فتعمد أكثر إلى مخاطبة العقل واستخدام المنطق، وقد تتعرض لذكر الأرقام والحقائق المحسوسة، في لغة أشبه بلغة العلم، ومع ذلك لا تترك فرصة يمكن فيها التأثير، وجذب القلوب حتى تنتهزها بأسلوب عاطفي، قد يعتمد على الخيال، ويتحلى ببعض المحسنات ([181])
وقال أبو داود: رأس الخطابة الطّبع، وعمودها الدّربة، وجناحها رواية الكلام، وحليها

(178) لسان العرب 361
(179) محمد صالح الشنطي، فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه 225،دار الأندلس للنشر والتوزيع - السعودية / حائل، الطبعة الخامسة 1422 هـ - 2001 م ـ
(180) ص: 20
(181) أحمد عبد المقصود هيكل ،تطور الأدب الحديث في مصر77 ، دار المعارف،الطبعة: السادسة 1994

الإعراب، وبهاؤها تخيّر الألفاظ؛ والمحبّة مقرونة بقلّة الاستكراه.(182) وللخطابة أنواع متعددةمثلاً دينية وقضائية وسياسية واجتماعية. وقد تكون علمية فيهدأ أسلوبها وتسمى محاضرة ـ

الان نقدم بعض النماذج للخطابة حسب أنواعها أول و بداية أقدم خطب دينية:

خطب دينية

خطبة الرسول ﷺ يوم فتح مكة

وقف على باب الكعبة ثم قال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى؛ فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج، ألا وقتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا، فيهما الدية مغلظة، منها أربعون خلفة في بطونها أولادها، يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم خلق من تراب، ثم تلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: 13) الآية يا معشر قريش "أو يأهل مكة" ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء".(183)

وكذلك نصح في خطبة حجة الوداع

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك ما تحقرون من أعمالكم، أيها الناس: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ} ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله، يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى

(182) أبو هلال العسكري : الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد، الصناعتين 58،حققه: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت : المكتبة العنصرية ،الطبعة : 1419 هـ

(183) تاريخ الطبري 3

وشعبان، ألا هل بلغت؟ ([184])

خطبة قضائية

خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

أما بعد أيها الناس: إني أوصيكم بتقوى الله العظيم في كل أمر، وعلى كل حال، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم، فإنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير، من يكذب يفجر، ومن يفجر يهلك، وإياكم والفخر، وما فخر من خلق من التراب، وإلى التراب يعود؟ هو اليوم حي، وغدًا ميت، فاعملوا وعدوا أنفسكم في الموتى، وما أشكل عليكم فردوا علمه إلى الله، وقدموا لأنفسكم خيرًا تجدوه محضرًا، فإنه قال عز وجل ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: 30) . فاتقوا الله عباد الله وراقبوه، واعتبروا بمن مضى قبلكم، واعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم صغيرها وكبيرها، إلا ما غفر الله، إنه غفور رحيم، فأنفسكم أنفسكم، والمستعان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: 56) اللهم صل على محمد عبدك ورسولك، أفضل ما صليت على أحد من خلقك، وزكّا بالصلاة عليه، وألحقنا به، واحشرنا في زمرته، وأوردنا حوضه. اللهم أعنا على طاعتك، وانصرنا على عدوك.([185])

خطبة سياسية

أما الخطابة السياسية، فقد أتيح لها هذا الشعور الشديد بالحرية، والاعتزاز البالغ بالأوضاع الديمقراطية ـ([186])

خطبته حين بايعه أهل الشورى

روى الطبري قال: "لما بايع أهل الشورى عثمان خرج وهو أشدهم كآبة، فأتى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي

(184) العقد الفريد 13/2

(185) نفس المصدر 131/2

(186) تطور الأدب الحديث في مصر397

صلى الله عليه وسلم، وقال:
"إنكم في دار قُلْعَة، وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم، صُبّحتم أو مُسّيتم، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور، اعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعمروها، ومتعوا بها طويلًا، ألم تلفظهم؟ أرموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلًا، والذي هو خير، فقال عز وجل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً، الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ وأقبل الناس يبايعونه".([187])

خطبة اجتماعية

وأما الخطابة الاجتماعية، فقد ازدهرت هي الأخرى، نتيجة لنمو المجتمع وازدياد مشكلاته وتعدد قضاياه ([188])

خطبة أبي موسى الأشعري

فلما سمع أبو موسى الأشعري خطبة الحسن وعمار، قام فصعد المنبر، وقال:
الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد، فجمعنا بعد الفرقة، وجعلنا إخوانًا متحابين بعد العداوة، وحرم علينا دماءنا وأموالنا، قال الله سبحانه: {وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} ، وقال تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا} فاتقوا الله عباد الله. وضعوا أسلحتكم، وكفوا عن قتال إخوانكم.([189])

خطب اقتصادية

خطبة الحسن البصري

وكان يقول: "رحم الله رجلا خلا بكتاب الله، فعرض عليه نفسه، فإن وافقه حمد ربه، وسأله الزيادة من فضله، وإن خالفه أعتب وأناب، وراجع من قريب، رحم الله رجلا

(187) تاريخ الطبري 43/5
(188) تطور الأدب الحديث في مصر 404
(189) جمهرة خطب العرب 295

وعظ أخاه وأهله فقال: "يا أهلي: صلاتكم صلاتكم، زكاتكم زكاتكم، جيرانكم جيرانكم، إخوانكم إخوانكم، مساكينكم مساكينكم، لعل الله يرحمكم، فإن الله تبارك وتعالى أثنى على عبد من عباده، فقال:﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ يابن آدم: كيف تكون مسلما ولم يسلم منك جارك، وكيف تكون مؤمنا ولم يأمنك الناس؟ "(190).

مقام الحسن عند النضر بن عمرو

وأحضر النضر بن عمرو -وكان واليا على البصرة- الحسن البصري يوما، فقال: يا أبا سعيد إن الله عز وجل خلق الدنيا وما فيها من رياشها، وبهجتها، وزينتها لعباده، وقال عز وجل: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ، وقال عز من قائل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (191)

أما بالنسبة إلى النثر الفني التي تشتمل علي الكتابة كما قال الجاحظ :

"ولو لم يكن من فضل الكتابة الا أنه لا يسجل نبي سجلاً ولا خليفة مرضى ولايقرأكتاب على منبر من منابر الدنيا الا اذا استفتح بذكر الله تعالى"(192)

بالجملة ففضل الكتابة أكثر من أن يحصى وأجل من أن يستقصى ،وإنما حرمت الكتابة على النبي صلي الله عليه وسلم ردا علي الملحدين حيث نسبوه إلى الإقتباس من كتب المتقدمين كما قال الله تعا لى: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (193)

هذا هو أهمية الكتابة التي ثبتت من القران الكريم ومن أهم هذه الكتابة هو الرسائل قد نشئت نشوا عظيما في العصر الاموي من الاعلام الذين كتبوا الرسائل في العصر الأموي منهم عبدالحميد الكاتب ، الجاحظ وابن المقفع وأيضا أعلام أخري الذين نمو في أدب الرسائل .

يقول دكتور شوقي ضيف :

---

(190) البيان والتبيين 69/3

(191) جمهرة خطب العرب 492/2

(192) صبح الاعشى65/1

(193) الفرقان الاية 5

النثر الفني تشمل القصص المكتوب كما تشمل الرسائل الأدبية المحبرة، وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة ([194]) .

اتخذ النثر الفني أيضًا اتجاهات مختلفة، ومدارس أدبية متنوعة، تأسست على يد عبد الحميد الكاتب، وابن المقفع، ومدرسة الترسل على يد الجاحظ، ومدرسة ابن العميد، ومدرسة المقامات، ومدرسة الفاضل، وغير ذلك من الاتجاهات النقدية في النثر الأدبي. كذلك تأثر النثر الفني تدوين التاريخ ،بداية كتابة السيرة ،الجغرافية و خاصة علم الطب في العصر العباسي وأيضا تاثرت تدوين الحديث علي أسلوب القران الكريم وبالاختصار قد تاثر القران الكريم علوم النقلية و علوم العقلية.

ويتحدث شوقي ضيف عن نشأة النثر الفني في الأدب العربي بقوله "نحن لانغلو هذا الغلو الذي جعل بعض المعاصرين يذهب إلى أن العرب عرفوا الكتابة الفنية أو النثر الفني منذ العصر الجاهلي، فما تحت أيدينا من وثائق ونصوص حسية لا يؤيد ذلك إلا إذا اعتمدنا على الفرض والظن، والحق أن ما تحت أيدينا من النصوص الوثيقة يجعلنا نقف في مرحلة وسطى بين الرأيين، فلا نتأخر بنشأة الكتابة الفنية عند العرب إلى العصر الجاهلي، بل نضعها في مكانها الصحيح الذي تؤيده المستندات والوثائق، وهو العصر الإسلامي([195])

قد تلون النثر العربي في العصر الاسلامي بجميع ألوان الحياة الجديدة مثلا خطابة، وكتابة، ورسائل وعهودا، وقصصا، ومناظرات، وتوقيعات.

قد تواترت آراء المؤرخين والأدباء على أن الرجل ذو مكانة ملحوظة في تاريخ النثر العربي، وأنه ذو أثر عميق في تطور الكتابة الفنيةكما كان عبدالحميد الكاتب في كتابته،أنه كتب رسائلا عديدة فيه أثر القران الكريم ،أنه ذكر ثلاثة اثار في رسائله وهي الاستشهاد ، الاقتباس و المفهوم وسنذكر نماذجها حسب موقعها.

نماذج النثر

وله تحميد فى فتح

---

(194) شوقي ضيف،الفن ومذاهبه في النثر العربي ص: 15 دارالمعارف، القاهرة، ط 12.

(195) المصدر السابق ص104

" الحمد لله العلى مكانه، المنبر برهانه ،العزيز سلطانه ، الثابتة كلماته، الشافية آياته ،النافذ قضاؤه ،الصادق وعده الذى قدر على خلقه بملكه وعزفى سمواته بعظمته ،ودبرالأمور بعلمه ،وقدرها بحكمه،على ما يشاء من عزمه،مبتدعالها بإنشائه إياها ،وقدرته عليها ،واستصغاره عظيمها ،نافذا إرادته فيها ، لاتجرى إلا على تقديره ولا تنتهى إلا إلى تأجيله ،ولا تقع إلا على سبق من حتمه ، كل ذلک بلطفه وقدرته وتصريف وحيه ،ولامعدل لها عنه ،ولا سبيل لها غيره ،ولا يعلم أحد بخفاياها ومعادها إلاهو ،فإنه يقول فى كتابه الصادق ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ([196])

رسالة عبدالحميد إلى الكتاب

وكذلک استعمل هذه الجملة " التى يسمعون وأبصارهم التى بها يبصرون ،وألسنتهم التى بها ينطقون ،وأيديهم التى يبطشون بها-"([197])مشيرإلى نعم الله تعالى باستدلال القرآنية كماجاء فى القرآن الكريم :﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ ([198])

رقم الرسا لة :507رسا لة عبدالحميد فى الشطرنج

ومن رسائله رسالة الشطرنج ،وهى ماكتبه عن الخليفة الى الأمصار يأمر الولاة با لضرب على أيدى المستهترين بهذه اللعبة وقد شاعت إذ ذاک حتى صرفت الناس عن أمورمعاشهم ومعادهم -([199]) -

استعمل عبدالحميدالكاتب فى هذه الرسالة آيا ت قرآنية

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ ([200])

---

(196) الأنعام 59

(197)- جمهرة رسائل العرب455/2

(198) - سورة الأعراف الآية 195

(199) - محمود مصفطى:الادب العربي وتاريخه ،ص237/1،الطبعة الثانية

(200) - سورة الشورى ،الآية 13

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (201)

بين عبدالحميد فى هذه الرسالة وعيدا بهذ الألفاظ " ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة "(202) من الآية الآتية﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (203)

(201) - سورة الجمعة،الآية 2

(202) - جمهرة رسائل العرب420/2

(203) - سورة الأنفال ، الآية42

البـاب الثانى: حياة مصطفى صادق الرافعى ومكانته العلمية والأدبية

فيه أربعة فصول

الفصل الأول: ترجمة حياة مصطفي صادق الرافعي

الفصل الثاني: أحوال الإجتماعية والثقافية والأدبية

الفصل الثالث: **المعارك** الأدبية للرافعي

الفصل الرابع: إنتاجه الأدبي والفكري وسمات أدبه

الفصل الأول: حياة مصطفي صادق الرافعي

اسم و نسبه

هو زين الدين أبو السامي مصطفي صادق الرافعي الفاروقي العمري الطرابلسي زهرة الشعراء ونابغه كتابها وامام ادابها في العصر الحديث و يتصل نسبه بالشيخ عقيل بن عبدالرحمن بن أبي بكر بن أحمد بن عمر بن عبدالله بن عمر بن زين الدين العمري المكي [204]،الذي يمتد نسبه إلى الصحابي الجليل عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما[205].

ولادته

ولد في بهتيم بمصر الطرابلسي الأصل و أم حلبية في الأول من رجب الأصم منتصف عام 1298ه الموافق للثلاثين من أيار /مايو سنة 1881م [206]تنقل الرافعي بين دمنهور والمنصورة و كفر الزيات تبعا لأبيه حتى استقر به المقام في طنطا ؛ حيث تولى أبوه رئاسة محكمتها ، وهناك في حارة نشأ الرافعي و ترعرع .

ولقب الرافعي طارئ على الأسرة كان أول من لقب به الشيخ عبدالقادر المتوفي سنة 1815م[207]،لقّبه به الشيخ محمود الخلوتي حين قال له : أنت من رافعي لواء العلم[208]،ونقل العريان عن الرافعي أنه لقب بذلك لما كان له من حظ في الاجتهاد والنظر تشبيها له بالإمام الشافعي الكبير محمود الرافعي[209].

كان والدهالشيخ عبدالرزاق هو كير القضاة الشرعيين في محفظات القطر المصري ، وقد تولى رئاسة المحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم ، وكان آخر أمره تولي رئاسة محكمة

---

(204) الرافعى الكاتب بين المحافظة والتجديد ص 101

(205) حياة الرافعي : 24 .

(206) وحي القلم ص 3

(207) الأعلام 40/4 .

(208) الرافعي الكاتب : 102 .

(209) حياة الرافعي : 27 ، ترجمته في طبقات الشافعية 281/8 .

طنطا ، وقد كانت للشيخ عبدالرزاق-رحمه الله-مواقف مشهودة مذكورة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ([210]) .

كانت الأسرة الرافعية أسرة علم و دين ، تأخذ أبناءها بالتربية الدينية القويمة ، وتغرقهم في الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة .

والأسرة الرافعية شامية الأصول من طرابلس الشام ، قدم أفراد منها إلى مصر ليتولوا القضاء الشرعي ، وأول من قدِمَ مصر منهم الشيخ محمد طاهر ،قدمها سنة 1243هـ ليتولى قضاء الحنفية في مصر بأمر من الخليفة العثماني ن ثم توافد من بعده إخوانه وأبناء عمومته([211]).

وقد نبغ من هذه الأسرة عدد غير قليل ، ولاسيما في القضاء ، ووالد الرافعي واحد من أحد عشر أخا اشتغلوا كلُّهم بالقضاء ، ومن الطريف أنه اجتمع من الرافعيين في مصر في وقت ما أربعون قاضيا([212])

بدأ الرافعي تحصيله العلمي على والده الشيخ القاضي ، و ثقف من مجالس الأشياخ والعلماء الذين كانوا يختلفون إلى أبيه علما كثيرا ، حتى إذا بلغ العاشرة كان قد حفظ القرآن و جوّده([213]). و تأخر دخوله إلى الابتدائية إلى عام 1892م ، وهو حينئذ ابن اثنتي عشرة سنة ؛ حيث ابتدأ دراسته في دمنهور ثم أتمها في المنصورة ، وكان هذا كل حظه من التعليم النظامي،ولم يظفر طوال حياته بغير الشهادة الابتدائية .

أخذ الرافعي عن أبيه علما كثيرا في الفقه و الحديث و الأصول و غيرها من العلوم الدينية. ولم يكتف الرافعي بما حصل عن أبيه شفاها ، بل عكف على مكتبته يعب من نهرها المتدفق ما وسعه ذلك ، ثم أدمن النظر كذلك في مكتبة الشيخ القصبي و مكتبة الجامع الأحمدي في طنطا وكانت له جولات مع كتب الحديث و الأدب شعرا و نثرا ـ

وقد ظهر نبوغه منذ صغره ، حتى لقد راودته نفسه أن يضع في العربية كتابا يجعل شواهدها فيه من نظمه في سائر أبوابها و مسائلها ، وكان قد آثر منذ صباه الحديث بالفصحى ،

---

(210) حياة الرافعي : 26 .

(211) حياة الرافعي :24 .

(212) حياة الرافعي 24 ، 25 . قال شوقي يمدح الرافعيين

(213) وحي القلم 28/3 .

وكان يقول لصفيه العريان : " فلتكن أنت لي قاموس العامية ! "([214]) .

إن الرافعي لم يتم دراسته بعدَ الابتدائية ، و مردُّ ذلك إلى مرض شديد لزمه فلم يغادره حتى ترك في أذنيه وقرا ، و في صوته حبسة ، و مازال سمعه يضعف شيئا فشيئا وصوته يتضاءل و يحتبس حتى انقطع عن كل صوت حوله و هو في مطلع العقد الثالث من عمره ، و رجع صوته " أشبه بصراخ الطفل فيه عذوبة الضحكة المحبوسة استحيت أن تكون قهقهة "([215]).

تزوج الرافعي وهو في الرابعة والعشرين من عمره من السيدة (نفيسة البرقوقي) ، وهي أخت الأستاذ عبدالرحمن البرقوقي صاحب البيان ، وقد عاش معها عيشة الصفاء ثلاثا وثلاثين سنة.

كان مصطفى صادق الرافعى عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتّاب. أصله من طرابلس الشام، ومولده في بهتيم (بمنزل والد أمه) ووفاته في طنطا (بمصر) أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به([216]).

يظهر من هذا البحث أن الرافعي ولد بسنة 1881ه و توفي 1937م و أصله طرابلسي ومصري .

وفي سنة 1899 عين كاتبًا في محكمة "طلخا" الابتدائية، ثم نُقل إلى محكمة "إيتاي البارود" الشرعية، ثم إلى طنطا حيث نُقل إلى المحكمة الأهلية([217]).

قد سماه أبوه "مصطفي صادق "واصطفاه من أخوته لما شب عن الطوق وتميز بالذكاء اشتهر بالصدق في الحديث و فاق في الحفظ و دل عند المراجعة علي التيقظ والانتباه.

و هوابن الشيخ عبدالرزاق الرافعي كبير القضاة الشرعيين في محافظات القطر المصري ،رأس الأسرة العمرية الجديدة ([218])

فالجو الذي تنفس فيه مصطفى كان جوًّا إسلاميًّا عربيًّا. وقد عُني به أبوه، فحفَّظه القرآن

---

(214) حياة الرافعي : 32 .

(215) حياة الرافعي : 30 .

(216) الاعلا م للزركلى 235/7

(217) نفس المصدر ص 3

(218) الرافعى الكاتب بين المحافظة والتجديد ص 102

ولقنه تعاليم الدين الحنيف، ثم ألحقه في سن الثانية عشرة بمدرسة دمنهور الابتدائية، حيث كان يتولى عمله القضائي. ونُقل إلى المنصورة فأتم مصطفى دراسته الابتدائية هناك، وهو في السابعة عشرة من عمره([219]).

والرفعي الأول هذا هو ابن العارف بالله الشيخ عبداللطيف البسياري ابن الشيخ عمر البسيار بن الشيخ أبي بكر الحموي

نشأته وتعليمه

نشأ الرافعي في رعاية أبيه وقد عني به عناية خاصة فيها الكثير من الحنو والاشفاق لما كان يعتوره من اعتلال وانحراف صحة و قلة عافيه

كانت الأسرة الرافعية قد بلغت يومئذ أوجا عاليا من المجد والرفعة العلمية وكمالا خاصا في تهذيب ابنائها ورعايتهم واعدادهم للحياة وقد بدأ الرافعي التحصيل علي والده الشيخ و في الكتّاب مع أخوته وماكاد يتم العاشرة من عمره في استظهر القران علي أبيه حفظا و تجويدا وكان منزل الشيخ عبدالرزاق الرافعي مهبط العلماء والفضلاء من ديار الاسلام جميعا ، ماأتو صر-

بدايته وانطلاقه

بدأ "الرافعي" حياته الأدبية شاعرًا، وكان لا يتجاوز التاسعة عشرة من عمره، وأخذ ينشر شعره ومقالاته في المجلات ، دخل "الرافعي" إلى مجال الشهرة الأدبية -

رأي الزركلي عن مصطفي صادق الرافعي و يقول :

شعره نقيّ الديباجة، على جفاف في أكثره. ونثره من الطراز الأول. له (ديوان شعر - ط) ثلاثة أجزاء، و (تاريخ آداب العرب - ط) جزآن، ثالثهما (إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة - ط) و (تحت راية القرآن - ط) و (رسائل الأحزان - ط) و (على السفّود - ط) رد على العقاد، و (وحي القلم - ط) ثلاثة أجزاء، و (ديوان النظرات - ط) و (السحاب الأحمر في فلسفة الحب والجمال - ط) و (حديث القمر - ط) و (المعركة - ط) في الرد على كتاب الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي، و (المساكين - ط) و

(219) شوقي ضيف: أحمد شوقي عبد السلام ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر 242،دار المعارف ،الطبعة الثالثة عشرة-

(أوراق الورد - ط) . ولمحمد سعيد العريان، كتاب (حياة الرافعي - ط) ولمحمود أبي رية: (رسائل الرافعي - ط) وهي رسائل خاصة، مما كان يبعث به إليه، اشتملت على كثير من آرائه في الأدب والسياسة ورجالهما. ([220])

فالحديث قد استاثرت به المداس الارسإليات البشرية وانحسر التعيلم الاخر في أروقه المساجد وبيوتات العلم ـ وقد تاخر دخول أديبنا الاستلرائية في عام 1309ه ـــــ1892م حتي أدرك الثانية عشرة ـ ([221])

مفاصحة

و كان قد أظهر نبوغا في العربية و علومها في أثناء دراسته ، دهش لها معلموه من ناحية أثار غبطة أستاذه مهدي خليل ، ولكن زرع الحسد و أوغر صدور بعض زملاء الدرس من ناحية وذلك أنه اثر الفصحي في المخاطبة ـ

وربما كان في دعوته للمفاصحة في الحديث والكلام العام ليس بعثا للسان العربي المبين و توحيد التفكير عند النشء فحسب وانما كالذي يتستّر علي ما في لسانه من اللهجة الشامية أيضا ـ

وهكذا انطبع علي ذاك الفرار من الاسلوب الفريد الذي تميز به بعد ما ارتسمت علي مخيلة صورة العربية الاولي عن اولئك الأفذاذ من العلماء الأمة كأنما أعده القدر الالهي كذلك ، ليكتب بنقائها و رونقها صفحات البيا ن والاعجاز فيمابعد وينشر بلاغة القران العظيم ـ

مرضه وانقطاعه

وحدث أن مرض ، فقد أصابت الحمي الثقيلة (التيفوئيد) جسمه الضامر ومست شبابه اللدن الفراق تسلبه العافية وتثبته في الفراش أشهرا وبقي عمره عرضة للاصابة بالحميات الطارئة من البرد والزكام النزلات الشعبية ـ([222]) وتوفي سنة 1937م. ([223])

---

(220) الاعلام للزركلي،ص236

(221) الرافعى بين الكاتب والتجديد

(222) الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد 107

(223) وحي القلم ص 3

دلائل تأمله

في سني يفاعته ظهرت دلائل تأمله في رحاب الكون ، ولاحت بواكيره محاولاته الأدبية في النظم والكتابة والخطابة ، وكان المطاف قد انتهي بالشيخ عبدالرزاق الرافعي إلى طنطا ذات المركز المرموق والمجال الذي يتسع للفقه والفكرة والأدب حيث يؤمها الناس من مختلف الأوساط والدرجات و تنعم بمغانيها النفوس ،وتتبهج الأرواح ـ
هذه المجال كانت تلهمه معاني لاحصر لها ، و يزيده الاستغراق في تأملها و تمثلها ، فيقلب وجهه في السماء كأنه أحد المتبتلين ممن ينظرون موعدهم مع الوحي والالهام ومابرح علي مثل هذه الحال من عشق الرياضة ، واستجلاء البطبيعة كل يوم بعيد صلاة الفجر دائمًا حتي اخر يوم من حياته ـ
وكان المطاف قد انته بالشيخ عبدالرزاق الرافعي إلى "طنطا" ذات المركز المرموق والمجال الذي يتسع للفقه والفكر والأدب ـ

في الوظيفة

يوم أدرك الرافعي حقيقة وحكما أنه قد انقطع عن الدراسة النظامية في المدارس لم يبق له ما يؤخره عن العمل ، أن يلقف وسيلة عيشه التي تملاء عليه وحشته من أيامه ـ
ومع التزامه بتبعات الوظيفة نشأ فيها نشأة الدلال لمانة أسرته في القضاء ولمنزلته هو في الدنيا الكتابة والأدب كا يتخذها مزجاة للفراغ أحيانا ـ
فكتب حفني ناصف إلى الوزارة يقول : ان الرافعي ليس من طبقة الموظفين الذين تسري عليهم ما للوظيفة من مستلزمات ، اتركوه يعمل ويبدع للأمة في ادابها ولافاكفلوا له عيشه في غير هذا المكان ـ
كانت الوظيفة تضجره أحيانا ، فينتمي في احدي رسائله "ليست الزمن يهيئ لي من أسباب الكتابة والشعر والتفرغ لهما ، مايغنيني عن التكسب من هذه الوظيفة التي أنا فيها وهم غير مرة أن يحال علي المعاش "ـ ([224])
لما فرغت من مقالات "المجنون" وأرسلت الأخيرة منها، قلت في نفسي: هذا الآخر هو الآخر من المجنون وجنونه، ومن الفكر في تخليطه ونوادره؛ غير أنه عاد إلى أخلاطًا

(224) الرافعى الكاتب بين المحافظة و التجديد 115

وأضغاثًا فكأني رأيته في النوم يقول لي: اكتب مقالًا في السياسة. قلت: ما لي وللسياسة وأنا "موظف" في الحكومة، وقد أخذت الحكومة ميثاق الموظفين، لِمَا عرفوا من نقد أو غَميزة ليكتُمُنَّه ولا يبينونه؟! فقال: هذه ليست مشكلة، وليس هذا يصلح عذرًا، والمخرج سهل والتدبير يسير والحل ممكن. قلت: فما هو؟قال: اكتب ما شئت في سياسة الحكومة، ثم اجعل توقيعك في آخر المقال هكذا: "مصطفى صادق الرافعي؛ غير موظف بالحكومة".([225]) فكانت له حب معها حياة أدبية فريدة ، اتسمت بألق وجدان واستطارت فيها رسائل لهما اجتمع بعضها في رسائل الاحزان و تفرق الاخر علي صفحات في "أوراق الورد " وكان له حب اخر مع أدبية من لبنان أيضا ، هي التي ظهر أثرها واضحا في أوراق الورد وكادت نصوص رسائلها تغشي الورود المثورة علي رسائل ـ وكان له صفي مودة أديب خلا إليه يوما يحدثه في شون الأدب والحياة ـ

والشيخ محمد عبدالرحمن البرقوقي يصغي إليه ليظفر منه "بشرف الديباجة" في التعبير البياني،والرافعي يومئذ في الرابعة والعشرين من عمره يتدفق حيوته وشبابا ، والحماسة والبلاغة تملان عليه افاق أدبه ،دراسة دراسة وممارسة.([226])

أخلاقه و سيرته

كان الرافعي مهيب الجانب يدل بملبسه الحديث وزيّهِ الأنيق ، ومظهر الرائع كأنه مدعو للاحتفاء أبدا يملأ الوقار عليه مجلسه و يصونه فانه يشف عن جلال العلماء يعرض في بسطة أهل الفقه و يزهو بالأدب ويفصح عن لفتات ذوي الرأي والسيادة بقوام مثيل وكم كان له من معارف أصدقاء وأحبه من شتي الدرجات فيهم الذبال الفيلسوف و بينهم المهندس والطبيب و الغني والفقير ، فقد أثرت حياته هذه فيه أيما تأثير ، فترجم عن ذاته وصور نفسه بأدبه كأنما كانت له من هذه وتلك وهاتيك موحيات عاديات رائحات لايقترن عنه في أدب ولايبخلن عليه عن عطاء.

حياته الأدبية

كان الرافعي منذ طفولته و في أيام يفاعته و في عفته و شبابه والتزام بقيم دينه الحنيف

(225) وحى القلم ص301

(226) الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد ص116

ونوازع وجدانه و دواعي الصبوة عنده كا يخفق في الاتجاه ومن ذلك محاولته الأدبية في أول أيامه منظومة جاري فيها شيخ الاسلام تقي الدين بن تيميه في "ذم الهوي "و تكلف لها حالة من الوعظ لم ينل فيها ولا سيما في مثل قوله :

لعمرك ما الهوي الا هوان وهل رضي الخناء الاالئام

ثم عاد فسابق علماء الأدب فيها وأدهشهم بمفور علمه حتي خرج عليهم بمصنفه الجليل في تاريخ اداب العرب الذي دَرَسَ فيه اللغة والرواية في الجزء الأول ، و تاريخ القران والبلاغة النبوية في الجزء الثاني وأثبت من الدقة و تجري الحقائق ما أكبر عند المقتطف ، كبري المجلات العلمية يومئذ أعجب به جيل الأساتذة والمحاضرين .

خصّ الرافعي قسمًا كبيرًا من مقالاته للدفاع عن الإسلام ومصر والشرق. وكانت نزعته في كتاباته نزعة إسلامية شديدة فيها من التدين والاندفاع الشيء الكثير، وكان غزير الفكر، يملي عليه العقل والتدين كثيرًا من الحكم والمواعظ الخلقية ويوجهانه في كتاباته توجيهًا اجتماعيًّا([227]).

وإذا تركنا المستشرقين إلى العرب المحدثين والمعاصرين؛ وجدنا مصطفى صادق الرافعي يعرض هذه القضية -قضية الانتحال في الشعر الجاهلي- عرضًا مفصلًا في كتابه "تاريخ آداب العرب" الذي نشره في سنة 1911ء ،ولكنه لا يتجاوز في عرضه -غالبًا- سَرْدَ ما لاحظه القدماء ونحن نحمد له استقصاءه لملاحظتهم كما نحمد له ما وقف عنده من شعر الشواهد للمذاهب النحوية والكلامية؛ فقد لاحظ ما دخل هذا الشعر من بعض الوضع، وهو وضع سجله القدماء أنفسهم ولم يفتهم التنبيه عليه.([228])

نشر الجزء الأول من كتابه "تاريخ آداب العرب" سنة 1911، وهو يدل على إيمانه الشديد بهذه الآداب، وأنها تعلقت قلبه حتى الشغاف. ودار العام، فأصدر الجزء الثاني من هذا التاريخ، وقصره على إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، وقد طبعه فيما بعد مستقلًّا باسم إعجاز القرآن، وكتب سعد زغلول تقريظًا له شبَّه فيه أسلوب المؤلف بالتنزيل الحكيم، وهو تشبيه يصور حقيقة كبيرة، فإن الرافعي يتأثر في نثره العبارة القرآنية في بلاغتها

(227) وحى القلم ص3

(228) الادب المعاصر فى مصر 170

وسموها([229]).

الأسلوب الرافعي وأهم سمات أسلوبه ما يلي

يزدحم أسلوبه بالاستعارات والمجازات والكنايات في جدة وطرافة، وإتقان وإبداع.
استلهام لفظة أو عبارة من القرآن الكريم، أو جملة من الحديث النبوي الشريف، أو مثل مشهور، أو بيت شعر مأثور.
الاقتصاد في استخدام بعض ألوان البديع الذي يخدم الجانب المعنوي في توكيد الأفكار كالمقابلة والتورية، والجانب البياني في روعة الصياغة كالسجع والجناس.
تشيع فيه الخواطر النفسية، والمشاعر الإنسانية، والمواقف الإسلامية، والصور الوصفية، والنظرات الإصلاحية، ممزوجة بالطابع العربي الإسلامي.([230])
هذه السمات الذي تميز به الرافعي في أسلوبه ـ
كان التحول بأسلوب الاداب من طبيعة الحياة الوليدة ظاهرة جديرة بالأخذ والتوسع فيها فهما وعلما، وقد تالفها جيل سبق الرافعي في الزمن ودله علي المحبة في ذلك ، وان تباين أخذ رجاله فقصر في ناحية ، ووُفّق في نواح أخري ، وجلي أمامه خلال المذاهب والأذواق والمواجد ([231])
كان أسلوب الرافعي في النثر قريب الشبه بأسلوب أبي تمام في الشعر؛ تزدحم فيه الاستعارات والمجازات والكنايات والتشبيهات وهذا كله يأتيها من جهة إعمال الفكر وتحكيم المهارة أنها تستلهم المعجم القرآني والسني والتراثي على وجه العموم؛ حيث يتكئ الكاتب في كثير من المواطن على لفظة أو عبارة من القرآن الكريم، أو على كلمة أو جملة من الحديث الشريف، أو على حكمة أو مثل أو بيت شعر من مأثورات العرب.([232])

امتياز الرافعي

ثم اذا انتقلنا إلى الرافعي الأديب ،وتقلبنا معه في مراحل تطوره الفكري ،ومذهبه وأسلوبه

(229) نفس المصدر ص 242
(230) السيد مرسي أبو ذكري،المقال وتطوره في الأدب المعاصر 93ـــ192 ، دار المعارف،الطبعة: 1981،1982
(231) الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد ص35
(232) تطور الأدب الحديث في مصر387

، ووقفنا علي فنون أدبه ،فلسوف تتضح لنا صورة العصر ، وسوف تتجلي أمامنا تلك الاثار جميعا في حرية واغتباط وقد امتاز الرافعي من حيث تحرر الحلى اللفظية أو الزخارف البديعية، ومحكمة ألفاظه ،دقيقة معانيه و طريفة أفكاره .

البنية الثقافية

أن الرافعي نشأ نشأة علمية أدبية ، إذ حفظ القرآن و هو دون العاشرة ، ثم أخذ عن أبيه علما كثيرا في الفقه و الحديث و الأصول و غيرها من العلوم الدينية .

و لم يكتف الرافعي بما حصل عن أبيه شفاها ، بل عكف على مكتبته يعب من نهرها المتدفق ما وسعه ذلك ، ثم اقبل الى المكتبات كذلك مكتبة الشيخ القصبي و مكتبة الجامع الأحمدي في طنطا ، وكانت له جولات مع كتب الحديث و الأدب شعرا و نثرا ، حتى لقد حفظ نهج البلاغة وهو دون العشرين ، حفظه في القطار بين طنطا وطلخا ذاهبا إلى وظيفته وآيبا منها ([233]) ، وكان يقرأ كل يوم ثماني ساعات متواصلة.بل ذكر العريان أن الرافعي احتاج مرة أن يعبر عن معنى في أسلوب من أسلوبه فتأبى عليه القول ، فأخذ يغمغم برهة ، فإذا هو يقرأ لنفسه من ذاكرته بابا من كتاب المخصص لابن سيده([234]) ! وكان إلى ذلك بصيرا بدقائق النحو و خواص التراكيب و فروق اللغات([235]).

ولم تكن تلك الثقافة التراثية هي كل حظ الرافعي ، بل كان له بصر بما جد من علوم إنسانية لدى الغرب ، وقد عرف الفرنسية معرفة حسنة ، وقرأ بها عدة سنوات بعض ما اتفق له من كتب العلم و الأدب([236]).ومما قاله في معرض رده على سلامة موسى : " كذب سلامة في زعمه أني لا أعرف لغة أجنبية ، فأنا أعرف الفرنسية و أستطيع الترجمة منها " ، وحكى البدري عن زينب ابنة الرافعي أن أباها كان يتخذ عصر كل يوم مجلسا يراجع فيه المعْلمة الفرنسية مستعينا بمعاجم فرنسية و عربية ، وذكر أنه وجد بين أوراقه قطعة من صحيفة فرنسية و قد جرى فيها قلم الرافعي بخط فرنسي بادي الجمال و

(233) حياة الرافعي 33 .
(234) نفس المصدر : 226 .
(235) وحي الرسالة 441/4 .
(236) حياة الرافعي : 32 .

الوضوح([237]).

و لا يقف الأمر عند معرفته أسماء الكتب ، بل نجده إذ يناقش خصومه يعرض للحديث عن آداب اللغات الأوروبية " كأنه لم يكن يفوته منها شيء أحضر أو ترجم "([238]).

و هكذا نرى أن الرافعي يتكئ في ثقافته على التراث العربي الإسلامي،و أنه إلى ذلك أحاط خبرا بما لدى الآخرين ، ولكنها الإحاطة التي لا تفضي إلى الذوبان والتبعية ، و إنما هي الإحاطة التي تمنح العقل قوة و طاقة و عافية يعود بها إلى تراثه أوفر ما يكون نشاطا ، و أحد ما يكون بصيرة .

و من خلال هذه البنية الثقافية نستطيع نقدم بعض المؤثرات في أسلوب الرافعى و لغته ، فالأول :

كتاب الله عز وجل و حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم . و أدل شيء على تأثير لغة الكتاب العزيز و الحديث الشريف على لغته.

والثاني:

ما حفظه من تراث العرب ، و بيان فصحائهم ، و كثرة قراءته في كتب الجاحظ وابن المقفع و أبي الفرج ،وقد قال ابن خلدون (رحمه الله):

" و على قدر جودة المحفوظ ، وطبقته في جنسه ، و كثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ ... ثم تكون جودة الاستعمال من بعده ، ثم إجادة الملكة من بعدهما لأن الطبع إنما ينسج على منوالها "([239]).

والثالث:

هو قراءته الواسعة في شتى فنون الثقافة الإسلامية ، ونحن نعلم أن لغة كثير من المصنفين من فقهاء أو محدّثين أو مؤرخين أو غيرهم لم تكن محل ثقة عند نُقّدة الاستعمال اللغوي ، وحسبك أن الأصمعي قد خطأ سيبويه و أبا عبيدة و الأخفش([240]) . وقد ظهرت في كتابة الرافعي أساليب تأثر فيها بلغة هؤلاء المصنفين .

---

(237) الرافعي الكاتب : 314 .

(238) الرافعي الكاتب : 318 . ـ

(239) مقدمة ابن خلدون : 578 .

(240) في الحديث عن لغة المصنفين و مدى الاحتجاج بها : المعيار في التخطئة و التصويب:135 ـ

أما الرابع من هذه المؤثرات:

فهو ما ولع به الرافعي من النظر في الكتب المترجمة ، فقد " تسللت إليه بعض عبارات التراجمة ، واستعملها من غير أن يفطن إلى ما وراءها ، على الرغم من شدة حساسيته، وصارت جملته"([241]).

من أجل ذلك في نظر البعض:

" تشبه الجملة المترجمة أحيانا لفرط تحررها من الأنماط القديمة "([242]) ، وأحسب أنه تأثر كذلك بما كان يقرؤه من الفرنسية مباشرة .

مذهبه في الكتابة

تحكم مذهب الرافعي في الكتابة أصول نظرية آمن بها و اتخذها نبراسا ، ثم بنى عليها فنه و أدبه . و لعلي أشير هنا إلى نصوص من أقواله ترسم لنا ملامح هذه الأصول:

" إن كلمةً قرأتها لفكتور هوجو كان لها أثر في الأسلوب الأدبي الذي اصطنعته لنفسي ، قال لي الأستاذ فرح أنطون مرة : إن لهوجو تعبيرا جميلا يعجب به الفرنسيون كل الإعجاب وهو قوله يصف السماء ذات صباح : (و أصبحت السماء صافية كأنما غسلتها الملائكة بالليل) . و أعجبتني بساطة التعبير و سهولة المعنى ؛ فكان ذلك حذوي من بعد في الإنشاء "([243]) .

" لعل غموض بعض الفلاسفة و بعض الشعراء هو من دليل الطبيعة على أنهم زائدون في الطبيعة "([244]).

" إن مذاهب العرب واسعة ، و لنا ما لهم من التصرف في الاستعمال إذا لم نخرج عن قاعدتهم ، و قد يزيد الإنسان حرفا لاستقامة الأسلوب ، و إن خالف نقل اللغةِ ، كما يزيد العرب و يحذفون من أمثال ذلك ، وهو كثير في كلامهم ، والقرآن أبلغ شاهدٍ عليه ، فدعنا من هذا و مثله ، و أعتقد أن مذاهب العرب ليست بالضيق الذي يتصورونه

(241) الرافعي الكاتب : 468 .
(242) الرافعي الكاتب : 351 .
(243) حياة الرافعي : 76 .
(244) وحي القلم 16/3 .

"[245].

" لا قيمة لكاتب لا يضع في اللغة أوضاعا جديدة "[246].

" لا نقول : هذه العربية كاملة في مفرداتها ، و لا إنه ليس لنا أن نتصرف فيها تصرف أهلها "[247].

" إن الخاصية في فصاحة هذه اللغة ليست في ألفاظها ، و لكن في تركيب ألفاظها"[248].

" الكاتب العلمي تمر اللغة منه في ذاكرة و تخرج كما دخلت عليها طابع واضعيها ، و لكنها من الكاتب البياني تمر في مصنع و تخرج عليها طابعه هو "[249].

" ما أرى أحدا يفلح في الكتابة و التاليف إلا إذا حكم على نفسه حكما نافذا بالأشغال الشاقة الأدبية كما تحكم المحاكم بالأشغال الشاقة البدنية "[250] .

" يريدون فوق ذلك أن يطرحوا عنا كَدَّ الصناعة ؛ لتكون خاتمة عجائبنا في هذا الجيل صناعة بلا كدّ "[251].

" و لقد ذكروا أن أناتول فرانس كان من التوفر على التنقيح ، و التلوم على السبك،و الحوك في كتابته و أسلوبه بحيث يكتب الجملة الواحدة مرة إلى مرتين إلى سبع مرات أو ثمان ، ينقح في كل ذلك و يهذب و يتعمل ، فهذا عندهم طلق مباح ،ولكنّ بعضه عندنا و إن جاء بالمعجزات يكفي لأن يقلب المعجزة إلى حيلة و شعوذة "[252].

" إن مدار العبارات كلها على التخيل و تصوير الحقائق بألوان خيالية لتكون أوقع في النفس ، و من هنا كان الذين لا معرفة لهم بفنون المجاز أو لا ميل لهم إلى الشعر لا يميلون إلى كتابتي ، و لا يفهمون منها حق الفهم ، مع أن المجاز هو حلية كل لغة و خاصة

(245) رسائل الرافعي : 67 .
(246) رسائل الرافعي : 174 .
(247) تحت راية القرآن : 58 .
(248) تحت راية القرآن : 19 .
(249) وحي القلم 17/1 .
(250) رسائل الرافعي : 42 .
(251) تحت راية القرآن 48 .
(252) تحت راية القرآن : 39 .

العربية ، و لا أعد الكاتب كاتبا حتى يبرع فيه ، وهذا الذي جعلني أكثر منه مع أنه متعب جدا "([253]).

" و ما المجازات و الاستعارات و الكنايات و نحوها من أساليب البلاغة إلا أسلوب طبيعي لا مذهب عنه للنفس الفنية "([254]) .

و كل هذه الملامح ظاهرة فيما كتب الرافعي إلا ما ذكره من بساطة التعبير ووضوح المعنى ، فإن هذا لا يسلَّم له في كل ما جاء به ، فقد كان الرافعي نتيجة لتتبعه دقائق المعاني و إغراقه في المجاز ، وتوليده المعنى من المعنى ، و الفكرة من الفكرة ، يغرق أحيانا في الغموض حتى لا تكاد تدرك مراده و مبتغاه ، وقد تنبه الأدباء لمثل هذا الغموض في أسلوبه ، و استغله خصومه للطعن عليه و الزراية به ، حتى لقد قال طه حسين عن كتابه (حديث القمر):" اللهم إني أشهد أني لا أفهم شيئا ... ومهما يكن من شيء فإن الذين يريدون أن يروضوا أنفسهم على الطلاسم ، واقتحام الصعاب ، و تجشم العظائم من الأمور يستطيعون أن يجدوا في كتاب الرافعي ما يريدون " ([255])

ورأى آخرون من أنصار الرافعي أن هذا الغموض إنما هو " من تحريه صفة الشعر و البيان"([256])

وقال العريان : " و من هذا الكتاب يعني حديث القمر كانت أول التهمة للرافعي بالغموض والإبهام واستغلاق المعنى عند فريق من المتأدبين ، و منه كان أول زادي و زاد فريق كبير من القراء الذي نشؤوا على غرار في الأدب لا يعرفه ناشئة المتأدبين اليوم "([257]).

على أن الرافعي حين كتب في الرسالة ، وصار له جمهور ، تبسط في أسلوبه ، و مال إلى الوضوح ؛ إذ كان من قبل يكتب لنفسه ، و إرضاء لفنه ، غير عابئ بوضوح المعنى لدى قارئه ، إذا كان هو يراه واضحا في نفسه ، فلما أدرك حق قرائه عليه تخفف من ذلك

---

(253) نقله القاعود في كتابه : مدرسة البيان في النقد الحديث : 320 عن البدري في كتابه : مصطفى صادق الرافعي : 89 .

(254) وحي القلم 182/3 .

(255) حديث الأربعاء 122/3 ، تحت راية القرآن 105 .

(256) الرافعي الكاتب : 354 .

(257) حياة الرافعي : 75 .

الغموض ، ومن هنا ظهر الفرق بين كتابه : (وحي القلم) و بين غيره من كتبه .
فإذا أراد أن يعطيها الصورة ويكسوها اللفظ ، جلاها على الوضع الماثل في ذهنه ، وأداها بالإيجاز الغالب على فنه ، فتأتي في بعض المواضع غامضة ملتوية وهو يحسبها واضحة في نفسك وضوحها في نفسه "([258]).

إن الملامح التي رسمها الرافعي للكتابة الأدبية الناضجة قد تحققت في أدبه هو إلا ما ذكره من الوضوح و السهولة و البيان .

وسع الرافعي كثيرا في مذاهب بناء الجملة

و لو أراد أحد " أن يتتبع ما أجدَّ الرافعيُّ على العربية من أساليب القول لأخرج قاموسا من التعبير الجميل يعجز عن أن يجد مثله لكاتب من كتاب العربية الأولين "([259]) فمن ذلك قوله : شيطان ليطان و سهلا مهلا على الإتباع ، واختراعه كلمة (أما قبل) ([260])، و إيثاره (آخر أربع مرات) في مقابل : رابع مرة ، وإدخاله حرفا على حرف من نحو قوله : في هل([261]) ، و استخدامه كلمات ينازعه في فصاحتها غيره مثل : اكتشف ، و الزهور ، و الورود([262]) ، و تجويزه النسبة إلى الأخلاق([263]) ، وذهابه إلى قياسية التضمين([264]).و سوف يظهر لنا من خلال التحليل النحوي للمستويات التركيبية في الجملة الرافعية أن له تراكيب كثيرة يرفضها الأصل النحوي ؛ فمنها ما يتأتى تخريجه بتأويل و نحوه ، و منها ما لا يكاد يستطيع أحد إخراجه من دائرة الخطأ ، وكل ذلك مرده إلى جرأته و توسعه .

و تجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الجرأة و هذا الاقتحام مما لا يكاد يخلو منه أديب فذّ خلال تاريخ العربية الطويل ، و أنا أنقل هنا كلمة لابن جني (رحمه الله !) تبسط وجه

---

(258) وحي الرسالة 440/1 .
(259) حياة الرافعي : 226 .
(260) أوراق الورد : 121 .
(261) وحي القلم 340/3 .
(262) رسائل الرافعي 67 .
(263) رسائل الرافعي : 136 .
(264) رسائل الرافعي : 174 .

العذر في ذلك ، و تبين مأتاه ، قال (رحمه الله !) و هو يتحدث عن الضرورات و إقدام الشاعر عليها : " فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها وانخراق الأصول بها ، فاعلم أن ذلك على ما جَشِمَه منه و إن دلَّ من وجه على جوره و تعسفه ، فإنه من وجه آخر مؤذن بصِيالِهِ و تخَمُّطه ، و ليس بقاطع دليل على ضعف لغته ، و لا قصوره عن اختيار الوجه الناطق بفصاحته ، بل مثلُه في ذلك عندي مثل مُجْري الجَموح بلا لجام ، ووارد الحرب الضروس حاسرا من غير احتشام ، فهو وإن كان ملوما في عنفه وتهالكه ، فإنه مشهود له بشجاعته وفيض مُنَّته ؛ ألا تراه لا يجهل أن لو تَكَفَّر في سلاحه ،أو أَعْصَم بلجامٍ جوادَه ، لكان أقرب إلى النجاة ، وأبعد عن المَلْحاة ، لكنه جشِم ما جشِمه على علمه بما يعقب اقتحام مثله ، إدلالا بقوة طبعه ، ودلالة على شهامة نفسه "([265])، ولله هذه الكلمة الجليلة التي فاه بها ابن جني (رحمه الله !) .

ومن كل ما سبق كان الرافعي على شدة حفاظه على أسلوب العربية يبني جمله وعباراته على نمط لم يكن قط كتلك الأنماط التي عرفت لسابقيه من فحول البيان ، وعلينا وقد عرفنا ذلك أن نحسن الظن به وبغيره من كبار المنشئين ، " ونحاول استكشاف أسرار التراكيب لديهم ، حتى تلك التي تبدو على أنها ـ من وجهة نظرنا ـ مخالفات نحوية يرتكبونها "([266]).

و أما الملمح الثاني و هو العناية بالتراكيب أكثر من العناية بالألفاظ ، فهو بَيِّنٌ كذلك في كل ما كتب . و قد كان الرافعي (رحمه الله !) يعتدُّ الكتابة هندسة كهندسة البناء سواء بسواء ؛ فكما أن الفرق بين منزل حسن و آخر قبيح إنما هو في تناسب أجزائه ، وتلاؤم أطرافه ، و حسن تخطيطه ، فكذلك الفرق بين كلام حسن و كلام قبيح ، فالألفاظ هي الألفاظ و إنما الشأن في نسقها و إلف بعضها لبعض ، ووقوع كلٍّ موقعَه اللائق به . وتأمل قوله : " ههنا خوان في مطعم كمطعم الحاتي مثلا عليه الشواء و الملح والفلفل والكواميخ أصنافا مصنفة ، و آخر في وليمة عرس في قصر و عليه ألوانه وأزهاره ، ومن فوقه الأشعة ، ومن حوله الأشعة الأخرى من كل مضيئة في القلب بنور وجهها الجميل ، أفترى السهولة كل السهولة إلا في الأول ؟ و هل التعقيد كل التعقيد إلا في

(265) الخصائص 394/2 .

(266) اللغة و بناء الشعر :ص 24 .

الثاني ؟ ولكن أي تعقيد هو ؟ إنه تعقيد فني ليس إلا "[267]؛ ولذلك " كانت له عناية واحتفال بموسيقية القول ، حتى ليقف عند بعض الجمل من إنشائه برهة طويلة يحرك بها لسانه حتى يبلغ بها سمعه الباطن ، ثم لا يجد لها موقعا من نفسه فيردها و ما بها من عيب ليبدل بها جملة تكون أكثر رنينا و موسيقى "[268].

و تميُّزُ أسلوب الرافعي ، و مباينته لكل أسلوب سواه ، و دلالته على صاحبه ، مما اجتمعت عليه الكلمة ، و لا أعلم أديبا معاصرا حاز من هذه الفضيلة ما حازه الرافعي ؛ فقد " كان في الكتّاب طريقة وحده "[269] ، وكان يكتب في الصحف مرارا بدون توقيع فينمُّ أسلوبه عليه ، حصل ذلك في مقالات (على السفود)[270] ، و في مقالة (جنود سعد)[271] ، و هو و إن كان يحفظ و يقرأ لأعلام الكتّاب فإنه كان " يجمع أطرافا من أولئك بطريقة رافعية "[272].لقد استطاع الرافعي " أن يكون أمثولة فريدة في غناء البيان العربي وحياة البلاغة ألا ترى أن عبارته و جملته و أسلوبه تظهر لقارئيه للوهلة الأولى؟"[273]

و أما تعبه في الكتابة و كدُّه فيها فقد بلغ فيه الغاية ، و عرف ذلك عنه ، و دفع ذلك طه حسين إلى أن يقول عن كتاب (رسائل الأحزان) : " إن كل جملة من جمل الكتاب تبعث في نفسك شعورا قويا أن الكاتب يلدها ولادة ، و هو في هذه الولادة يقاسي ما تقاسيه الأم من آلام الوضع "[274].

كان الرافعي (رحمه الله !) " يجهد جهده في الكتابة ، و يحمل من همها ما يحمل"[275]،

---

(267) وحي القلم 181/3 .
(268) حياة الرافعي : 226 .
(269) وحي الرسالة 439/4 .
(270) حياة الرافعي : 176 ، و رسائل الرافعي : 161 .
(271) رسائل الرافعي : 77 .
(272) أنيس المقدسي:الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة الحديثة،ص319 ، الطبعة4، دار العلم للملايين، بيروت 1984م.
(273) الرافعي الكاتب : 354 .
(274) تحت راية القرآن 109
(275) حياة الرافعي : 227 .

وكان " لا يرحم نفسه إذا حملها على شيء "[276]، و ربما اقتضاه المقال الواحد أن يقرأ مئات الصفحات كما حدث عند كتابته مقالة (البلاغة النبوية) ، فهو "لم يتهيأ لكتابتها حتى قرأ صحيح البخاري كله قراءة دارس ، و أنفق في ذلك بضعة عشر يوما ثم كتب الفصل بعد ذلك في ثلاثة أيام "[277].وقل مثل ذلك فيما كتبه عن شوقي و حافظ فهو لم يقدم على ذلك حتى قرأ ديوانيهما قراءة متذوّقٍ متأمّلٍ[278]، وحسبي أن أشير هنا إلى نتفٍ من أقواله يصف فيها ما عاناه من نصبٍ في تأليف كتابه أوراق الورد: " لأني شديد التعب في هذا الكتاب ، و الكتابة فيه عسرة جدا "[279].

" أوراق الورد انتهى ، و سأبدأ في التنقيح و التبييض و هو عمل شاق ، و الله المعين ، و هذا الكتاب تعبت فيه كثيرا "[280].

" وقد تعبت فيه أشد التعب "[281].

" لا بد أن أوراق الورد كان طاحونة للأعصاب "[282].

"كل هذا التخريب العصبي جاء من أوراق الورد و من النزلة الملعونة"[283].

لقد كان الرافعي يأخذ الكتابة مأخذ الجد ، و ما كان يرضى فيها بالسهولة التي تفضي إلى سقوط المبنى و المعنى ، و لم يرض قط أن يشعوذ على قرائه بكلام غير محرر ليملأ به فراغا من صحيفة.

7ـ كيف كان يكتب ؟

غرض هذه الفقرة بيان (الطقوس) التي كان يتبعها الرافعي و هو يمارس الكتابة ، وقد عقد صفيُّه العريانُ فصلا ممتعا كشف فيه عن طريقته (رحمه الله !) ، و خلاصتها : أنه كان يُعمل ذهنُه أبدا في البحث عن موضوعاته ، يستخرجها مما يراه أو يقرؤه ، و

(276) رسائل الرافعي : 48 .
(277) حياة الرافعي : 215 ، وحي القلم 5/3 .
(278) رسائل الرافعي : 241 ، 244 .
(279) نفس المصدر : 169 .
(280) نفس المصدر : 178 .
(281) نفس المصدر : 183 .
(282) نفس المصدر : 226 .
(283) نفس المصدر : 228 .

من ثم كان يحمل دائما في جيبه ورقات يضمّنها خواطره و أفكاره و عناوين موضوعاته . فإذا اختار موضوعه ترك فكره يعمل فيه ، حتى إذا اجتمع له ما يرضاه أخذ في ترتيب معانيه ، وتنسيق أفكاره ، و حذف فضولها ، و حينئذ يشرع في الصياغة. و أول ما يعنيه من ذلك بدء الموضوع و خاتمته ، فإذا جاءه من ذلك ما يرضاه ، أخذ أُهْبَتَه للإملاء ، و استعد لذلك بقراءة يسيرة في كتاب لإمام من أئمة البيان كالجاحظ وابن المقفع و نحوهما ، ثم يشرع في إملائه ، وكان إبان ذلك يغلق شرفته ، و لا يأذن بصوت ولا ضوضاء حتى يفرغ مما هو فيه بعد ساعات أربع أو تزيد ، يتخذ خلالها فنجانة أو اثنتين من الشاي و القهوة ، وربما أشعل دخينة أو دخينتين.

فإذا فرغ من إملائه عمد إلى الشرفة يستنشق هواءها ، ثم أوى إلى فراشه ، ثم يكون أول عمله في الصباح بعد صلاة الفجر أن يعود إلى مقاله فيقرؤه و يصححه . هذه هي مقالة الرافعي " مقالة هي عمل الفكر ، و كد الذهن ، و جهد الأعصاب ، و حديث النفس في أسبوع كامل ، ولكنها مقالة!"([284]).

مؤلفات الرافعي

ديوان شعر، في ثلاثة أجزاء.
تاريخ آداب العرب، ثلاثة أجزاء.
إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.
تحت راية القرآن.
رسائل الأحزان.
على السَّفُّود؛ وهو رد على العقاد.
وحي القلم، ثلاثة أجزاء.
ديوان النظرات.
السحاب الأحمر، في فلسفة الحب والجمال.
حديث القمر.
المعركة؛ في الرد على كتاب الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي.

(284) حياة الرافعي : 220،228 .

المساكين.
أوراق الورد.
وقد ألف محمد سعيد العريان كتابًا عن حياة الرافعي. ولمحمود أبي رية "رسائل الرافعي" وهي رسائل خاصة مما كان يبعث به إليه، اشتملت على كثير من آرائه في الأدب والسياسة ورجالهما.

مصطفي صادق الرافعي كالشاعر

عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتّاب. أصله من طرابلس الشام، ومولده في بهتيم (بمنزل والد أمه) ووفاته في طنطا (بمصر) أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به. شعره نقيّ الديباجة، على جفاف في أكثره. ونثره من الطراز الأول. له (ديوان شعر - ط) ثلاثة أجزاء- ([285])

وكان المرحوم "مصطفى صادق الرافعي"، قد نظم أول عهده بالشعر قصيدة في مدح الإمام، وأنفذها إليه ثم لقي "حافظا" فقال "حافظ": إنه تلاها على الإمام وإنه استحسنها، فقال له الرافعي: فماذا كانت كلمته فيها؟ قال: إنه قال: لا بأس بها فاضطرب شيطان الرافعي من الغضب وقال: إن الشيخ ليس بشاعر فليس لرأيه في الشعر كبير معنى، فقال له "حافظ": ويحك إن هذا مبلغ الاستحسان عنده، قال الرافعي -قلت "لحافظ": وماذا يقول لك أنت حين تنشده؟ قال: أعلى من ذلك قليلًا، فأرضاني والله أن يكون بيني وبين "حافظ" "قليل"، وطمعت من يومئذ، وأنا أرى أن "حافظ إبراهيم" إن هو إلا ديوان الشيخ محمد عبده لولا أن هذا لما كان ذلك ([286])

كان الرافعي شاعراً مطبوعاً بدأ قرض الشعر وهو في العشرين، وطبع الجزء الأول من ديوانه في عام 1903 وهو بعد لم يتجاوز الثالثة والعشرين، وقد قدّم له بمقدمة بارعة فصّل فيها معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته. وتألق نجم الرافعي الشاعر بعد الجزء الأول واستطاع بغير عناء أن يلفت نظر أدباء عصره، واستمر على دأبه فأصدر الجزأين الثاني والثالث من ديوانه. وبعد فترة أصدر ديوان النظرات.

(285) الأعلام235/7

(286) محمد كامل الفقي، الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة216/3 ،المطبعة المنيرية بالأزهر الشريف

غير أنه سلك السبيل إلى الشعر والقول ، فما كاد يرسل فيه بعض القوافي حتي تلفت حواليه كأنه يبحث عن الصدي ، فأطال الحديث له في الشعر "الشعر العربي" دار فيه مع فنونه جميعا، وعرف أغراضه،و جمع عناصره ، وقال في بديعيّاته ، و موشحاته وأزجاله ، وقدح في القديم وأهاب أن ينظر إلى ما يقوله الشاعرون من شعر في روح العصر ، وكأنه يرشح نفسه أو يعرض بضاعته ، ويستلفت الانظار إليها بما يعلمه من الشعر ([287])

الشاعر المخاطر

و بهذه الروح المخاطرة في المباراة أسرع فأخرج ديوانه الاول ، يثبت فيه وجودة الشاعر ، ويأكد مكانه بجدارة الفارس، ويكسب من الثناء عليه واطراء نعته وأدبي، ما جعله يقف علي الصراط الذي مضي به-

وقال مصطفي نعمان البدري :

وعلي الرغم من أنه حشد في "ديوان الرافعي"بأجزائه الثلاثة من فنون الشعر ومذاهب القول فيه و معانيه ما كاد يجمع بينها بطريقة تإليف خاصة وزنا وقافية وموضوعا ، يخيل فيها إلى القارئ الناقد كانما كان يريد تجديد معاني الشعر العربية بديباجته هو، وأسلوبه الخاص([288])

ثم نشيده الاخر "حماة الحمي" الذي أضحي النشيد القومي للامة العربية ، بعد ما شرق في العراق والشام ، وغرب في تونس والمغرب فأضحي الرافعي بذلك الأديب الشاعر لسان النهضة العربية ، ومثال يقظتها القومية لا منازع ([289])

وممن اشتهر بوضع الأناشيد المرحوم مصطفى صادق الرافعي، وقد تغلب نشيده القومي على كل نشيد سواهن ولحن تلحيناً قويًّا، وحفظه الصغار والكبار ثم توجه به سعد باشا زغلول زعيم الحركة الوطنية، وصار هذا النشيد نشيدًا وطنيًّا لمصر، وأرى أنه يمثل ما يشترط في النشيد القومي تمام التمثيل، ولذلك أثبته هنا نموذجًا لهذا اللون من الشعر.

اسملي يا مصر إنني الفدا ذي يدي إن مدت الدنيا يدًا

(287) الرافعى الكاتب بين المحافظة والتجديد ص120

(288) الرافعى الكاتب بين المحافظة والتجديد ص121

(289) نفس المصدرص 126

أبدًا لن تستكيني أبدًا إنني أرجو مع اليوم غدا
ومعي قلبي وعزمي للجهاد ولقلبي أنت بعد الدين دين
لك يا مصر السلامة وسلاما يا بلادي
إن رمى الدهر سهامة اتقيها بفؤادي ([290])

هذا سبب مما عدل بالرافعي عن مذهبه في الشعر إلى مذهبه الجديد في الأدب والانشاء. وذلك أنه يري في الشعر العربي قيودا لا تتيح له أن ينظم با لشعر كا يريد أن يعبر به عن العواطف المضمرة في نفسه

تفسر لنا قول الرافعي : " ان في الشعر العربي قيودا لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن نفسه الشاعرة ، أو يؤيد ما أدعيه أنا ، من أنه كان يشعر بالعجز عن الابانة عن كل خواطره الشعرية في قصيدة من المنظوم ، ولايعجزه البيان في المثور([291])

مصطفي صادق الرافعي كالناقد

يعتبر مصطفى صادق الرافعي من أشهر نقاد العرب في العصر الحديث. لقد خلف وراءه صدى بعيدا مما كان بينه وبين أدباء عصره، يمكن أن يطلق عليها الخصومات الأدبية. وكان الرافعي حادا في نقده، شديدا في خصوماته، فأوغر ذلك صدور القوم من أصحاب الأفكار المستوردة في عصره.

كان الرافعي ناقداً أديباً عنيفاً حديد اللسان والطبع لا يعرف المداراة، ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه، وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس، وكان فيه حرص علي اللغة كما يقول أحمد أنور الجندي: " من جهة الحرص علي الدين إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء لا منفعة بأحدهما إلا بقيامهما معاً "([292])

وليس هناك مثل أتم وأوفى لنقد الرافعي، إلا ما كتبه الرافعي في كتابه "على السفود" نقدا للعقاد. ولا شك في أن الرافعي قد احتشد لهذه المقالات التي جمعها بعد ذلك في هذا الكتاب، ففيه كل خبراته النقدية. فهي لا تخرج عن خبرات الناقد العربي القديم

(290) عمر الدسوقي، في الأدب الحديث ص 170،دار الفكر العربي،الطبعة الأولى: 1420 هـ-2000م

(291) رسائل الرافعى ص 82

(292) المعارك الأدبية ص 208

مفهوما وشكلا.

كانت بدايات النقد عند "الرافعي" بعض المقالات التي كان ينشرها في المجلات والجرائد التي كانت تنتشر في عصره، ومن أشهرها: مقال نشره في الجريدة، يحمل فيه على الجامعة وأساتذتها ومنهج الأدب فيها.

يقول عمر الدسوقي: "إننا نظلم الرافعي إذا أدرجناه ضمن أنصار المدرسة القديمة في النقد، تلك التي عنيت بالنقد اللغوي دون سواه، فالحق أن للرافعي آراء جديدة كل الجدة في نقد الشعر، وهو لا ينتسب في نقده لمدرسة من المدارس إنجليزية أو فرنسية، وإنما كان نقده وليد بصيرته النفاذة، وطبعه الصافي، وتأثره بالحركة التجديدية المعاصرة له بعض التأثر([293]).

مصطفي صادق الرافعي كالأديب

عرفت النهضة الأدبية المعاصرة مصطفى صادق الرافعي هذا العَلَم الفذ مفكراً وأديباً، رائدا لأمته والرائد لايكذب أهله.وقف أمام تيار التغريب الذي ماتزال الأمة تعاني من آثاره في حياتها الاجتماعية والسياسية والثقافية.

كان الرافعي يحمل الفكرة الاسلاميه و يدافع عنها ، وهو يقارع بذلك الاتجاهات الأدبية التي تنال من العقيدة الاسلامية واللغة العربية،ويري فيها معاول هدم و بوادر تعفن في جسم الاسلامية ـوقد أتاحت له ثقافته الواسعة العميقة أن يشارك في معظم فنون الأدب العربي بنصيب وافر فنراه حينا كاتبا متميزا له مدرسته الخاصة مع التزامه الطابع الاسلامي والمحافظة علي قدسيه البيان القراني واللغة العربية.

عاش الرفعي حياته الأدبية و هيأ نفسه ليكون المدافع الصلب عن حمي الاسلام واللغة العربية و دحض هذه الافكار الهدامة وقد انبري لهم بذلك بقلم حاد و ملكة أدبية واسعة ايمان غير محدود باسلامه و عروبته ، محملاً نفسه مسؤليه الرد علي اصحابها من أدباء و كتاب ، وقد عبر الرافعي عن هذا الاتجاه السامي فيه حين قال :"والقبلة التي اتجه إليها في الأدب انما هي النفس الشرقيه في دينها وفضائلها فلا اكتب الا ما يبقيها حية و يزيد في حياتها وسمو غايتها چم أنه يخيل إلى دائما أنني رسول لغوي ،بعثت للدفاع عن

(293) الدسوقي، عمر، الأدب الحديث، ج 297/2، القاهرة: دار الفكر العربي.

القران ولغته و بيانه"([294])

ولقد كان الرافعي علي سعة من المعرفة والعلم بأن أعداء العقيدة الاسلامية والمستعمرين يستهدفون النيل من اللغة العربية لأنها لغة القران ، فهما توأمان لا يفترقان ،ولا تعتبر نهضة الشرق العربي قائمه علي أساس وطيدة الا اذا نهض بهما الركنان الخالدان الدين الاسلامي واللغة العربية ، وهو يوضح هذاالأمر بقوله "لاجرم كانت لغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين ، يتحول الشعب أول ما يتحول الا من لغته ، اذ يكون من منشأ التحول من أفكاره و عواطفه وامله ، وهو اذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه و ما ذلت لغة شعب الاذل ، ولا انحطت الا كان أمره في ذهاب وادبار ، ومن هذ يفرض الاجنبيه المستعمر لغته فرضا علي الأمة المستعمرة و يركبهم به"([295]) ـ

يعد الرافعي في زمانه حامل لواء الأصالة في الأدب، ورافع راية البلاغة فيه، ثم إنه الرجل الذي وقف قلمه وبيانه في سبيل الدفاع عن القرآن ولغة القرآن، ولذا وجدنا الصراع يشتد بينه وبن أولئك الذين استراحوا للفكر الغربي وأقبلوا عليه حتى وإن كان حربا على أمتهم ودينهم ولغتهم.يقول الرافعي مخاطبا المستغربين :'علم الله ما فتن المغرورين من شبابنا إلا ما يأخذهم من هذه الحضارة فإن لها في زينتها ورونقها أخذة كالسحر فلا يميزون بين خيرها وشرها ولا يفرقون بين مبادئها وعواقبها ثم لا يفتنهم منها إلا ما يدعوهم إلى مايميت ويصدهم عما يحي وما يحول بينهم وبين قلوبهم فليس إلا المتابعة والتقليد.

لقد كان شيئا منكرا، كما زعم الرافعي، أن يزعم كاتب أن له الحق في أن يتجرد من دينه ليحقق مسألة من مسائل العلم، أو يناقش رأيا من الرأي في الأدب، أو يمحص رواية من الرواية في التاريخ، لم يكن أحد من كتاب العربية ليترخص لنفسه في ذلك فيجعل حقيقة من حقائق الدين في موضع الشك، أو نصا من نصوص القرآن في موضع التكذيب. ولكن طه حسين قد فعلها وترخص لنفسه، ومنح نفسه الحق في أن يقول قالة في القرآن وفي الإسلام وتاريخ الإسلام، ونقل المعركة من ميدان إلى ميدان. كان طه حسين في أول أمره عند الرافعي كاتبا يزعم أن له مذهبا جديدا في الأدب، فعاد مبتدعا له مذهب جديد في الدين والقرآن.

(294) وحى القلم ص300/3

(295) تحت رأية القران ص 90

الفصل الثانى: أحوال الإجتماعية والثقافية والأدبية

مصطفى صادق الرافعي ابن الشيخ عبد الرازق بن سعيد بن أحمد بن عبدالقادر الرافعي، أحد أبناء الأسرة الرافعية الكريمة، التي تقاسمت الإقامة بين طرابلس الشام ومصر، شأنها في ذلك شأن كثير من الأسر العربية التي كانت تتفرق في أقطار الأمة الواحدة، حيث يعيش فرع منها في مصر وآخر في العراق، وثالث في المغرب وهكذا، والمشهور أن أول رافعي وفد إلى مصر من لبنان هو الشيخ محمد طاهر الرافعي، ثم تبعه بعد ذلك آخرون من أسرته، وكانوا جميعاً معروفين بالأدب والدين، وتنشئة صغارهم على الثقافة وحب التعلم، ومن ثم كان عدد غير قليل من «الرافعيين» المصريين يتولون أمر القضاء الشرعي، ومن هؤلاء كان الشيخ عبدالرازق بن سعيد والد الأديب الكبير مصطفى ومنهم عمه الشيخ عبداللطيف الرافعي الذي ولي الإفتاء في الإسكندرية، وهو والد كل من علم السياسة والصحافة أمين الرافعي والمؤرخ القانوني الوطني عبدالرحمن الرافعي.

هنا نقدم بعض الأحوال الاجتماعية والثقافية والأدبية :

قد بلغ التفاوت الاجتماعى والطبقى حدا كان فيه الأجانب والمرابون من إليهود والروم وبيوتات المال الأروبية هم المتمتعين بكيرات البلاد فلا يصيب الفلاح منها و الاالعامل ما يسدد دينا أو يفي بنفقات ، أو يدفع عوامل الزمن خائنة المرض ـ([296])

ان الرافعي يسارع في تحذير الفلاح بلسان زوجه من أن يذكر "الخواجا" أو يرهن علي الغيطان والأقطان ويعود فيقول في حكمه تحريم الربا منها :"حكمة تحريم الربا في شريعتنا الاسلامية وقاية الأمة كلها في ثروتها وضياعها و مستغلاتها ، وحماية الشعب وحكامه من الاسراف والتخرق والكرم الكاذب ورد الاستعمار الاقتصادي و شل النفوذ الاجنبي "ـ

ولم تكن حال الاجتماعية مصورة علي هذا السواد بل كان هنالك بؤس من نوع اخر أدي فيه الترف إلى التخنث والرقاعة والسقوط والرقاعة والسقوط في الاثام مما كان يوذي الانسان و يوجع كل ضمير حي ويستنكر علي الوعاظ والمرشدين موافقفهم التي يغفلون فيها عن هذه الناحية الخطيرة من الاجتماع بمثل قوله :

(296) الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد ص 41

"ماينقص عجبي من هؤلاء العلماء الذين هم بقايا تتضاءل بجانب الأصل ، يبحثون في سنن النبي صلي الله عليه وسلم كيف كان يأكل و يشرب ويلبس و يتحدث كأنهم من الدنيا في قانون المائدة ، واداب الولائم ورسوم المجتمعات"([297])

و هناك جوانب الاجتماع أخري لعل من أبرزها موضوع المرأة الذي كثر فيه الكلام ، المذاهب والأفكار والفلسفات ، اختلطت علي اصحابها أنفسهم، وكان لرفاعة الطهطاوي دعوة في تعليم المرأة ولقاسم أمين صيحة في تحريرها وكان لبعضهم نزوة في سفورها ، أما الرافعي فان له موقف صدق يشهد له بالحرص والأناة ويميز علي المتفترقين بسبب موضوع الجرأة حزبي لعب تظرف ان نقل معابثه ([298])

ينقد شوقي علي مصطفي صادق الرافعي و يقول :وليس معني ذلك أن الاديب ينبغي أن لا يصور نفسسه ، وانما معناه أنه ينبغي اذا صور نفسه صور من خلالها مجتمعة ، فهو لا يحلق بعيدا عنه ، بل ويمتزج به ،بحيث تصبح نفسه صورة لأفارا.

نشاطه الاجتماعي

وقد حركت هذه الحال نوازع في وجدان الأمة شرعت تعد للمقاومة ولكنها لا تبرح خفيضة الصوت محدوددة القوة أمام الاندفاع الحضاري ، ولكن لو حظ عليه اخفاقه في أن يكون له ذلك الأثر عند ارادة التغيير التي تثبت للأمة أصالتها في الاجتماع الانساني ـ

وقد أبرز مصطفي صادق الرافعي كظورة الانغماس في الترف وأثره في التعجيل بسقوط الدول وهدم الحضارات و ذلك في رده علي استفتاء"الهلال " عن نهضة الأقطار الشرقية حين قال : "إن من عجائب الدنيا أن قمة الحضارة الرفيعة هي بعينها مبدأ سقوط الأمم، وهذا عندنا هو السر في أن الدين الإسلامي يكره لأهله أنواع الترف والزينة والاسترخاء، ولا يرى النحت والتصوير والموسيقى والمغالاة فيها وفي الشعر إلا من المكروهات، بل قد يكون فيها ما يحرم إن وجد سبب لتحريمه؛ إذ كانت هذه الفنون في الغالب وفي الطبيعة الإنسانية هي التي تؤدي في نهايتها إلى سقوط أخلاق الأمة؛ بما

(297) وحي القلم 240/2

(298) الرافعي بين الكاتب والتجديد ص 42

تستتبعه من أساليب الرفاهية والضعف المتفنن، وما تحدثه للنفس من فنون اللذات والإغراق فيها والاستهتار بها، وما سقطت الدولة الرومانية ولا الدولة العربية إلا بكأس وامرأة ووتر، وخيال شعري يفتن في هذه الثلاثة ويزينها".([299])

الحياة الثقافية

عاش الرافعي عصرا من الحياة الثقافية والفكرية ذات الجوانب المتعددة والجبهات المترامية الاطراف والابعاد طبعت العصر بعوامل مؤثرات.

لهذه الأسرة المورقة الفروع ينتمي مصطفي صادق وفي فنائها درج، وعلي الثقافة السائدة لأسرة أهل العلم نشأ، فاستمع من أبيه أول ما استمع إلى تعاليم الدين، وجمع القرآن حفظاً وهو دون العاشرة، فلم يدخل المدرسة إلا بعدما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين، وفي السنة التي نال فيها الرافعي الشهادة الابتدائية وسنه يومئذ 17 عاماً أصابه مرض التيفوئيد فما نجا منه إلا وقد ترك في أعصابه أثراً ووقراً في أذنيه لم يزل يعاني منه حتي فقد حاسة السمع وهو بعد لم يجاوز الثلاثين.

التعليم

قد توفرت علي دراسة نواح منها مصنفات و تاليف حسبنا نشير إليها بين المراجع والمصادر في كل انتقال نعني بها في هذا الشان .

كان التعليم ما يزال موزعا بين المدارس المحلقة بالمساجد و نظمها الأزهرية ذات الحفظ والمتون ، وبين الاخري التي سلكت علي أنظمة المدارس الحديثة ، وفيها مدارس التبشير والمذهبيات العقائدية .

وقد اثر أبوه أن يلحقه بمدرسة "دمنهور الابتداعية" ، وظفر بشهادة الابتدائية من مدرسة المنصورة وعمره بضعة عشر عاما .

وكان من أشد الناس اغتباطا بدعوة الزعيم مصطفي كامل لانشاء الجامعة وقال فيها "انها فكرة وطنية انشق لها مكانها في الحوادث ، فجاءت كما تجئ الحادثة الوطنية قائمة علي ما قبلها ، ليقوم عليها ما بعدها ، وبذلت فها الأمة و شمرت لها وجد بها الجد .

(299) وحي القلم ص 153/3

ما يعوز التعليم الحديث

ولما صار له أولا د يلتقون علومهم في المدارس الحديثة ويلجأ هو إلى معاونتهم في الدرس والمراجعة وينظر في أوراقهم الامحتانية زاد حرصا علي ملاحقة بعض الأنظمة والمناهج في هذا الشأن ـ

و كان كبير العناية بالتعليم الاسلامي والمعاهد الدينية و في مقدمتها الأزهر الشريف ،و انه لفي عام 1355ه ـــ1936 م والبلاد يومئذ تقبل علي عهد جديد في الاستقلال السياسي و تسبق الحكومة في الاداب ـ

ثم حمل الأزهر واجبات أخص أن يعمل لاقرار معني الاسلام الصحيح في المسلمين أنفسهم ، ذلك أنه وجد أن الحكومات الاسلامية لمالها من وجود سياسي و اخر مدني تعاني من ازداوجهما ، فقد بقي الأزهر وحده هو الذي يصلح لاتمام ذلك النقص الخطير في تلك الحكومات ـ

الصحافة والنثر الحديث

ولما كان العصر قد حفل بالصحافة التي توزعت الأيام والاسابيع والشهور ، فكانت اية الحضارة الجديدة و سجل التاريخ الحديث وقد هزع إليها الرافعي في شبابه ، قال : أن الحقائق النفسية مطلقة لا قيد لها، وأن الحد لا يثبت علي الحقيقة بتمامها وهي معني الكمال واصطلح غيرنا ممن فهمو أسرار الحياة ولم يقدسوا الموت تقديس الزهاد والأمة افرعت في واجبات الموت فرطت في اغراض الحياة ـ

ومن كان لأمته في مواهب قلمه لقب من ألقاب التاريخ فهو الأديب ان ماجاء في هذا الحديث يشير بوضوح إلى الصورة التي كان يريدها الرافعي للصحافة و علي أساسها كان قد حاول الكتابة فيها أ مراسلتها ، أو النشر في بعض مجلاتها و جرائدها ـ

تاثره بها وتاثير فيها:

وكان للرافعي مع الصحافة تاريخ نمو فكري ، وحياة فيها الحلو وفيها المر ، وفيها الايان تداول من أمامه و تدور بالاراء والافكار هنا و هناك ، ذلك أنه ما كاد لرسل في نظيم أو نثير حتي تراءي له أن يبعث به إلى الصحف ـ

ثم اخذ "المقتطف"بيده يدله علي المعلم و ميادينه والموضوعات التي ينظم ويكتب ويدرس

و يجدد و يبتكر ـ
وكانت الثريا من أوائل المجلات التي عنيت بمقالاته النقدية ولا سيما تلك التي تطهر لها شعراء العصر من توزيعه لهم في درجات.

أحوال الأدبية

استطاع الرافعي خلال فترة حياته الأدبية التي تربو على خمسٍ وثلاثين سنة إنتاج مجموعة كبيرة ومهمة من الدواوين والكتب أصبحت علامات مميزة في تاريخ الأدب العربي.
جمع "مصطفى صادق الرافعي" أنواع الاختلاف الواردة في كتب اللغة، فحصرها في خمسة أقسام:

1- لغات منسوبة ملقبة.

2- لغات منسوبة غير ملقبة تجري في إبدال الحروف.

3- لغات من ذلك في تغير الحركات.

4- لغات غير منسوبة ولا ملقبة.

5- لغة أو لثغة في منطق العرب([300])

عندما ندرس حياة مصطفى صادق الرافعي تظهر قضيّة العروبة بارزة في فكره وأدبه ونشاطه.وتبرز كذلك الناحية الوطنية والناحية الإسلامية ، ولكن تظلّ العروبة والقوميّة لها النغمة الأقوى ، وخاصّة في مواقفه واتجاهاته.
أما الناحية الوطنية فما قصّر الرافعي عنها،لقد كان للرافعي وجهة نظر ورأي في السياسة جعله يفقد الثقة بالأحزاب جملة . وقد عبّر عن ذلك بقول مصطفي نعمان البدري:

فَيا عُصْبة الأحزاب رُدُّوا حُلُومَكُمْ وجرٌّ على غير الثرى بذيولِ

ولكنه أشار إلى(دعوة مصطفى كامل والحزب الوطني لإقامة " الجامعة " في فكرة وطنيّة انشقّ لها مكانها في التاريخ) ([301])
الأناشيد التي أطلقها تحمل الروح الوطنيّة الصافية والعاطفة الصادقة .ومنها نشيد : "اسلمي يا مصر" ، ونشيد"حماة الحمى "ونشيد :" لكِ يا مصر السلامة ، وسلاماً يا بلدي".

(300) الرافعي، تأريخ آداب العرب "1/ 137
(301) الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد 207

وللرافعي مجموعة دواوين أُميط اللثام عن أسمائها ولكنّها لم تَرَ النور ، وهي(أغاريد الرافعي)ومجموعاتها الثلاث ، تدور حول ترقيص الأطفال ، والأناشيد الوطنيّة ، وبعض قصائد الموشحات وله نشيد آخر : (يا شباب العالم المحمدي) الذي كان صرخة تدوّي بها دماء المؤمنين ، وتطير به أشلاؤهم.

وكذلك مقالاته في " الأخبار " كتبها خلْواً من التوقيع ، أو بأحرف من اسمه. وامتدت مقالاته الوطنية حرارةً وقوة ، وساهم في أنشطة وطنية صافية . ثم لوحظ عليه الانكماش ، بعد ما رأى من صراع الأحزاب وانشقاق صفوف الجماهير ، وافترق الحركة المصريّة. ويقول مصطفى نعمان البدري : "وقد حفلت حياتُه الشعريّة بموافقات طريفة في موضوعات العروبة والقومية والوطنيّة"([302])

ويستشهد بالقصيدة الوطنية التي مطلعها :

بلادي هواها في لساني وفي دمي يمجّدها قلبي ويدعو لها فمي ([303])

أنَّ الرافعي ربط مفاهيمه للإسلام ووطنيّته بالعروبة ليكون الإسلام مصدر عزَّتنا وسبب قوّتنا ومصدر نهجنا .

نص كتاب الأستاذ الإمام

ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندي صادق الرافعي، زاده الله أدبًا.

ما أثمر أدبك، ولله ما ضمِن لي قلبك، لا أقارضك ثناء بثناء، فليس ذلك شأن الآباء مع الأبناء، ولكني أعدك من خُلَّص الأولياء، وأقدم صفك على صف الأقرباء. وأسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفًا يمحق الباطل، وأن يُقيمك في الأواخر مقام حَسَّان في الأوائل،والسلام.([304])

(302) الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد ص539

(303) ديوان الرافعي ص 39

(304) مقدمة وحي القلم 7/1

الفصل الثالث: المعارك الأدبية

لقد عاش "الرافعي" في عصر كثر فيه أدعياء التجديد ونبذ القديم، بل وقف الرافعي وحده في الميدان مدافعاً، لا يستند إلا على ربه، وما وهبه من علم، فكان يبارز الكثير منهم في ساحة الصحف والمجلات والمطبوعات برغم أنه كان يعيش في (طنطا) بعيداً عن أضواء الصحافة والمجلات الكثيرة التي كان يسيطر عليها أمثال هؤلاء، فكان يعتمد على مرتبه البسيط الذي كان يتقاضاه من المحكمة الأهلية، التي كان يعمل بها؛ لذلك نجده لم ينافق ولم يراءِ في معاركه، لأن ضميره ودينه يفرضان عليه خوض هذه المعارك.
ثم مضى في رده يهزأ ويسخر ويتجنى ويتحدى، فطارت الشرارة الأولى للمعركة الأدبية.
كانت المعركة بين الرافعي وطه حسين في أولها خصومة بين مذهبين في الأدب وأسلوبين في الكتابة، فما لبثت من بعد أن استحالت إلى حرب شعواء يتقاذف فيها الفريقان بألفاظ الكفر والضلال والإلحاد والغفلة والتعصب والجمود، وانتقلت من ميدان الأدب واللغة إلى ميدان الدين والقرآن، ثم إلى ميدان السياسة والحكومة والبرلمان، ثم إلى ميدان القضاء. وطه حسين رجل لا يستطيع أن يفرق بين مذهبه في الأدب ومذهبه في الدين، ولا بينهما وبين مذهبه في السياسة. والرافعي رجل كان لا يفرق بين الدين والأدب، ولا يعرف شيئا منهما ينفصل عن شيء أو يتميز منه، ولكنه في السياسة كان يتحلى بفضيلة الجهل التام، فلا تعرف له رأيا في السياسة إلا حادثة اليوم بأسبابها، لا بأصحابها.
كان الرافعي ناقداً أديباً عنيفاً حديد اللسان والطبع لا يعرف المداراة، ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه، وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس، وكان فيه حرص على اللغة كما يقول: " من جهة الحرص على الدين إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء لا منفعة بأحدهما إلا بقيامهما معاً "(305).
ومن هنا كانت المعارك التي خاضها "الرافعي" مع "طه حسين" و"العقاد"، و"سلامة موسى" و"زكي مبارك" و"عبد الله عفيفي"، وإن كانت معاركه مع العقاد أشهر هذه المعارك، إلا أن معظمها كانت من منطلق إيمانه بمنهجه وطريقته في الإبداع والنقد، والاحتماء بالتراث العربي الأصيل.. كما أسس الرافعي بتلك المعارك منهجه النقدي من خلال أبرز

(305) أحمد أنور سيد أحمد الجندي ، المعارك الأدبية ص264 ،مكتبة الأنجلو المصرية،الطبعة:1983

كتبه، وهي:
تحت راية القرآن
على السفور(رد فيه علي عباس محمود العقاد) ،
المعركة (رد فيه علي الدكتور طه حسين في كتابه "الشعر الجاهلي")
أما أبرز معارك الرافعي العلمية، التي يتعين الإشارة إليها بشيء من التفصيل بعد أن أهال عليها الزمن تراب النسيان، بل إن الكثيرين اليوم لا يحيطون بتفاصيلها.. وبخاصة ما كان بينه وبين كل من الأديبين الراحلين الدكتور "طه حسين" والأستاذ "عباس محمود العقاد" على التوالى.
هنا نقدم ترجمةومكانة العلمية ولأدبية الذين هجمو مع الرافعي في بيئات مختلفة منهم طه حسين، عباس محمود العقاد،سلامة موسي ، زكي مبارك و عبدالله عفيفي-
أولا أقدم ترجمة طه حسين واثاره :

حياته وآثاره

وُلد طه حسين سنة 1889 لأب مصري من قرية في صعيد مصر على مقربة من مدينة مغاغة الواقعة على الجانب الأيسر للنيل. وكان أبوه موظفًا صغيرًا في شركة زراعية من شركات السكر، وفقد بصره في الثالثة من عمره؛ ولكنه عُوِّض عن بصره ذكاء حادًّا وذاكرة قوية. وحفظ القرآن الكريم، ولما أتم حفظه أخذ في حفظ "مجموع المتون" وقراءة بعض الكتب والأشعار القديمة استعدادًا لدخول الأزهر، وكان قد سبقه إليه أخ أكبر منه، فصحبه معه وهو في الثالثة عشرة.
وطُبعت الرسالة باسم "ذكرى أبي العلاء" وهي تصور استعدادًا علميًّا واضحًا، لا بما فيها من حاسة تاريخية سليمة فقط، بل أيضًا بما فيها من أحكام أدبية جديدة لا تتأثر رأيًا سابقًا ولا عقيدة سابقة. وعلى الرغم من أنه لم يكن قد وسَّع محيط قراءته في الآداب الغربية وفي آثار المستشرقين نجده يبحث الضرير العربي القديم بحثًا دقيقًا يستوفي فيه حياته وبيئته وعصره وظروفه التي أحاطت به، وكوَّنت أدبه وفلسفته.([306])

(306) شوقي ضيف:أحمد شوقي عبد السلام، الأدب العربي المعاصر في مصر ص278،دار

حياة عباس محمود العقاد

وُلِدَ عباس محمود العقاد في يوم الجمعة الموافق (29 من شوال 1306هـ= 28 من يونيو 1889) ، ونشأ في أسرة كريمة، وتلقى تعليمه الابتدائي بمدرسة أسوان الأميرية، وحصل منها على الشهادة الابتدائية سنة (1321هـ= 1903م) وهو في الرابعة عشرة من عمره.

وفي أثناء دراسته كان يتردد مع أبيه على مجلس الشيخ أحمد الجداوي، وهو من علماء الأزهر الذين لزموا جمال الدين الأفغاني، وكان مجلسه مجلس أدب وعلم، فأحب الفتى الصغير القراءة والاطلاع، فكان مما قرأه في هذه الفترة "المُسْتَطْرَف في كل فن مستظرف" للأبشيهي، و"قصص ألف ليلة وليلة"، وديوان البهاء زهير وغيرها، وصادف هذا هوى في نفسه، ما زاد إقباله على مطالعة الكتب العربية والإفرنجية، وبدأ في نظم الشعر.

ضاق العقاد بحياة الوظيفة وقيودها، ولم يكن له أمل في الحياة غير صناعة القلم، وهذه الصناعة ميدانها الصحافة، فاتجه إليها، وكان أول اتصاله بها في سنة (1325هـ= 1907م) حين عمل مع العلامة محمد فريد وجدي في جريدة الدستور اليومية التي كان يصدرها، وتحمل معه أعباء التحرير والترجمة والتصحيح من العدد الأول حتى العدد الأخير، فلم يكن معهما أحد يساعدهما في التحرير.

وألَّف العقاد في مجال الدفاع عن الإسلام عدة كتب، يأتي في مقدمتها: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، والفلسفة القرآنية، والتفكير فريضة إسلامية، ومطلع النور، والديمقراطية في الإسلام، والإنسان في القرآن الكريم، والإسلام في القرن العشرين وما يقال عن الإسلام.

وكان أدب العقاد وفكره ميدانًا لأطروحات جامعية تناولته شاعرًا وناقدًا ومؤرخًا وكاتبًا، وأطلقت كلية اللغة العربية بالأزهر اسمه على إحدى قاعات محاضراتها، وبايعه طه حسين بإمارة الشعر بعد موت شوقي، وحافظ إبراهيم، قائلا: "ضعوا لواء الشعر في يد العقاد، وقولوا للأدباء والشعراء أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء، فقد رفعه لكم صاحبه".

المعارف،الطبعة الثالثة عشرة.

يتضح مما قدمنا من حياة العقاد أن عناصر كثيرة تُسهم في تكوين شعره وشخصيته الأدبية، فهو مصري، يستشعر أمجاد المصريين في ضميره وقلبه، وهو عربي، وقد توفر على قراءة الأمهات العربية في النثر والشعر والفلسفة والتصوف، وهو غربي التفكير، تزوَّد من آداب الغرب بكل ما استطاع من غذاء عقلي، فهو مع إيغاله في قراءة الأدب الإنجليزي يتوغل في قراءة الآداب الغربية المختلفة عن طريق اللغة الإنجليزية التي يتقنها، كما يتوغل في قراءة الآثار النقدية. (307)

كان العقاد، عالم كبير من عوالم شعرنا الحديث، وربما كان أكثر شعرائنا أصالة في تجديده، لأنه تجديد يقوم على استيعاب الآداب الغربية والعربية جميعًا واستخلاص صورة جديدة للشاعر، فيها روحه وقومه وشخصيته. وكل ما يمكن أن يلاحظ عليه أنه يسرف أحيانًا في توليداته العقلية، حتى يصبح أسلوب شعره قريبًا من الأسلوب النثري؛ لكثرة ما فيه من منطق ووضوح.

حياة سلامة موسى

سلامة موسى القبطي المصري: كاتب مضطرب الاتجاه والتفكير. ولد في قرية كفر العفي بقرب الزقازيق. وتعلم بالزقازيق وباريس ولندن. ودعا إلى الفرعونية. وشارك في تأسيس حزب اشتراكي، لم يلبث أن حله الإنجليز واعتقلوه وسجنوه مدة. وجحد الديانات في شبابه وعاد إلى الكنيسة في سن الأربعين، وأصدر مجلة (المستقبل) قبل الحرب العامة الأولى وتعطلت بسبب الحرب. (308)

زكي بن عبد السلام بن مبارك

أديب، من كبار الكتّاب المعاصرين، امتاز بأسلوب خاص في كثير مما كتب، وله شعر، في بعضه جودة وتجديد، ولد في قرية (سنتريس) بمنوفية مصر، وتعلم في الأزهر، وأحرز لقب (دكتور) في الآداب، من الجامعة المصرية، واطلع على الأدب الفرنسي في فرنسة، واشتغل بالتدريس بمصر، وانتدب للعمل مدرساً في بغداد، وعاد إلى مصر، فعين مفتشاً بوزارة المعارف، ونشر مؤلفاته في فترات مختلفة، وكان في أعوامه الأخيرة يوإلى نشر

(307) الأدب العربي المعاصر في مصرص 140
(308) الأعلام107/3

فصول من مذكراته وذكرياته في فنون من الأدب والتاريخ الحديث تحت عنوان (الحديث ذو شجون) ، وأصيب بصدمة من (عربة خيل) أدت الى ارتجاج في مخه فلم يعش غير ساعات، وكانت وفاته في القاهرة، ودفن في سنتريس.

له نحو ثلاثين كتاباً، منها (النثر الفني في القرن الرابع-ط) ، و (البدائع -ط) مقالات في الأدب والإصلاح، و (حب ابن أبي ربيعة وشعره- ط) .

وورد اسمه على بعض كتبه (محمد زكي مبارك) ([309]) .

هنا قد قدمنا حياتهم الأدبية و الان نقدم معارك الادبية التي جرت بين هؤلاء الاعلام-

معركة تحت راية القرآن

كانت معركة اللغة العربية ضدَّ أعداء الأمة والدين أوسع وأرحب وأعنف من كل المعارك التي خاضها أئمة الدين ورجال الأمة على الجبهات الأخرى، بل إن أئمة اللغة كانوا الأسبق والأكثر إحساسا بتيّار الزندقة القادم من غيرهم من المشايخ وأهل الفقه، وقد أرادها هؤلاء الرجال معركة تحت راية القرآن، غير منبتّة عنه، ولعلّ الشباب المسلم اليوم بحاجة إلى معرفة هذه المعركة ودراسة تاريخها ومعرفة رجالها من أئمة الهدى، وخصومهم من الزنادقة، لأن هذه المعركة مازالت قائمة وتستعر يوما بعد يوم، وأغلبنا في غفلة ولا يعرف شيئاً عن أدواتها وحقيقتها وتطورّها والنتائج التي تُفضي إليها، وميدان الأدب هو من أهم الميادين "جميعاً وأخطرها، وإن لم يكن كذلك عند كثير من النّاس ومصدر خطورته هو أنه أقدر الأدوات على تطوير الرّأي العام وعلى صوغ الجيل وتشكيله فيما يراد له من صور، وذلك لتغلغله في حياة الناس، وتسلله إلى أعماق نفوسهم عن طريق الصحافة والمسرح والسينما والإذاعات الأثيرية ثمَّ عن طريق الكتب المدرسية وما يناسبها من كتب الأطفال والشباب، والمعركة ذات شقّين: أحدهما يتصل بأساليب الأدب وموضوعاته والآخر يتصل بلغته.

لقد كان الرافعي كاتب الإسلام الأول في هذا العصر وفي هذه المعركة ومع أنه كان واحداً من كثيرين في هذه المعركة، ولكن الرافعي هو العلم المتميز بقوة العاطفة الهادرة وبأسلوبه الناري وقمعه الرادع وصلصلته المرنة التي لا تستمدّ رنينها من قوة الألفاظ

(309) معجم الشعراء العرب ص 1325

وحدها، فالألفاظ في متناول الكاتبين جميعا، ولكنها تستمد قوتها مما وراء الألفاظ من روح غلاّبة قاهرة، هي روح البطل الجبار الذي يثق من قوته الحربيّة، ومهارته الفنية في حلبات الصّيال.

ففي الأدب ظهرت معركة حامية الوطيس بين القديم والجديد، وهي المعركة التي بدأت على صفحات "الجريدة" لمحررها أحمد لطفي السيد، وتناظر فيها رجلان هما: مصطفى صادق ارافعي عن القديم، وطه حسين عن الجديد، ثم ما لبثت هذه المعركة أن انتقلت إلى صحيفة "السياسة الأسبوعية" لمحررها محمد حسين هيكل، وما زال لهذه المعركة ذيول في صحفنا المصرية إلى اليوم (310).

لما ارسل الرافعي كتابه "رسائل الاحزان في فلسفة الجمال والحب" كتب عنه الدكتور طه حسين في صحيفة "الأدب" وقال :

"فما زاد في كتابته علي المماحكة والسفه و ما عرف به من التحامل و زعمه أنه لم يفهم الكتاب ،وهذا الزعم خلة قديمة فيه ، لا يبإلى معها أن يباهت بها نفسي ويزري علي عقله ورأيه ".

و يقول الرافعي في كتابه تحت راية القران :

وقد رددنا في "السياسة "علي نقده للرسائل بهذا الفصل ، وهو أول ما نشرته "السياسة" نقدا صريحا علي الأستاذ الفاضل ، وكانت قبل ذلك في يده كالقلعة المحصنة ، تخرج منها القذائف ولا تدخل إليها(311).

بدأت المعركة حينما أصدر الرافعي كتابه (تاريخ آداب العرب)، وانتقده "طه حسين"، الذي كان لا يزال طالب علم في ذلك الحين في عام 1912م بمقال نشره بالجريدة، مبديًا أنه لم يفهم من هذا الكتاب حرفًا واحدًا.

وأسرها الرافعي في نفسه، وإن كان "طه حسين" قد عاد بعد ذلك عام 1926م فقال عن ذات الكتاب: إن "الرافعي" قد فطن في كتابه لما يمكن أن يكون عليه تأثير القصص وانتحال الشعر عند القدماء، كما فطن لأشياء أخرى قيمة!"

(310) عبد اللطيف محمود حمزة،المدخل في فن التحرير الصحفي ص 259 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الخامسة

(311) تحت راية القران ص83

وبدأت المعركة في الاحتدام حينما أصدر الرافعي كتابه (رسائل الأحزان) واستقبله "طه حسين" بتقديم شديد، انتهى فيه للقول: "إن كل جملة من هذا الكتاب تبعث في نفسي شعورًا مؤلمًا!"

ورد عليه "الرافعي" بجريدة "السياسي "ساخرًا بقوله: "لقد كتبت رسائل الأحزان في ستة وعشرين يومًا، فاكتب أنت مثلها في ستة وعشرين شهرًا، وأنت فارغ لهذا العمل، وأنا مشغول بأعمال كثيرة لا تدع لي من النشاط ولا من الوقت إلا قليلاً .. هأنذا أتحداك أن تأتي بمثلها أو بفصل من مثلها."

واشتدت المعركة وزادت عنفًا حينما أصدر الدكتور "طه حسين" كتابه "الشعر الجاهلي"، وأحدث الضجة المعروفة، وانبرى "الرافعي" يندد بما جاء بهذا الكتاب وفنده فصلاً فصلاً، حتى اجتمع له من ذلك كله كتاب أطلق عليه عنوان (تحت راية القرآن)، الذي كان حديث الناس في تلك الفترة (عام 1926م.

تمصير اللغة العربية: بين مصطفى صادق الرافعي ولطفي السيد

هذه معركة من أخطر المعارك التي واجهت اللغة العربية، ومن أقدم المعارك الأدبية، فقد حمل لطفي السيد عام 1913 في الجريدة لواء الدعوة إلى تمصير اللغة العربية فكتب أكثر من سبع مقالات في خلال شهري أبريل ومايو 1913 وكتب عدد من تلاميذه مقالات متعددة كهيكل وطه حسين وغيرهما([312]).

خصومته مع طه حسين

في البداية يُقدم نبذة عن حياة طه حسين لكي نتميز مكانته بين الأدباء والمعاصرين الذين هجا معهم معاركه بين الأدب.

هنا نقدم نبذة عن حياة طه حسين و مكانته العلمية:

كاتب من الطراز الأول، جمع في أسلوبه بين موضوعية العلم وذاتية الفن. ويمتاز بتلون العبارة، وتنويع الصور والأفكار، مما ينفي الملل عن القارئ. برز نشاطه الأدبي منذ تولي تحرير الصفحة الأدبية بجريدة "السياسة" الأسبوعية فكان ينشر مقالًا ممتعًا في الشعر كل

(312) المعارك الادبية ص 73

يوم أربعاء، ويلخص قصة من أدب الغرب كل يوم أحد، ويناقشها مناقشة أدبية، وكان محصول ذلك بحوثًا مبتكرة في طبيعة الأدب العربي، فثار أعلام الكتابة عليه، وبدأ احتدام الصراع بين زعماء القديم بقيادة الرافعي، وأنصار الجديد بزعامته، فكان بداية بعث أدبي جديد.([313])

على الرغم من أن أسلوب طه حسين يحفل برنين الألفاظ، وجرس العبارات أكثر من الفكرة المدروسة، والمعنى العميق فقد كان شيئًا جديدًا، متميزًا في الكتابة العربية الحديثة، فيه من لغة العرب البيان والإشراق واللمح، ومن الفرنسية الوضوح والإبانة والدقة.

كذلك كثرت المقالات وتعددت الكتب التي ترد على آراء طه حسين في كتابيه "حديث الأربعاء" و"في الشعر الجاهلي"، وقد حظي كتابه "في الشعر الجاهلي" بصفة خاصة، بعدة كتب ألفها أصحابها في الرد عليه، وأهم هذه الكتب: "تحت رآية القرآن" للرافعي، و"نقد كتاب الشعر الجاهلي" لمحمد فريد وجدي، و"نقض كتاب في الشعر الجاهلي" للخضر حسين، و"النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي" للدكتور محمد الغمراوي.

كانت هذه الخصومة بسبب كتاب طه حسين " في الشعر الجاهلي " الذي ضمّنه رأيه في أن جُلّ الشعر الجاهلي منحول، وهي مقولة خطيرة تنبه لها الرافعي؛ فحمل عليه حملة شعواء في الصحافة المصرية واستعدى عليه الحكومة والقانون وعلماء الدين، وطلب منهم أن يأخذوا على يده وأن يمنعوه من أن تشيع بدعته بين طلاب الجامعة، وترادفت مقالاته عاصفة مهتاجة تفور بالغيظ والحميّة الدينية والعصبيّة للإسلام والعرب، كأن فيها معنى من معاني الدم، حتى كادت هذه الحملة تذهب بـ " طه " وشيعته؛ إذ وقف معقود اللسان والقلم أمام قوة قلم الرافعي وحجته البالغة، وقد أسرّ " طه " هذا الموقف للرافعي، فما سنحت له سانحة ينال بها من الرافعي إلا استغلها كي يرد له الصاع صاعين.

الخصومة بين القديم والجديد في الأدب؛ طه حسين

فعلى صفحات "الجريدة" تناظر مصطفى صادق الرافعي عن الأدب القديم، وطه حسين

(313) السيد مرسي أبو ذكري، المقال وتطوره في الأدب المعاصر،ص203، دار المعارف،الطبعة: 1981-1982

عن الأدب الجديد، ثم ما لبثت هذه المعركة أن انتقلت إلى "السياسة الإسبوعية" ولعلها مستمرةٌ إلى يومنا هذا.(314)

الحق أن ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة الهلال وأن أبطال هذه الخصومة أكثر من الأستاذين سلامة موسى ومصطفى الرافعي. إن مصدر هذه الخصومة إنما هي صحيفة الأدب في السياسة حول رسالة "أسلوب في العتب" ذهب فيها الرافعي مذهب المتكلفين من بعض الكتّاب القدماء ثم إن المعركة تحولت إلى معارك ثلاث:

1- بين طه حسين والرافعي: السياسة.

2- بين السكاكيني وشكيب أرسلان: السياسة.

3- بين الرافعي وسلامة موسى: الهلال.

للأستاذ الرافعي في فصله هذا آراء محتاجة إلى شيء من المناقشة. ومنها ما كان يحتاج إلى شيء من المراجعة قبل أن ينشر ويعلن إلى الناس، انظر إليه مثلا يزعم أن المذهب الجديد في الأدب ليس في حقيقة الأمر إلا نتيجة لضعف في اللغة والأدب العربي وقوة في اللغة والأدب الأجنبي. وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديد إنما هم قوم ضيعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم وأخذوا بنصيب موفور في لغات الإفرنج وآدابهم.(315)

ففي الأدب ظهرت معركة حامية الوطيس بين القديم والجديد، وهي المعركة التي بدأت على صفحات "الجريدة" لمحررها أحمد لطفي السيد، وتناظر فيها رجلان هما: مصطفى صادق الرافعي عن القديم، وطه حسين عن الجديد، ثم ما لبثت هذه المعركة أن انتقلت إلى صحيفة "السياسة الأسبوعية" لمحررها محمد حسين هيكل، وما زال لهذه المعركة ذيول في صحفنا المصرية إلى اليوم.(316)

نعتقد أن الأستاذ الرافعي يسرف في هذا الحكم. ولعل مصدر إسرافه في هذا الحكم، إن صحت نظريته أنه أخطأ فهم ما يكتب أنصار المذاهب الغربية وهو إنما أخطأ الفهم، لأنه أخطأ الذوق، أو هو إنما أخطأ الذوق، لأنه أخطأ الفهم.

(314) المدخل في فن التحرير الصحفي ص 27

(315) المعارك الادبية ص 210

(316) المدخل في فن التحرير الصحفي ص 259

ونظن أن للأستاذ الرافعي حظًا من الإنصاف وأنه يرى هنا أن بعض أنصار المذهب الجديد أو الذين يسمون أنصار المذهب الجديد قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا بأس به وإن قوتهم في اللغة الأجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم في اللغة العربية وآدابها.

الأسلوب والمضمون؛ بين الرافعي وسلامة موسى وطه حسين:

كانت معركة "المضمون" في الأدب من أبرز معارك الأدب بين معسكر المحافظين والمجددين، وقد تمثلت هذه المعركة في عدة مساجلات، بدأت بهذه المساجلة عام 1925 في الهلال عندما كتب سلامة موسى عن أديب الفقاقيع يقصد أدب مصطفى صادق الرافعي. وقد دخل الرافعي المعركة وأعلن وجهة نظر، ثم كتب طه مهاجما للرافعي ولكن الرافعي لم يلبث أن تحول عن أسلوبه التقليدي إلى أسلوب وسط فيه محاسن الأسلوب القديم مع العناية بالمضمون.

معركة الشعر الجاهلي

وقد هاجم الرافعي طه حسين في بضعة وعشرين مقالة نارية، ولم يجب طه على واحدة منها، فقد كان المتفق عليه أن يترك الدكتور طه "العاصفة تمر" ولا شك أن المعركة بين الرافعي وطه حسين هي معركة خلاف في الرأي وأسلوب الفكر ومنهج الفهم للأدب والدين واللغة، وأن الرافعي كان بالنسبة للمجددين سيفا مصلتا يحسب له ألف حساب.(317)

وقد صور الرافعي خلافه مع طه حسين في عديد من رسائله إلى الشيخ محمود أبو رية التي جمعها في كتابه "رسائل الرافعي" ولكنه كان منصفا فهو يقول:

"كانت محاضراته مجموعة متناقضات وإن كانت الجامعة حشدت لها حشدا عظيمًا من المدعوين والرجل ميسر وخطه مقبول. ويقول:

أما طه حسين فليس بالضعيف الذي تتوهمه وهو في أشياء كثيرة حقيق بالإعجاب كما هو في غيرها حقيق باللعنة.(318)

---

(317) المعارك الادبية 439

(318) رسائل الرافعي ص182.

وقد وصف كتاب هامش السيرة بأنه "تهكم صريح"([319]).

معركة مفاهيم الأدب

أما معركة "مفاهيم الأدب" بدأت حول الأسلوب عام 1923 بين الرافعي وطه حسين ثم تناولت غاية الأدب، واتصلت بالأسلوب والمضمون، والفن للفن والفن للمجتمع، ومذهبي الأدب بين الرافعي والعقاد، والتراث القديم. والنقد والتتريظ، ومعارك مفاهيم اللغة.

وقد قامت هذه المعارك على أساس مهاجمة الأسلوب القديم المغرق في السجع والمقدمات والألفاظ القاموسية، وحول غلبة العناية باللفظ على العناية بالمضمون.

وقد وقف شكيب أرسلان والرافعي في صف الدفاع ووقف سلامة موسى وطه حسين في صف الهجوم.([320])

معركة الأسلوب والمضمون؛ بين الرافعي وسلامة موسى وطه حسين

كانت معركة "المضمون" في الأدب من أبرز معارك الأدب بين معسكر المحافظين والمجددين، وقد تمثلت هذه المعركة في عدة مساجلات، بدأت بهذه المساجلة عام 1925 في الهلال عندما كتب سلامة موسى عن أديب الفقاقيع يقصد أدب مصطفى صادق الرافعي. وقد دخل الرافعي المعركة وأعلن وجهة نظر، ثم كتب طه مهاجما للرافعي ولكن الرافعي لم يلبث أن تحول عن أسلوبه التقليدي إلى أسلوب وسط فيه محاسن الأسلوب القديم مع العناية بالمضمون.(321)

خصومته مع العقاد

وكان السبب فيها كتاب الرافعي " إعجاز القرآن والبلاغة القرآنية " إذ كان عباس محمود العقاد يرى رأياً مخالفاً لما يرى الرافعي، وقد نشبت بينهما لذلك خصومة شديدة تجاوزت ميدانها الذي بدأت فيه، ومحورها الذي كانت تدور عليه إلى ميادين أخرى؛ جعلت

---

(319) نفس المصدر ص270.

(320) المعارك الأدبية ص10

(321) المعارك الأدبية ص205

كلا الأديبين الكبيرين ينسى مكانه، ويغفل أدبه ليلغو في عرض صاحبه، ويأكل لحمه من غير أن يرى ذلك مَعابة عليه، وكان البادئ الرافعي في مقالاته " على السفود " التي جمعها له في كتاب صديقه إسماعيل مظهر، وتوقفت المعركة بينهما فترة وجيزة ما لبثت أن اشتعل أوارها مرة أخرى عندما نشر العقاد ديوانه "وحي الأربعين" فكتب الرافعي نقداً لديوانه، تلقفه العقاد بالسخرية والتهكم والشتم والسباب، ولم تزل بينهما الخصومات الأدبية حتى توفي الرافعي رحمه الله.

وتبدأ معركة الرافعي مع العقاد منذ صدور "الديوان" للعقاد والمازني وقد تناول العقاد الرافعي وأدبه بالنقد ثم استؤنفت معركة الرافعي مع العقاد بعد صدور كتاب الرافعي "إعجاز القرآن" الذي أثنى عليه سعد زغلول ووصفه بأنه "كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم".(322) هذه العبارة من اختراع الرافعي وليست من يراع الزعيم "سعد زغلول!"

بين مصطفى صادق الرافعي وعباس محمود العقاد

هذه إحدى معارك الصراع بين المدرسة القديمة والمدرسة الحديثة، بين علمين من أكبر أعلامها، بين الرافعي والعقاد، كانت الخصومة بينهما قديمة، لها جذور بعيدة المدى منذ إصدار كتاب "إعجاز القرآن" وقرظة سعد زغلول وغضب العقاد، واتهم الرافعي بأنه هو كاتب التقريظ واتهم سعد زغلول، ونامت الخصومة ثمة، ثم تجددت.

من الرافعي إلى العقاد

ولم ير في شعر أدبائنا ما يستوفي أوصاف الشعر الوسط كنظم صاحب وحي الأربعين عباس محمود العقاد فله فلسفة وفكر وطريقة وله منزع بعيد ومرمى قصي وله اطلاع على شعر الأمم وآدابها، وفيه رغبة شديدة إلى أن يكون مبدعا مجدداً، وقد ارتهن نفسه بملامسة صناعة الأدب وفرغ لها فراغ من يعيش لما يعيش به وانغمس منها انغماس السمكة في بحرها أو مستنقعها.

ترجع المعركة بين الرافعي والعقاد إلى أيام الكتابة في مجلة "البيان" 1911، 1912، ثم

(322) المعارك الادبية ص 428

امتدت خلال حياة الرافعي حتى توفي 1937 على النحو الذي تكشف عنه وقائع المعارك كما أوردناها، ثم بدأت المعركة بين أنصار الرافعي وأنصار العقاد بعد وفاته، اشترك فيها من جانب الرافعي الأساتذة: سعيد العريان ومحمود شاكر، ومن جانب العقاد: سيد قطب، وحسم المعركة الأستاذ الغمراوي.

معركة بين أنصار الرافعي وأنصار العقاد

واستمرت المعركة ثمانية شهور من "25 أبريل إلى 14 نوفمبر 1928".

وقد صور سعيد العريان موقف الرافعي من الحياة الفكرية في عصره فقال: "إنه هو الذي ألب على نفسه هذه العداوات حيا وميتا".

"لقد كان ناقدًا عنيفًا حديد اللسان لا يعرف المداراة ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه، وكان فيه غيرة واعتداد بالنفس، وكان فيه حرص على اللغة من جهة الحرص على الدين؛ إذ لا يزال منها شيء قائم كالإحساس. والبناء لا منفعة بقيامهما إنها منفعتهما معا وكان يؤمن بأنك لن تجد ذا خلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدت لها مثلها في اللغة".(323) ولقد جرد أنصار العقاد "الرافعي" من النفس والإنسانية والعقيدة الأدبية وقال محمد أحمد الغمراوي: "لو غير صاحب تلك المقالات خطر له في الرافعي مثل هذا الرأي المسرف من أنه ليس للرافعي إنسانية ولا طبع ولا نفس ولا ذوق ولا ذهن ولا حياة إلى آخر ما شاءت له بغضاؤه أن ينفي عن الرافعي، لو غيره خطر له هذا في الرافعي لوقف من هذا الخاطر موقف المتهم على أقل تقدير، إذ غير معقول أن يبلغ الرافعي رحمه الله ما بلغ من حسن السمعة وبعد الصيت في عالم الأدب العربي ثم لا يكون له من كل تلك الصفات حظ يفسر ما نال من صيت حسن وتقدير كبير" (324)

معارك الرافعي مع زكي مبارك

وكان الخلاف بين الرافعي وزكي مبارك حول "أوراق الورد" حيث أعلن الرافعي أن كتابة فن جديد في الأدب العربي وأنه "سد المكان الخالي ـ رسائل الحب في اللغة العربية؛ زكي مبارك كان الأستاذ محمد علي غريب استكثر على الأستاذ مصطفى الرافعي أن ينكر خلو

(323) الرسالة أبريل 1938.

(324) المعارك الأدبية ص 266

اللغة العربية من رسائل الحب وقال قد يكون هذا الرأي صائبا فلم ينته إلينا مؤلف كهذا إلا ما تفرق بين أسفار الأدب من بعض الرسائل مما جرى بين المحبين.وقرأت رد الأستاذ الرافعي ونقضه هذه الجملة إذ قال: فأين هذه الرسائل التي تشتت في أسفار الأدب؟ إنها كلمة تكتب في دقيقة ولكن برهانها لا يجيء إلا من عمر طويل يفرق على مكاتب الدنيا في مشارق الأرض ومغاربها.([325])

بين الرافعي وسلامة موسى

مصطفى الرافعي يدافع عن المذهب القديم ويقول بأفضلية الأساليب العربية القديمة على أساليبنا الراقية وهو يجيد الصنعة أيما إجادة ولكنه لا يعنى بالفن فإذا كتب اتسعت عباراته وانتظمت ألفاظه فأتى بالعجب ولكن الحقيقة "أي الجمال" لا تشغله في نظمه أو نثره، ثم هو لا يكاد يؤمن بالعلم بل لا تجد له أثرا في جميع كتاباته والقطعة التي انتخبناها منه تشهد بذلك ويمتاز شعر الرافعي بقوة الطبيعة وحسن النظم ولكن خياله مع ذلك عربي تقليدي تعرف ذلك من تشبيهه صفحة البدر بصفحة الأمرد وضوء الفجر برونق الصارم، هذا إلى خلوه من مثل أعلى يتوخاه. إن أهل المذهب القديم يهملون العلم لأن العلوم تتعارض ومعتقدات العرب.([326])

رد الرافعي

أرادوا بالمذاهب الجديد أن يكتب الكاتب في العربية ينصرف إلى المعنى والغرض تاركا للغة وشأنها، متعسفا فيها آخذًا ما يتفق كما ينعق، ما يجري على قلمه كما يجري تعبيرًا ذلك الممتاز من يرى أن غلافا من عظام رأسه وأن عظام رأسه كعظام رجله.

وأن اللغة أداة ولا بأس بالأداة ما اتفق منها والواقع أن هذه العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته إلا من لا حفل به من زنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق.([327])

---

(325) المارك الأدبية ص 392

(326) المعارك الأدبية ص 650

(327) الهلال فبراير 1942.

الفصل الرابع: انتاجه الأدبي والفكري وسمات أدبه

فمصطلح العصر الحديث هنا يوحي بإشارة ضمنية إلى فكرة"الحداثة من حيث كونها تملأ هذا العصر بمعطياتها على سائر الصعد.

يبتدئ هذا العصر من تاريخ دخول الفرنسيين مصر، بقيادة نابليون بونابرت في سنة "1213هـ 1798م" وقد كان الفرنسيون بغزوهم مصر أول من هدى المصريين إلى العلم الحديث الذي بهرهم نوره، وراعهم غريبه، وأوّل من لفت أنظارهم إلى نوع جديد من العلم، لم يألفوه من قبل، ولم يكونوا على عهد به، فالحملة الفرنسية بهذه المثابة حدث جديد، وتطور خطير، يصح اعتباره فاتحة عصر جديد([328]).

ولا يذهب عن مؤرخ الأدب في العصر الحديث أن يضيف أكبر الفضل في انبعاث اللغة العربية واتصالها بالعلم والفن الحديثين إلى هذه المدرسة([329]).

أما بالنسبة إلى الشعر في هذا العصر قد اتسع بمراحل مختلفة كماقيل :

"مر بالشعر في هذا العصر ثلاثة أطوار، أو مراحل كان في كل منها مغايرًا للأخرى في ظواهرها تبعا لعوامل النشاط والخمود التي تهيأ له.

فالطور الأول من ولاية "محمد علي باشا" سنة 1805 إلى ولاية "إسماعيل باشا" سنة 1863م، أما الطور الثاني من ولاية "إسماعيل باشا" إلى الاحتلال الإنكليزي سنة 1882م، والطور الثالث من الاحتلال الإنكليزي إلى يومنا هذا".([330])

وبالنسبة إلى النثر يصف شوقي عن النثر في العصر الحديث :

استطاعت مصر في العصر الحديث، أن تنهض نهضة واسعة في النثر العربي، وقد بدأت هذه النهضة في القرن التاسع عشر، منذ أرسلت البعوث إلى أوربا، فإن هذه البعوث لما رجعت، أخذت تفكر في إدخال بعض ما تعرفت عليه من الآداب الأوربية، فظهرت فكرة الترجمة، وبدأت هذه الترجمة مقيدة، على نحو ما نعرف عند رفاعة الطهطاوي في ترجمته "تليماك"، فإن من يرجع إلى هذه الترجمة يجدها مقيدة بالسجع المتكرر القوافي،

---

(328) محمد كامل الفقي ،الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة37،المطبعة المنيرية بالأزهر الشريف

(329) المفصل في تاريخ الأدب العربي 2 /294

(330) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة 85

كما يجدها مقيدة بالبديع، وهو أسلوب لا يختلف كثيرًا عما ألفناه في العصر الأيوبي، وما بعده من أساليب.([331])

وكذلك تسارع فيه إنشاء المدارس الوطنية، وتوالى صدور المجلات والصحف وتأسيس المطابع، وتزايدت ترجمات الكتب العلمية والأدبية الأجنبية إلى اللغة العربية، ونشر كثير من كتب التراث، وتألفت الجمعيات والنوادي الأدبية، وأنشئت المكتبات العامة والمسارح ومجامع اللغة العربية.. كما تزايد إنشاء الجامعات ومعاهد البحث ومؤسساته المختلفة إضافة إلى المراكز الثقافية وسائر مؤسسات من إذاعات ومحطات بث تلفزيوني.

وفي العصر الحديث برز النثر العلمي على يد رجال الفكر عبد إنشاء الجامعة المصرية 1908 ونشاط الصحافة، واهتمام الباحثين بتطبيق منطق أرسطو، ومنهج بيكون، وفلسفة ديكارت في أبحاثهم، مما بعث نشاط الكتابة العلمية في مجالات: العلوم الطبيعية والفلسفية والاجتماعية والإنسانية، وعلوم الدين واللغة والأدب([332]).

ولا يكاد قطر عربي يخلو اليوم من وزارة للثقافة.. وكل ذلك يساعد بصورة مباشرة أو غير مباشرة في ارتقاء الإنتاج الأدبي العربي المعاصر وتعميم إيصاله إلى جماهير المثقفين والمتعلمين بمختلف السبل والوسائل المعتمدة في بقية أنحاء العالم.

يمكن إجمال بواعث هذه النهضة في ما يلي:

البعثات العلمية

يأتي هذا الباعث في المقدمة. وقد بدأت فاعليته بعد انتشار الثقافتين الفرنسية والإنكليزية في المدارس والمعاهد التي أنشئت في الشام ومصر وتخرج فيها المعلمون الذين بعث بعضهم إلى فرنسة لإتمام تحصيلهم في مختلف العلوم. وكانت أولى البعثات عام 1826 في عهد محمد علي باشا، إذ اختير أربعة وأربعون طالباً من طلبة الأزهر، رأسهم رجل النهضة الكبير رفاعة الطهطاوي (1801-1873م). وقد عمل هؤلاء المبعوثون بعد عودتهم، وكل في نطاق اختصاصه، في ميداني الترجمة والتعليم.

---

(331) الفن ومذاهبه في النثر العربي 391

(332) السيد مرسي أبو ذكري ،المقال وتطوره في الأدب المعاصر176، دار المعارف،الطبعة: 1981-1982

ثم توالت البعثات فيما بعد، فشملت عدداً من البلدان الأمريكية والأوربية.

الترجمة

كان لترجمة الكتب الفرنسية والإنكليزية إلى العربية أثر كبير في النهضة الأدبية. وقد بدأت حركة الترجمة في بلاد الشام على يد بعض رجال البعثات الدينية، إذ ترجم هؤلاء بعض الكتب التي احتاجوا إليها في التدريس. لكن حركة الترجمة لم تقو وتتنوع إلا بعد عودة رجال البعثة المصرية الأولى الذين بدؤوا بترجمة بعض الكتب العلمية. ويعود الفضل الأكبر في تنشيط هذه الحركة إلى الطهطاوي الذي أنشأ «مدرسة الألسن» عام 1835. وقد عنيت هذه المدرسة بتعليم اللغات الأجنبية المختلفة، وترجم خريجوها مئات الكتب والقصص والمسرحيات. وشارك السوريون واللبنانيون بقوة في تلك الحركة، ولاسيما بعد أن هاجر بعضهم إلى مصر، مثل: نجيب الحداد، وبشارة شديد، وطانيوس عبده...حتى بلغ عدد الكتب المترجمة نحواً من ألفي رسالة وكتاب. ثم اتسع نطاق الترجمة بازدياد مطرد وما زال يتسع حتى اليوم إذ تشمل المترجمات أهم روائع الأدب العالمي في سائر اللغات الأجنبية الحية. **الطباعة:**

أنشئت أول مطبعة بحروف عربية في إيطالية عام 1514م، وطبع فيها بعض الكتب الدينية كسفر الزبور، ثم طبع القرآن في البندقية.

أما في البلاد العربية فأول مطبعة أنشئت فيها كانت في حلب سنة 1706م، ثم تلتها مطبعة الشوير بلبنان سنة 1734م ثم أنشئت مطبعة في بيروت سنة 1751م. ولما قام نابليون بحملته على مصر سنة 1798م أحضر معه مطبعة مزودة بحروف عربية ولاتينية، وقد استخدمها لطبع المنشورات والصحف الخاصة بالحملة. وبعد انتهاء الغزو جعل محمد علي تلك المطبعة نواة للمطبعة الأهلية التي أسسها عام 1821م والتي عرفت فيما بعد باسم «مطبعة بولاق»، وطبعت فيها الكتب الدراسية والكتب المؤلفة والمترجمة. وبعد أربعين سنة بدئ بإنشاء مطابع أهلية كان أقدمها مطبعة «وادي النيل» ومطبعة «جمعية المعارف». كذلك تأسست في بيروت «المطبعة الأمريكية» عام 1834، ثم تلتها «مطبعة الآباء إليسوعيين» عام 1848، ثم «مطبعة الجوائب» التي أنشأها أحمد فارس شدياق [ر] في الآستانة عام 1861. وقد نشرت كتب كثيرة في هذه المطابع، وبينها عدد من المعاجم العربية القديمة وطائفة من

كتب الأدب ودواوين الشعر القديم إلى جانب أمهات كتب التاريخ.وقد تزايد عدد المطابع منذ مطلع القرن العشرين وتطور نوعها وأصبح أكثرها إلياً حتى لم يخل بلد عربي من مطبعة رافقت تكاثر عدد الصحف والمجلات.

حركة إحياء التراث

كان من أثر الاتصال بالغرب، وابتداء الاستقاء من ثقافته، وما رافق ذلك من استشراق أو استغراب، أن تنبهت العقول إلى ضرورة إحياء التراث العربي ونشره. وقد أنشا علي مبارك جمعية لنشر المخطوطات العربية القديمة برئاسة الطهطاوي. وفي عام 1898 تألفت جمعية أخرى للعناية بنشر كتب التراث، وكان من أعضائها أحمد تيمور وحسن عاصم وعلي بهجت. وقد أفادت حركة إحياء التراث مما سبقها إليه المستشرقون في ما نشروه من كتب التراث العربي، إذ عرف عن هؤلاء منهجهم العلمي في تحقيق المخطوطات، ومراجعة أصولها، وموازنة بعضها ببعضها الآخر، كما إنهم أخرجوا ما نشروه في طبعات أنيقة مزودة بالتعليقات المفيدة والفهارس الدقيقة.ولايزال نشاط حركة إحياء التراث في تصاعد مستمر بفضل ازدياد الوعي بضرورة معرفة التراث معرفة صحيحة وشاملة، وتمثل خير ما فيه تمثلاً موضوعياً مفيداً.

الصحافة

الصحافة من أسس النهضة الأدبية الحديثة، وعامل من أهم العوامل في مقاومته اللغة العامية، وانتشار اللغة الفصحى، ومجال واسع لنشر الأبحاث الأدبية، والعلمية، والسياسية، والتاريخية، والاجتماعية، ولقد تدرجت في نموّها من عصر محمد علي حتى اليوم.([333])

كان لإنشاء المطابع، وانتشار الطباعة أثر واضح في ظهور الصحافة. ومن المتفق عليه أن الصحافة العربية ظهرت في مصر قبل غيرها من البلاد العربية، وكان ذلك في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فقد أنشأ نابليون عام 1800م ثم أصدر جريدة «الوقائع المصرية» سنة 1828م، باللغتين العربية والتركية ثم اقتصرت على اللغة العربية.

يعتبر عبد المجيد الشرنوبي إلى جانب علمه الجم، ومؤلفاته الضخمة، أحد دعائم النهضة

(333) عمر الدسوقي،في الأدب الحديث ¼،دار الفكر العربي الجزء الأول 1420 هـ- 2000م

الأدبية في العصر الحاضر، فقد أسهم في بناء المجد الصحفي الأول في النهضة الحديثة، "صحيفة الوقائع المصرية"، إذ كان ذلك أول أعماله التي قام بها مع الإمام محمد عبده، وقد أتاح له عمله في مكتبة الأزهر الاطلاع على الأسفار الأدبية، وأن يتأثر بأساليبها، وينهج نهج من حفلة المكتبة بتراثهم الأدبي الخالد، فنضجب بذلك موهبته، وأشرق أسلوبه، ونمت ملكته في الشعر، وأغرم بالمطارحات والمعارضات، حتى ترك لنا من ذلك ثروة تجعله من طلائع الأدباء الشعراء.([334])

وقد تداول رئاسة تحريرها بعض كبار الأدباء منهم الطهطاوي وحسن العطار والشدياق ومحمد عبده وعبد الكريم سلمان.

وهي أقدم و أولى هذه الصحف المصرية، وهي مجلةٌ طبيةٌ أصدرها الدكتوران: محمد علي البقلي، وإبراهيم الدسوقي، وكانت شهرية عربية اللغة، وهذا يدلنا على عظم المحاولة التي ان يبذلها أطباء البعثات العلمية في تذليل اللغة العربية للمصطلحات العلمية، والاستعانة بالكتب القديمة، وكان ظهورها سنة 1865.([335])

بيد أن أولى المجلات التي كانت بحق معبرًا للثقافة الأدبية الأجنبية، وكانت الميدان الأول الذي اشتهرت فيه الأقلام الجديدة التي تزعمت النهضة الأدبية فيما يعد فهي مجلة "البيان" لعبد الرحمن البرقوقي "ظهر العدد الأول منها في 24 من أغسطس سنة 1911"، كانت البيان أول من فطن إلى الروح الجديدة التي تتطلبها الملة العربية في الأدب، الروح التي تجمع بين الثقافتين العربية والغربية، كتب فيها العقاد وشكري والمازني وطه حسين والرافعي وهيكل، وهم بعد في خطواتهم الأولى نحو الزعامة الأدبية، ويقول البرقوقي في أول سنتها الثانية بعد بين أبواب المجلة، وأهمية النقل والتعريب عن اللغات الأجنبية: "لأننا أمة من الأمم تستمد من التاريخ الإنساني لتعمر مكانها من هذا التاريخ".([336])

فظهرت "الجنان" و"الزهرة" و"المهماز" و"النحلة" سنة 1870، و"النجاح" سنة 1871، و"المقتطف" سنة 1876، و"المشكاة" سنة 1878، و"الجامعة"، سنة 1894، و"المشرق" سنة

(334) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة 158/2

(335) عمر الدسوقي ،في الأدب الحديث86،دار الفكر العربي، الطبعة الجزء الأول 1420 هـ- 2000م

(336) نشأة النثر الحديث وتطوره249-250

1898، وسواها من مجلات القرن الماضي. وقد كانت "الجنان" بحق رائد المجلات العربية قاطبة؛ إذ إنها وضعت الأسس التي سارت عليها تلك المجلات فيما بعد، فالمقتطف، فيما يبدو لي، اقتبس خطتها ووسعها وتصرف فيها متعمدا على ذلك النبع الثر من ثقافة منشئية.([337])

المدارس والجامعات

أنشأ الخديو شتى المدارس التي كان لها فضل النهضة الأدبية والفكرية في عصره وفي عصور خلفائه من بعده، فشهدت مصر لأول مرة مدرسة الهندسة في سنة 1866 وعوض عن مدرسة الحقوق بمدرسة الألسن التي لم يستسغ وجودها عباس الأول وشغل ديوان المدارس بأمر اللغة العربية، كما لاحظ الخديوي نفسه إهمالها في مصالح الحكومة، فرأى من ناحيته أن يرد لها اعتبارها فأمر بأن "المكاتبات التي تتداول من الآن فصاعدًا بكافة الدواوين والمصالح الميرية التي بداخل جهات الحكومة تكون باللغة العربية". ([338])

وفي عهد الخديوي إسماعيل أنشئت مدارس الحقوق والمعلمين والعلوم والفنون والصناعات ودار العلوم العالية. وهكذا تدرج التعليم من الابتدائي إلى الثانوي، ولاسيما بعد عودة رجال البعثة الأولى من فرنسة، ثم عني المسؤولون بالتعليم العالى فأنشئت الجامعة المصرية في القاهرة وتوالى بعد ذلك إنشاء الجامعات الأخرى في القاهرة والإسكندرية وأسيوط وغيرها.

الجمعيات الأدبية

أسست في العصر الحديث جمعيات كثيرة كان لها دور بارز في إذكاء روح النهضة. ومن هذه الجمعيات ما هو أدبي، وما هو علمي، وما هو سياسي. والمعول عليه هنا الأدبية، وإن أسهمت الجمعيات الأخرى إسهاماً غير مباشر في النهضة الأدبية.

المجامع اللغوية

ساعدت هذه المجامع على خدمة اللغة والأدب والتراث العربي مساعدة طيبة. وأقدمها

---

(337) محمد يوسف نجم ،فن المقالة60 بيروت:دار صادر - دار الشروق عمان،الطبعة: الأولى، 1996

(338) إبراهيم عبده،تطور الصحافة المصرية 47،مؤسسة سجل العرب،الطبعة الرابعة

هو "المجمع العلمي العربي" تأسس في دمشق عام 1919، بجهود محمد كرد علي ورئاسته. وقد عني هذا المجمع بوضع المصطلحات العلمية الحديثة، وتصحيح الأخطاء اللغوية الشائعة، ونشر كتب التراث، وضم أعضاء دائمين من سورية وأعضاء مراسلين من البلاد العربية الأخرى ومن المستعربين ومنذ عام 1958 غدا اسمه «مجمع اللغة العربية».

المكتبات

لقد كانت مكتبات الصحفي تتكون من صفوف فوق صفوف وأكوام فوق أكوام من المعلومات المرصوصة في دواليب مليئة بالملفات والمظاريف المكتظة بالقصاصات والصور والأكلشيهات الخاصة بالموضوعات والشخصيات، ومعظمها قديمة وغير مفهرسة فهرسة جيدة.([339])

من المكتبات المهمة ما هو عام وما هو خاص. وأشهر هذه المكتبات وأقدمها «دار الكتب الخديوية» التي أنشأها علي مبارك في القاهرة عام 1870، وتمتاز هذه المكتبات باحتوائها الكتب الأجنبية التي ألفها المستشرقون بالفرنسية والإنكليزية والألمانية وغيرها من اللغات.

أسس المكتبة الشرقية في الجامعة إليسوعية في بيروت، للآباء إليسوعيين، ([340])هذه المكتبات تستخدم من تقنيات حديثة في الأرشفة والحفظ والإعارة، كما تهتم بجمع كل مايصدر من النتاج الأدبي والفكري العربي وما يتعلق بالثقافة العربية على وجه الإجمال.استطاع الرافعي خلال هذه الفترة تربو حياته الأدبية على خمسٍ وثلاثين سنة إنتاج مجموعة كبيرة ومهمة من الدواوين والكتب أصبحت علامات مميزة في تاريخ الأدب العربي.

دواوينه الشعرية

كان الرافعي شاعراً مطبوعاً بدأ قرض الشعر وهو في العشرين، وطبع الجزء الأول من ديوانه في عام 1903 وهو بعد لم يتجاوز الثالثة والعشرين، وقد قدّم له بمقدمة بارعة فصّل

(339) إبراهيم إمام ،دراسات في الفن الصحفي320،مكتبة الأنجلو المصرية

(340) مجاني الأدب في حدائق العرب، يعقوب شيخو: رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بيروت :مطبعة الآباء اليسوعيين، الطبعة: 1913 م

فيها معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته. وتألق نجم الرافعي الشاعر بعد الجزء الأول واستطاع بغير عناء أن يلفت نظر أدباء عصره، واستمر على دأبه فأصدر الجزأين الثاني والثالث من ديوانه. وبعد فترة أصدر ديوان النظرات، ولقي الرافعي حفاوة بالغة من علماء العربية وأدبائها قلّ نظيرها، حتى كتب إليه الإمام محمد عبده قائلاً: " أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل ".

كتبه النثرية

قلّ اهتمام الرافعي بالشعر عما كان في مبتدئه، وذلك لأن القوالب الشعرية تضيق عن شعوره الذي يعبر عن خلجات نفسه وخطرات قلبه ووحي وجدانه ووثبات فكره، فنزع إلى النثر محاولاً إعادة الجملة القرآنية إلى مكانها مما يكتب الكتّاب والنشء والأدباء، أيقن أن عليه رسالة يؤديها إلى أدباء جيله، وأن له غاية هو عليها أقدر، فجعل هدفه الذي يسعى إليه أن يكون لهذا الدين حارساً يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال، وينفخ في هذه اللغة روحاً من روحه، يردّها إلى مكانها ويرد عنها فلا يجترئ عليها مجترئ، ولا ينال منها نائل، ولا يتندر بها ساخر إلا انبرى له يبدد أوهامه ويكشف دخيلته. فكتب مجموعة من الكتب تعبر عن هذه الأغراض عُدت من عيون الأدب في مطلع هذا القرن. وأهمها:

1-تحت راية القرآن: المعركة بين القديم والجديد: وهو كتاب وقفه –كما يقول- على تبيان غلطات المجددين الذي يريدون بأغراضهم وأهوائهم أن يبتلوا الناس في دينهم وأخلاقهم ولغتهم، وهو في الأصل مجموعة مقالات كان ينشرها في الصحف في أعقاب خلافه مع طه حسين الذي احتل رده على كتاب " في الشعر الجاهلي " معظم صفحات الكتاب.

2-وحي القلم: وهو مجموعة من مقالاته النقدية والإنشائية المستوحاة من الحياة الاجتماعية المعاصرة والقصص والتاريخ الإسلامي المتناثرة في العديد من المجلات المصرية المشهورة في مطلع القرن الماضي مثل: الرسالة، والمؤيد والبلاغ والمقتطف والسياسة وغيرها.

3-تاريخ الأدب العربي: وهو كتاب في ثلاثة أجزاء، الأول: في أبواب الأدب والرواية والرواة والشواهد الشعرية، والثاني: في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، وأما الثالث: فقد

انتقل الرافعي إلى رحمة ربه قبل أن يرى النور؛ فتولى تلميذه محمد سعيد العريان إخراجه؛ غير أنه ناقص عن المنهج الذي خطه الرافعي له في مقدمة الجزء الأول.

4-حديث القمر: هو ثاني كتبه النثرية وقد أنشأه بعد عودته من رحلة إلى لبنان عام 1912؛ عرف فيها شاعرة من شاعرات لبنان (مي زيادة) ، وكان بين قلبيهما حديث طويل، فلما عاد من رحلته أراد أن يقول فكان " حديث القمر ".

5-كتاب المساكين: وهو كتاب قدّم له بمقدمة بليغة في معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنساني، وهو فصول شتى ليس له وحدة تربطها سوى أنها صور من الآلام الإنسانية الكثيرة الألوان المتعددة الظلال. وقد أسند الكلام فيه إلى الشيخ علي الذي يصفه الرافعي بأنه: " الجبل الباذخ الأشم في هذه الإنسانية التي يتخبطها الفقر بأذاه "، وقد لقي هذا الكتاب احتفالاً كبيراً من أهل الأدب حتى قال عنه أحمد زكي باشا: " لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير وهيجو كما للفرنسيين هيجو وجوته كما للألمان جوته ".

6-رسائل الأحزان: من روائع الرافعي الثلاثة؛ التي هي نفحات الحب التي تملكت قلبه وإشراقات روحه، وقد كانت لوعة القطيعة ومرارتها أوحت إليه برسائل الأحزان التي يقول فيها " هي رسائل الأحزان لا لأنها من الحزن جاءت، ولكن لأنها إلى الأحزان انتهت؛ ثم لأنها من لسان كان سلماً يترجم عن قلب كان حرباً؛ ثم لأن هذا التاريخ الغزلي كان ينبع كالحياة وكان كالحياة ماضياً إلى قبر ".

7-السحاب الأحمر: وقد جاء بعد رسائل الأحزان، وهو يتمحور حول فلسفة البغض، وطيش القلب، ولؤم المرأة.

8-أوراق الورد رسائله ورسائلها: وهو طائفة من خواطر النفس المنثورة في فلسفة الحب والجمال، أنشأه الرافعي ليصف حالةً من حالاته ويثبت تاريخاً من تاريخه، كانت رسائل يناجي بها محبوبته في خلوته، ويتحدث بها إلى نفسه أو يبعث بها إلى خيالها في غفوة المنى، ويترسل بها إلى طيفها في جلوة الأحلام.

9-على السَّفُّود: وهو كتاب لم يكتب عليه اسم الرافعي وإنما رمز إليه بعبارة إمام من أئمة الأدب العربي، وهو عبارة عن مجموعة مقالات في نقد بعض نتاج العقاد الأدبي.

البـاب الثالث: دراسة الأدب القراني الكريم في آثار مصطفى صادق الرافعي

فيه أربعة فصول

الفصل الأول: اعجاز القرآن والبلاغة النبوية

الفصل الثاني: وحي القلم

الفصل الثالث: تحت رأية القرآن

الفصل الرابع: أوراق الورد

الفصـل الأول: اعجاز القرآن وبلاغة النبوية

أن الألفاظ القران منزلة بحروفها ونسقها والابطل الاعجاز لأن الاعجاز لا يكون انسانيا وقد كان الوحي ينزل علي النبي صلي الله عليه وسلم فتعتريه حالة روحية وردت صفتها في البخاري و غيره.

قال سعد باشا زغلول في رسالته الذي كتب إلى الرافعي عن تقريظ كتاب اعجاز القران: تحدي القران أهل البيان في عبارت قارعة محرجة ، ولهجة واخزة مرغمة أن يأتو بمثله أو سورة منه ، فما فعلوا ، ولو قدروا ماتأخروا لشدةحرصهم علي تكذيبهم و معارضته بكل ما ملكت أيمانهم واتسع له امكانهم ،هذا العجز الوضيع بعد ذاك التحدي الصارخ هو أثر تلك القدرة الفائقة ، وهذا السكون الذليل بعد ذاك الاستفزاز الشامخ هو أثر ذلك الكلام العزيز فجاء كتابكم "اعجاز القران "مصدقا لاياتها مكذبا لانكارهم وأيد بلاغة القران واعجازها بأدلة مشتقة من أسرارها في بيان مستمد من روحها "كانه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم"([341])

وقال أيضاً عن تقريظ اعجاز القران والبلاغة النبوية شبَّه فيه أسلوب المؤلف بالتنزيل الحكيم، وهو تشبيه يصور حقيقة كبيرة، فإن الرافعي يتأثر في نثره العبارة القرآنية في بلاغتها وسموها.([342]) أن القرآن معجزة هذه في بلاغة نظمه واتساق أوضاعه وأسراره، فمن ثم كانت مادة الاتصال في نسق التإليف بين هذا الجزء والذي قبله. القرآن الكريم مما يتعلق بلغته ويتصل ببلاغته ويكشف عن أوجه الإعجاز في ذلك، لا ننفذ في غير سبب لما نحن بسبيله، ولا نذهب في الكلام عن نتيجة من نتائجه. ولقد أراد الله أن لا تضعف قوة هذا الكتاب، وأن لا يكون في أمره على تقادم الزمن خَضغ أو تَطامن، فجاءت هذه القوة فيه بأسبابها المختلفة على مقدار ما أراد، وهي قوة الخلودالأرضي التي خرج بها القرآن مخرج الشذوذ الطبيعي، فلا سبيل عليه ليد الزمن وحوادثه مما تبليه أو تستجده، إنما هو روح من أمر الله تعالى هو نزله وهو يحفظه، وقد قال سبحانه وتعالى:

---

(341) رسائل الرافعي ص127

(342) شوقي ضيف:أحمد شوقي عبد السلام، الأدب العربي المعاصر في مصرص243،دار المعارف ،الطبعة: الثالثة عشرة ـ

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (343) .

يذهب الرافعي إلى أن القرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حين ينفي الإمكان بالمعجز عن غير الممكن، فهو- أي القرآن- لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغا، وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة، وإنما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية، يشاركها في إعجاز الصنعة وهيئة الوضع، وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مفرّغة إفراغا من ذوب تلك المواد كلها(344)

فقد كتب العديد من العلماء المصريين في إعجاز القرآن كالرافعي ومتولي الشعراوي.

أما رأي مصطفى صادق الرافعي في كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" فيوجزه في ثلاث نقاط: فالقرآن معجز لاستقرار القرآن وثباته على الزمان، وهو شريعة وأخبار وآداب، ولدفعه النسيان عن اللغة العربية، فهو وجود لغوي ركب كل ما فيه على أن يبقى خالدًا مع الإنسانية: يدفع عن هذه اللغة العربية النسيان الذي لا يدفع عن شيء؛ ولأن معانيه تتوالد وتتكاثر، وتتجدد حسب قدرته على كل عصر في استخلاص معانيه".(345) بَيدَ أنه لا بد لنا من صدر نبتدئ به القولَ في تاريخه وجمعه وتدوينه وقراءته واعجازه حتى تكون هذه سبباً إلى الكلام في لغته وبلاغته، ثم إعجازه في اللغة والبلاغة. الان أولا و بداية نقدم تلخيص كتاب اعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي و محتوياته كما يلي:

الكتاب الأول : الفصل الأول : تاريخ القُرآن (جمعُه وتدوينه)

أنزل هذا القرآن مُنَجماً في بضع وعشرين سنة، فربما نزلت الآية المفردة، وربما نزلت آيات عدة إلى عشر، كما صح عن أهل الحديث.وقد كان ابتداء الوحي في سنة 611 للميلاد بمكة، ثم هاجر منها النبي- صلى الله عليه وسلم-في سنة 622 إلى المدينة، فنزل القرآن مكياً ومدنياً. وقد اختلفت الروايات في آخر آية نزلت وتاريخ نزولها وفي بعضها أن

(343) الحجر ،9

(344) مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن ص 99،دار القلم – دمشق،الطبعة الثالثة، 1426 هـ - 2005 م.

(345) المقال وتطوره في الأدب المعاصر ،ص 319

ذلك كان قبل موته بأحد وثمانين يوماً، في سنة إحدى عشرة للهجرة) وعن كتّابه فقد (أجمعوا على نفر، منهم: علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود). وقد أسفر ذلك عن وجود ثلاثة مصاحف (مصحف ابن مسعود، ومصحف أبي، ومصحف زيد، وكلهم قَرَأَ القرآن وعَرَضه على النبي صلي الله عليه وسلم، فأما ابن مسعود فقرأ بمكة وعرض هناك، وأما أبي فإنه قرأ بعد الهجرة وعرض في ذلك الوقت، وأما زيد فقرأه بعدهما وكان عرضه متأخراً عن الجميع، وهو آخر العرض إذ كان في سنة وفاته وبقراءته كان يقرأ عليه الصلاة والسلام وكان يصلي إلى أن لحق بربه.

وبالنسبة إلى الفتوحات رصد حذيفة بن إيمان أن فصيلا من المسلمين الجدد يقرأ القرآن بلحون غير لحون العرب ففزع إلى أبي بكر فأجمعوا أمرهم أن ينتسخوا الصحفَ الأولى التي كانت عند أبي بكر، وأن يأخذوا الناس بها ويجمعوهم عليها ، فأرسل عثمان إلى حفصة فبعثت إليه بتلك الصحف، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت، وإلى عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فامرهم أن ينسخوها في المصاحف ثم قال للرهط القرشيين الثلاثة: ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش فإنه بلسانهم. ثم بعث في كل أفق بمصر من تلك المصاحف، وكانت سبعة - في قول مشهور - فأرسل منها إلى مكة، والشام، واليمن، والبحرين، والبصرة، والكوفة. وحبس بالمدينة واحداً، وهو مصحفه الذي يسمى الإمام ثم أمر بما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف أن يحرق، ولم يجعل في عزيمته تلك رخصة سائغة لأحد. وكان جمع عثمان في سنة 25 للهجرة.

القراءة وطرق الأداء

روي عن عمر بن الخطاب، قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقانَ في حياة رسول الله – صلي الله عليه وسلم- ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله – صلي الله عليه وسلم- كذلك، فكدت أساوره في الصلاة فصبرت حتى سلَّم، فلما سلَّم لبَّبته بردائه فقلت. مَن أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرؤها؛ قال: أقرأنيها رسول الله –صلي الله عليه وسلم- ، فقلت: كذبت، فوالله إن رسول الله – صلي

الله عليه وسلم- لهو أقرأني هذه السورة. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم - فقلت: يا رسول الله، إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان. فقال رسول الله جتَ: " اقرأ يا هشام "، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرؤها، فقال: " هكذا نزلت "، ثم قال: " اقرأ يا عمر "، فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله لجم، فقال: " هكذا نزلت "، ثم قال: " إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منها ". هذا حين كان الاختلاف مما تقتضيه الفطرة اللغوية ومذاهبها، فلما انتَفَضت هذه الفطرة، واختبلت الألسنة بعد اتساع الفتوح، وانسياح العرب في الأقطار، ومخالطتهم الأعاجمَ - لَم يعد لذلك الاختلاف وجه يتصل بحكمة من الرأي، بل صار كأنه دُرْبةٌ لإفساد هذا الأمر واختلاف المادة نفسها على وجه يُنكرُ من حقيقتها بما يضيفُ إليها أو يخلط بها أو يغير منها، وإلى هذا نظر رسول الله – صلى الله عليه وسلم - حين عرض عليه القرآنُ العرضةَ الأخيرة، وما كان يعلم أنها الأخيرة لولا ما علمه الله، فاختار قراءة زيد بن ثابت صاحب هذه العرضة، وبها كان يقرأ وكان يصلي إلى أن انتقل إلى جوار ربه. ومن ثم اختارها المسلمون بعده وكتبوا القرآن عليها زمن أبي بكر كما مر، ثم تركوا لناس أسانيدهم، إذ كانت الفطرة سليمة بعد. فلما كانت الطيرة والاختلاف لعهد عثمان، وأشفقوا من الضلال في معَاسف الرأي ومعاني حملوا الناسَ عليها حملاً وكتبوا بها المصاحف.

القراء

يرجعُ عهد القراء الذين أقاموا الناسَ على طرائقهم في التلاوة إلى عهد الصحابة- رضي الله عنه-، فقد اشتهر بالإقراء منهم سبعة: عثمان، وعلي، وأبي، وزيدُ بن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري؛ وعنهم أخذ كثير من الصحابة والتابعين في الأمصار، وكلهم يُسنِدُ إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم- . فلما كانت أواخر عهد التابعين في المائة الأولى تجرد قوم واعتنَوا بضبط القراءة أتم عناية، لِما رأوا من المساسِ إلى ذلك بعد اضطراب السَّلائق، وجعلوها علماً، كما فعلوا يومئذ بالحديث والتفسير، فكانوا فيها الأئمة الذين يُرحَلُ إليهم ويؤخَذُ عنهم؛ ثم اشتهر منهم ومن الطبقة التي تَلتهُم أولئك الأئمة السبعة الذين تُنسبُ إليهم القراءات إلى اليوم، وهم: أبو عمرو بن العلاء

شيخُ الرُّواة المتوفى سنة 154 هـ، وعبد الله بن كثير المتوفى سنة 120 هـ،ونافعُ بن نعيم المتوفى سنة 169 هـ، وعبد الله بن عامر إليحصُبي المتوفى سنة 118 هـ، وعاصمُ بن بَهدَلة الأسَدي المتوفى سنة 128 هـ، وحمزةُ بن حبيب الزيات العِجلي المتوفى سنة 156 هـ، وعلي بن حمزة الكِسائي إمام النحاة الكوفيين المتوفى سنة 189 هـ. وقراءات هؤلاء السبع هي المتفقُ عليها إجماعاً، ولكل منهم سَنَد في روايته، وطريق الرواية عنه؛ وكل ذلك محفوظ مثبَت في كتب هذا العلم. والعلماءُ على أن القراءات متواترة وآحاذ وشاذة. وجعلوا المتواتر السبع والأحادَ الثلاثَ المتممةَ لعشرها ثم ما يكون من قراءات الصحابة – رضي الله عنهم مما لا يوافق ذلك. وما بقي فهو شاذ. مُجمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثلُه؛ لأن القراءة سنة متبَعة، يلزم قبولُها؛ والمصير إليها بالإسناد لا بالرأي، ثم يشترط في تلك القراءة أن توافق أحدَ المصاحف العثمانية ولو احتمالا وأن تكون مع ذلك صحيحة الإسناد، فإن اجتمعت الأركان الثلاثة: موافقة العربية، ورسم المصحف، وصحة السند؛ فتلك هي القراءة الصحيحة.

قراءة التَلحِين

ومما ابتدع في القراءة والأداء، هذا التلحين الذي بقيَ إلى اليوم يتناقله المفتونةُ قلوبُهم وقلوبُ من يعجبهم شأنهم، ويقرأون به على ما يشبه الإقناع وهو الغناء ومن أنواعه عندهم في أقسام النغم (الترعيد) وهو أن يرعد القارئ صوته، قالوا كأنه يرعَد من البرد (والترقيص) وهو أن يروم السكوتَ على الساكن ثم ينقر مع الحركة كأنه في عدو هَرولة؛ (والتطريب) وهو أن يترنم بالقرآن ويتنغمَ به فيمد في غير مواضع المد ويزيد في المد ما أصاب موضعه، (والتحزين) وهو أن يأتي بالقراءة على وجه حزين يكاد يبكي مع خشوع وخضوعا ثم (الترديد) وهو رد الجماعة على القارئ في ختام قراءته بلحن واحد على وجه من تلك الوجوه. فلما كانت المائة الثانية كان أول من قام بالتلحين والتطنين عبيدَ الله بن بَكرة، وكانت قراءته حزنا ليس على شيء من ألحان الغناء والحداء، فورث ذلك عنه حفيده عبد الله بن عمر بن عبيد الله، فهو الذي يقال له قراءة ابن عمرة وأخذها عنه الإباضي، ثم أخذ سعيد بن العلاف وأخوه عن الإباضي، وصار سعيد رأس هذا القراءة في زمنه وعرفت به، لأنه اتصل بالرشيد فأعجب بقراءته وكان يحظيه ويعطيه حتى عرف

بين الناس بقارئ أمير المؤمنين. وكان في الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين من يحكم القراءة على أحسن وجوهها ويؤديها بأفصح مخرج وأسراه، فكأنما يسمع منه القرآنَ غضاً طَرَياً، لفصاحته وعذوبة منطقه وانتظام نَبراته، وهو لحن اللغة نفسها في طبيعتها لا لحن القراءة في الصناعة، على أن كثيراً من العرب كانوا يقرأون القرآن ولا يعفون ألسنتهم مما اعتادته في هيئة إنشاد الشعر، مما لا يحل بالأداء، ولكنه يعطي القراءة شبهاً من الإنشاد قريباً، لتمكن ذلك منهم وانطباع الأوزان في الفطرة، حتى قيل في بعضهم: إنه يقرأ القرآن كأه رَجز الأعراب. وهذا عندنا هو الأصل فيما فشا بعد ذلك من الخروج عن هيئة الإنشاد إلى هيئة التلحين. وبالجملة فإن التعبد بفهم معاني القرآن في وزن التعبد بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلةِ بالنبي - صلى الله عليه وسلم- وقد عد العلماء القراءة بغير هذا التجويد لحناً خفياً.

لغة القرآن

الأصلُ فيمن نزل القرآن بلغتهم، قريش القرآن بلغة قريش، لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قُريشي، ثم ليكون هذا الكلام زعيمَ اللغات كلها كما استمازت قريش من العرب بجوار البيت، وسقاية الحاج، وعمارةِ المسجد الحرام، وغيرها من خصائصهم وهذه حكمة بالغة في سياسة أولئك الجفاة وتألفهم وضم نشرهم، فإن هذا القرآن لو لم يكن بلسان قريش ما اجتمع له العرب ألبتة ولو كانت بلاغته مما يميت ويحيي وههنا أصل آخر، وهو أن القرآن لو نزل بغير ما ألفَه النبي - صلى الله عليه وسلم - من اللغة القرشية وما اتصل بها، كان ذلك مَغمزاً فيه، إذ لا تستقيم لهم المقابلة حينئذ بين القرآن وأساليبه، وبين ما يأثرونه من كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - فيهون ذلك على قريش، ثم على العرب، فيجدون لكل قبيلة مذهباً من القول فيه، فتنشق الكلمة، ثم يصير الأمر من العصبية والمشاحنة والبغضاء إلى حال لا يلتئم عليه أبداً (والحقيقة أن) إعجازه أن يأتيهم بأفصح ما تنتهي إليه لغات العرب جميعاً، وإنما سبيل ذلك من لغة قريش. وهذه اللغات وإن اختلفت في اللحن والاستعمال، إلا أنها تتفق في المعنى الذي من أجله صار العرب جميعاً يخشعون للفصاحة من أي قبيل جاءتهم. أما اللغات التي نزل بها القرآن غير لغة قريش، فهي لغة بني سعد بن بكر الذين كان النبي - صلى الله عليه وسلم - مُسترضعاً فيهم،

وهي إحدى لغات العجُز، من هوازن، ثم سائر هذه اللغات وهي جُشمُ بن بكر، ونصرُ بن معاوية وثقيف، وتلك هي أفصح لغات العرب جملة، ثم خزاعة، وهذيل، وكِنانة، وأسَد وضبَّة، وكانوا على قرب من مكة يكثرون التردد إليها ومن بعدهم قيس وألفافُها التي في وسط الجزيرة. قال بعض العلماء: وقد كانت في القرآن ألفاظ من لغات أخرى كقوله: (لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ) أي لا ينقصكم بلغة بني عبس ولقد ائتلفت لغة القرآن الكريم على وجه يستطيع العرب أن يقرأوه بلحونهم وإن اختلفت وتناقضت؛ ثم بقي مع ذلك على فصاحته وخلوصه. لأن هذه الفصاحة هي في الوضع التركيبي.

الأحرف السبعة

روى أهل الأثر حديثاً عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو قوله: " أنزلَ القرآنُ على سبعة أحرف، لكل منها ظَهرٌ وبَطن، ولكل حرف حَد، ولكل حد مطلَع " ثم اختلفوا في تأويله وفي تفسير هذا الأحرف ولكن الأكثرين على أنها سبعُ لغات من لغات قريش وألفافها من ظواهر مكة إلى قيس. وقال بعض العلماء: إني تدبرت الوجوه التي تختلف بها لغاتُ العرب فوجدتها على سبعة، أنحاء لا تزيد ولا تنقص، وبجميع ذلك نزل القرآن: الوجه الأول إبدالُ لفظ بلفظ: كالحوت بالسمك وبالعكس، وكالعهن المنفوش قرأها ابن مسعود: كالصوف المنفوش، والثاني إبدال حرف بحرف كالتابوت والتابوه –

وقد مَر بك أنها كانت كتابة زيد بن ثابت حتى غيَّرها عثمان – رضي الله عنه - والثالث تقديم وتأخير، إما في الكلمة، نحو: سُلِبَ زيد ثوبُه وسُلِب ثوبُ زيد. وإما في الحرف، نحو: أفلم ييأس وأفلم يايس؛ والرابع زيادةُ حرف أو نقصانه، نحو: مإليه وسلطانيَه، فلا تَكُ في مِريَة؛ والخامس اختلاف حركات البناء، نحو: فلا تحسبن (بفتح السين وكسرها) ، والسادس اختلافُ الإعراب، نحو: " ما هذا بشراً "، وقرأ ابن مسعود بالرفع، والسابع التفخيم والإمالة، وهذا اختلاف في اللحن والتزيين لا في نفس اللغة، والتفخيم أعلى وأشهر عند فصحاء العرب قال: فهذه الوجوه السبعة التي بها اختلفت لغاتُ العرب قد أنزل الله باختلافها القرآن متفرقاً فيه، ليعلم بذلك أن من زَل عن ظاهر التلاوة بمثله أو من تعذر عليه تركُ عادته (اللغوية) فخرج إلى نحو مما قد نزلَ به فليسَ بملوم ولا معاقَب عليه؛ وكل هذا فيما إذا لم يختلف في المعانى.

وهو قول حسن يحمل به الحديث على معنى القراءات التي هي في الأصل فروق لغوية، وإن كان بعض الأحرف قد قرئ بسبعة أوجه وبعشرة، نحو: (مالك يوم الدين) و (عَبْدَ الطاغوت) والذي عندنا في معنى الحديث: أن المراد بالأحرف اللغات التي تختلف بها لهجات العرب، حتى يوسع على كل قوم أن يقرؤوه بلحنهم، وما كان العرب يفهمون من معنى الحرف في الكلام إلا اللغة، وإنما جعلها سبعة رمزاً إلى ما ألفوه من معنى الكمال في هذا العدد، وخاصة فيما يتعلق بالإلهيات: كالسموات السبع، والأرضين السبع، والسبعةِ الأيامِ التي بُرئت فيها الخليقةُ وأبواب الجنة والجحيم، ونحوها، فهذه حدود تحتوي ما وراءها بالغاً ما بلغ، وهذا الرمزُ من ألطف المعاني وأدقها: إذ يجعل القرآن في لغته وتركيبه كأنه حدودٌ وأبوابٌ لكلام العرب

مفردات القرآن

وفي القرآن ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب؛ وليس المراد بغرابتها أنها مُنكرة أو نافِرة أو شاذة، فإن القرآن منزه عن هذا جميعه، وإنما اللفظة الغريبة ههنا هي التي تكون حسنة مستغربَة في التأويل؛ بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس. وجملة ما عدوه من ذلك في القرآن كله: سبعمائة لفظة أو تزيد قليلاً؛ جميعها روي تفسيره بالسند الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنه وهو ذلك المعجم اللغوي الحي الذي كانوا يرجعون إليه، كان رحمه الله يقول: الشعر ديوانُ العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه. ومنشأ الغرابة فيما عدوه من الغريب أن يكون ذلك من لغات متفرقة، أو تكون مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مُخرَجَ الغريب: كالظلم، والكفر، والإيمان، ونحوها مما نقل عن مدلوله في لغة العرب إلى المعاني الإسلامية المحدَثة، أو يكون سياق الألفاظ، قد دل بالقرينة على معنى معين غير الذي يُفهم من ذات الألفاظ، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [346] . أي فإذا بيناه فاعمل به. وكذلك عد العلماء في القرآن من غير لغات العرب أكثر من مائة لفظة، ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريان والعبران والقِبط، وهي كلمات أخرجتها العرب لى أوزان لغتها وأجرتها

(346) القيامة ، اية رقم 18

في فصيحها فصارت بذلك عربية، وإنما وردت في القرآن لأنه لا يسد مسدها إلا أن توضع لمعانيها ألفاظ جديدة على طريقة الأول، فيكون قد خاطب العرب بما لم يوقفهم عليه، وما لا يدركون بفطرتهم اللغوية وجه التصرف فيه، وليس ذلك مما يستقيم به أمر ولا هو عند العرب من معاني الإعجاز في شيء، لأن الوضع يعجز أهله، وهم كانوا أهل اللغة.

تأثير القرآن في اللغة

نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معاً، فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه، إذ النور جملة واحدة وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه من طبيعته، وهو في كل جزء من أجزائه وفي أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبدلت الأرض غير الأرض، وإنما كان ذلك لأنه صفى اللغة من أكدارها، وأجزاها في ظاهرها على بواطن أسرارها. ثم هو بما تناول بها من المعاني الدقيقة التي أبرزها في جلال الإعجاز، وصوَّرها الحقيقة وأنطقها بالمجاز، وما ركبها به من المطاوعة في تقلب الأساليب، وتحول التراكيب إلى التراكيب، قد أظهرها مظهراً لايقضى العجب منه، لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصته . ومن المعلوم بالضرورة أن القرآن قد جمع أولئك العربَ على لغة واحدة، بما استجمع فيها من محاسن هذه الفطرة اللغوية التي جعلت أهلَ كل لسان يأخذون بها ولا يجدون لهم عنها مَرغَباً، إذ يرونها كمالاً لما في أنفسهم من أصول تلك الفطرة البيانية، مما وقفوا على حد الرغبة فيه من مذاهبها دون أن يقفوا على سبيل القدرة عليه. ومن شأن الكمال المطلوب إذا هو اتفق في شيء من الأشياء - كهذا الكمال البياني في القرآن - أن يَجمع عليه طالبيه مهما فرقت بينهم الأسبابُ المتباينة، والصفات المتعادية؛ ولولا ذلك ما سهل أن تنقاد الجماعات في أصل تكوينها منذ البدء انقياداً يكون عنه هذا الأثر الوراثي في طاعة الأمم لشرائعها؛ ثم لملوكها وأمرائها، مع ما تُسام. لأمة لذلك في باب من أبواب الإمرَةِ والحكم والتسلط، كما أن من شأن النقصِ إذا تمثل في شيء أن يزيد في تفريق من يفترقون عنه إذا توهموه، حتى تتسعَ بينه وبينهم الغاية. كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مع أنه أفصح ذي لسان وأبلغ ذي لبٍّ، لا يقاس كلامه بالقرآن، ولا يقع منه إلا كما يقع سائر الكلام،

مع أنه بين كلام الناس الغاية التي ليس بعدها ما يقال فيه إنه بعدها .وضح لك أنه لولا القرآن وأسراره البيانية ما اجتمع العرب على لغته، ولو لم يجتمعوا لتبدَّلت لغاتهم بالاختلاط الذي وقع ولم يكن منه بد، حتى تنتقض الفطرة وتختبل الطباع، ثم يكون مصير هذه اللغات إلى العفاء لا محالة، إذ لا يخلفهم عليها إلا من هو أشد منهم اختلاطاً وأكثرُ فساداً، وهكذا يتسلسل الأمر حتى تستبهِم العربية فلا تبِين - وهي أفصح اللغات- إلا بضرب من إشارة الآثار، وتنزل منزلة هذا (الهيروغليف) الذي قبره المصريون في الأحجارِ وأحيَته هذه الأحجار. وذلك، معنى من أبين معاني الإعجاز، إذ لا تجده اتفق في لغة من لغات الأرض غير العربية، وهو لم يتفق لها إلا بالقرآن، ولقد كان أسلوبه البياني الذي جمع له العرب هو الذي اقتضى ما أحدثه العلماء بعد ذلك من تتبع اللغات وتدوينها ورواية شواهدها، والتحفُلِ لها؛ فكان صنيعهم صلة بين اللغة وبين العلوم التي أفرغت عليها من بعد، لأن لغة من اللغات لا تحيا ولا تموت إلا بحسب اتصالها بمادة العلم الذي به حياة أهلها وموتهم، وهي لا يلبسها العلم إلا إذا كانت قشيبة محكمة، لا تضيق عن أنواعه وفروعه ولا يخلقها الاستعمال.وإنما شباب هذه الحياة اللغوية أن تكون اللغة لينة شديدة كما يكون كمال الإنسان بقوة الخلق والخلق: وهذا وجه لو لم يقمها عليه القرآن لما استقامت أبداً، ولا وقفت على طريقه، ولا تلاقى فيه آخرها باولها، لما أومأنا إليه. ويبقى وجه آخر من تأثير القرآن في اللغة، وهو إقامة أدائها على الوجه الذي نطقوا به، وتيسير ذلك لأهلها في كل عصر، وان ضعفت الأصول واضطربت الفروع، بحيث لولا هذا الكتاب الكريم لما وجد على الأرض أسود ولا أحمر يعرف اليوم ولا قبل اليوم كيف كانت تنطق العرب بألسنتها وكيف تقيم أحرفها وتحقق مخارجها. وهذا أمر يكون في ذهابه ذهاب البيان العربي جملتِه أو عامته، لأن مبناه على أجراس الحروف واتساقها، ومداره على الوجه الذي تؤدى به الألفاظ، وأنت قد ترى الضعفاء الذين لا يحكِمون منطقَهم وما يصنعون بالأساليب المدمَجة والفقر المتوثقة إذا هم تعاطوها فنطقوا بها، حتى ليصير معهم أجود الكلام في جزالته وقوة أسرِه وصلابة معجمه إلى الفسولة والضعفِ، وإلى البرد والغثاثة، كأنما يموت في ألسنتهم موتاً لا رحمة فيه. لا جَرَم أن اللغة التي يذهب منها ذلك لا ينطق بها إلا على الحكاية السقيمة، ولا جرم أن بعض السقم يدفع إلى بعضه، وأن جملة ذلك تفضي إلى الموت.

الجنسيَّة العربية في القرآن

القرآن تنزلَ من العرب منزلة الفطرة اللغوية التي يساهم فيها كل عربي بمقدار ما تهيأ له من أسبابها الطبيعية، إذ كان بما احتواه من الأساليب، وما تناوله من أصول الكمال اللغوي، وما دار عليه من وجوه الوضع البياني - قد هَتَك الحوائل ومحا الفرق التي تبين قرائح العرب اللغوية بعضها من بعض، فاجتمعت منه على الكمال الذي كانت تخيله ولا تألو عما يدنيها إليه معالجة واكتساباً، ولو أنهم تمالأوا طوالَ الدهر على أن يهذبوا من لغتهم ليبلغوا بها مبلغ الكمال الوضعي، على النحو الذي جاء به القرآن، لما ازدادوا إلا تعادياً في الرأي، وتباعداً عما يجنحون إليه إذ تنزع كل فطرة إلى منزعها في كل قبيل، فيزيد الناقص منهم نقصاً فطرياً وهو يحسبه كمالاً. تلك سياسة هذا القرآن: جمع العرب لمذهب الأقدار وتصاريف التاريخ. رأى ألسنتهم تقود أرواحهم، فقادهم من ألسنتهم وبذلك نزل منهم منزلة الفطرة الغالبة التي تستبد بالتكوين العقلي في كل أمة. فتجعل الأمة كأنما تحمل من هذا العقل مفتاحَ الباب الذي تلج منه إلى مستقبلها. ولعمرك ما العرب وما غير العرب من الشعوب البادية إلا بطونهم، حتى لأحسبهم إذا اجتمعوا كانوا معدة الأرض. وكان أهل السَّرف في فنون الملاذ من الحضريين أمعاءها. وما أظن مرجع ذلك إلى غير القرآن، بل أنا مستبصر في صحة هذا المعنى، مستيقن أنه مذهب التعليل إلى الحقيقة بعينها؛ لأن القرآن هو صفي تلك الطباع، وصقل جوانب الروح العربية، حتى صارت المعاني الإلهية تتراءى فيها وكأنها عن معاينة. فكأنما كان العرب يقطعون الأرض في فتوحهم ليبلغوا طرفاً من أطراف السماء فينفذوا إلى ما وعدهم الله ويتصلوا بما أعد لهم. القرآن الكريم، فهو قد سفه أحلام العرب، وخلع آلهتهم، وقمع طغيانهم، واشتد عليهم بالله محضاً بعد اللين ممزوجاً، حتى جعلت وإؤهم كأنما ترقرق في بعض آياته، ثم لم يهدأ عنهم، ردد ذلك وكرره، وعمهم به، وأرسله في كل وجه، وقرع أنوفهم، وهاج منهم حمية الجاهل: وجاراهم في مضمار المخاطرة، وإلى حد المقارعة على عزة العشيرة وكثرة الحصى، وهم الذين كانت لهم كل هتفة كأن الأرواح هواة في صوتها، فلا يهتف بها حتى تنهض الأجسام لموتها، تسيرُ على الأرض بالرجال، حتى تطير إلى السماء بالآجال، ثم لم يمنعهم ذلك وما إلى ذلك أن ينقادوا ثم ينقادوا! . فالقرآن الكريم بتمكنه

من فطرة العرب على وجهه المعجز، قد نزل منهم منزلةَ الزمان في عمله وآثاره، لأن الذي أنزله بعلمه وقدره بحكمته إنما هو خالقُ الزمن نفسه، فهدم في نفوس العرب، وكان هدمه بناء جديداً جعل الأمة نفسها قائمة على أطلال نفسها، وبذلك أحكم عمل الوراثة الذي تعمله في الغرائز والطباع، إذ تبني بالهدم، وتقيم التاريخ من أنقاض التاريخ، وهذا هو الفرق بين العمل الإنساني والعمل الإلهي. وبين شيء يسمى ممكناً وشيء يسمى معجزاً.لا تزال تطيف بالرؤوس. ولقد كان من إعجاز القرآن أن يجمع هؤلاء الذين قطعوا الدهر بالتقاطع على صفة من الجنسية لا عصبية فيها إلا عصبية الروح، إذ أخذهم بالفطرة حتى ألف بين قلوبهم، وساوى بين نفوسهم، وأجرأهم على المعدلة في أمورهم، فجعل منهم أمة تسع الأمم بوجهها كيف أقبلت، لأنها لا توجهه إلا لله، فكان بينها وبين الله كل ما تحت السماء. ومن هذا المعنى نشأت الجنسية العربية، فإن القرآن بدأ كما علمت بالتإليف بين مذاهب الفطرة اللغوية في الألسنة، ثم ألَف بين القلوب على مذهب واحد، وفرغ من أمر العرب فجعلهم سبيلاً إلى التإليف بين ألسنة الأمم ومذاهب قلوبها، على تلك الطريقة الحكيمة التي لا يأتي علم التربية في الأمم بأبدع منها. فبقاء القرآن على وجهه العربي، مما يجعل المسلمين جميعاً على اختلاف ألوانهم، من الأسود، إلى الأحمر، كأنهم في الاعتبار الاجتماعي وفي اعتبار أنفسهم جسمٌ واحد ينطق في لغة . التاريخ بلسان واحد، فمن ثم يكون كل مذهب من مذاهب الجنسية الوطنية فيهم قد زال عن حيّزه، وانتفى من صفته الطبيعية، لأن الجنسية الطبيعية التي تقدر بها فروض الاجتماع ونوافلها إنما هي في الحقيقة لون القلب لا سَحْنَةَ الوجه. وإن من أعجب ما يروعنا من أمر الجنسية العربية في القرآن: أنها تأبى إلا أن تحفظ على: أهلها تلك الصفات العربية؛ من الأنفة والعزة والصوت والغَلَب: وما يكون من هذا الباعث الاجتماعي الذي لا يزال يفتح للشعوب عن مقاصير الأرض. كما أنها تستبقي طاعة المغلوبين الذين أعطوا للفاتحين عن أيديهم، وانطرحوا في غمرهم وكانوا أهل ذمتهم: لانتحالهم العربية طوعاً أو كرهاً، ثم بقائها في ألسنتهم على نسبة بينة من الفصيح مهما ركت ومهما رذلت، ولولا القرآن وأنه على وجه واحد وهيئة ثابتة، ما بقيت العرب، ولا تبينت النسبة بين فروعها العامية، بل لذهب كل فرع بما أحدث من الألفاظ، وما استجد من ضروب العبارة وأساليبها، حتى يتسلل كل قوم من هذه الجنسية إن كانوا من أهلها أو من أهل ذمتها، ثم لا تستحكم

لهم بعد ذلك ناحية من الائتلاف ولا يستمر لهم سبب من الارتباط. ومَن للأمم بمثل هذا الاستعمار اللغوي الذي لم يتهيأ إلا للقرآن، وهو بعد زمام السياسة مهما جمحت في الأرض. ولقد ترى اليوم هذه التوراة وهذه الأناجيل وما يقرؤها بلغتها الأصلية إلا شرذمة قليلة من إليهود وغير إليهود الذين يعيشون على أحلام الذاكرة. فالعربية قد وصلها القرآن بالعقل والشعور النفسي، حتى صارت جنسية فلو جُنَّ كل أهلها. وسخوا بعقولهم على ما زَينت لهم أنفسهم من الإلحاد والسياسة كجنون بعض فتياننا. . لحفظها الشعور النفسي وحده، وهو مادةُ العقل بل مادة الحياة، وقد يكون العقل في يد صاحبه يضمن ويسخو، ولكن ذلك النوع من الشعور في يد الله، وهذا من تأويل قوله سبحانه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .ولولا هذا الشعور الذي أومأنا إليه لدونت العامية في أقطار العربية زمناً بعد زمن، ولخرجت بها الكتب، ولكان من جهلة الملوك والأمراء وأشباههم ممن تتابعوا في التاريخ العربي.

آدابُ القرآن :

آداب هذا الكتاب الكريم إنما هي آداب الإنسانية المحضة في هذا النوع أنى وجدت وحيث تكون. فإنها بعد آداب الفطرة التي لا تتغير في هذا الخلق، على ما بين طوائفه من التباين، وعلى الضروب المختلفة من أساب هذا التباين وعلله، مما ترجع جملته إلى تنوع الصور النفسية العامة التي تنشأ من الأفكار والعادات وما إليها من الأجزاء التاريخية التي تجتمع منها الأمم، وتنشأ منها قواعد الحكم وضوابط الاجتماع ونحوها من الكليات التي يتألف تاريخ الأمة من آثارها. وانظر ما عسى أن يكون موقعُ الشريعة من نفس ترى أن كل هذه الآداب التي توجب لها المنافع على الناس مجتمعين لا توجب عليها للناس منفعة. من أجل ذلك كانت آداب القرآن ترمي في جملتها إلى تأسيس الخُلق الإنساني المحض الذي لا يضعفُ معه الضعيفُ دون ما يجب له، ولا يقوى معه القوي فوق ما يجب له، والذي يجعل الأدبَ عقيدة لا فكراً إذ تبعث عليه البواعث من جانب الروح، ويجعل وازعَ كل امرئ في داخله، فيكون هو الحاكم والمحكوم، ويرى عينَ الله لا تنفك ناظرة إليه من ضميره.وأنت إذا تدبرتَ هذه القوة الروحية في آداب القرآن الكريم، واعتبرتها بمأتاها في الطباع، ومَساغها إلى النفوس، واشتمالها على سنن الفطرة الإنسانية،

فإنك تتبين من جملتها تفصيلَ تلك المعجزة الاجتماعية التي نهض بها أولئك الجفاة من العرب فنفضوا رمال الصحراء على أشعة الشمس في هذا الشرق كله، فحيثما استقرت منها ذرة وقع وراءها عربي! بل نفضوا أقدامهم على عروش الممالك، وهم كانوا بين داع للصنم وراع للغنم، وعالم على وهم، وجاهل على فهم، وبين شيطان كأنه لخبثه مادة لوجود الشيطان، وإنسان كأنه لشره آلة لفناء الإنسان، فما زالوا يبسطون تلك الجزيرة حتى بلغت أضعافها، وما زالوا بالدنيا حتى جمعوا إليهم أطرافها. وكانت النفوس مستجيبة، على أنه جيل ناقض طباعه، وخالف عاداته، وخرج مما ألف، وخلق على الكبر خلقاً جديداً، ومع ذلك فإن الفلسفة كلها والتجارب جميعاً، والعلوم قاطبة، تنشئ جيلاً من الناس ولا جماعة من الجيل ولا فئة من الجماعة كالذي أخرجته آداب القرآن وأخلاقه من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في علو النفس، وصفاء الطبع، ورقة الجانب، وبسط الجناح، ورجاحة اليقين، وتمكن الإيمان، إلى سلامة القلب، وانفساح الصدر، ونقاء الدخل وانطواء الضمير على أطهر ما عسى أن يكون الإنسان من طهارة الخلق، ثم العفة في مذاهب الفضيلة، من حسن العصمة، وشدة الأمانة، وإقامة العدل، والذلة للحق، وهلم إلى أن تستوفي الباب كله. وإنما انفردت آدابُ القرآن الكريم في ذلك الجيل الذي عرفت من خبره بالأسلوب الذي تناولها فيه، مما يشبه في صفة البيان أن يكون وحياً يوحى إلى كل من يفهمه ويقف عنده متثبتاً بحال من الرأي، وفحص من النظر وبإدمان التأمل، وأخذ النفس بالتردد في أضيق ما بين الحرف والحرف من المسافة المعنى لدقة النظم وإبراع التركيب، إلى ما يبهر الفكر ويملأ الصدر عجباً، وهذا تفسير ما جاء في الأثر من أن " من قرأه فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يُوحى إليه،. ثم تأمل كيف أقام هذا الأساس الأدبي العظيم، فجعل أكرم الناس المتساوين جميعاً في الحالتين الفردية والاجتماعية، هو أتقاهم، أي أعظمهم خلقاً، لا أوفرهم مالاً، ولا أحسنهم حالاً، ولا أكثرهم رجالاً، اعتبر القرآن أن خير الأمم على الإطلاق إنما هي الأمة التي تتبسط في مناحي الاجتماع على هذا (الخلق الثابت) ، فإن مرجع التقوى في مظاهرها الاجتماعية إلى شيئين: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ وهما المبدأ والغاية لكل قوانين الآداب والاجتماع، ثم مرجعهما في حقيقة نفسها إلى شيء واحد: وهو الإيمان بالله؛ فالأمة التي تكون لأفرادها فضيلة التقوى، تكون لها من هذه الفضيلة

صفات اجتماعية مختلفة يؤدي مجموعها إلى صفة تاريخية واحدة، وهي أنها خير أمة، على هذا جاء قوله تعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (347) فتأمَّل كيف قَدمَ وأخر، فإنك لا تجد هذا النسق إلا ترتيباً لمنازل الفضيلة الاجتماعية الكبرى تجعل الأمة في نفسها خير أمة، وبالحري لا تجد هذا الترتيب إلا نسقاً في وصف الآداب الإسلامية التي جعلت أهلها الأولين حين اتبعوا وأخذوا بها خير أمة في التاريخ، بشهادة التاريخ نفسه. وإنما أركان الفضيلة الاجتماعية الكبرى في ثلاث. كلها حرية واستقلال:

استقلال الإرادة وقوتها وهذا هو الذي يكون عنه (الأمر بالمعروف) لا يكون بدونه ألبتة.

استقلال الرأي وحريته، ويكون منه (النهي عن المنكر) ولا يمكن أن يكون بغيره.

استقلال النفس من أسر العادات والأوهام، بالنظر والفكر في مصنوعات الله، ولا يكون الإيمان إيماناً على الحقيقة بدونه ثم هذا الإيمان هو الذي يسند الركنين المذكورين آنفاً ويشذهما ويقيم وزنهما الاجتماعي، فيبعث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بثقة إلهية لا يعترضها شيء من عوارض الاجتماع التي تعتري الناسَ من ضعف الطباع الإنسانية، كالجبن والنفاق، و... فإن كل هذه الصفات ليست من الإيمان بالله. وما فرط المسلمون في آداب هذا القرآن الكريم إلا منذ فرطوا في لغته، فأصبحوا لا يفهمون كلمَه، ولا يدركون حكمَه، ولا ينزعون أخلاقه وشيَمه، وصاروا إلى ما هم عليه من عربية كانتشراً من العجمة الخالصة واللكنة الممزوجة، فلا يقرون هذا الكتاب إلا أحرفاً. ولا ينطقون إلا أصواتاً، وتراهم يرعونه آذانهم وهم بعدُ لا يتناولون معاني كلام الله إلا من كلام الناس

وقِوام الإنسانية في رأينا بثلاث، هي جملة ما ترمي إليه آدابُ القرآن: الأولى: تعيين النسبة الصحيحة في المساواة بين الإنسان والإنسان، حتى لا تكون القوة والضعف والسيادة والتعبد ونحوها من عوارض الاجتماع فاصلةً فاصلاً طبيعياً بين فردٍ وفردٍ، وبين أُمة

(347) ال عمران 110

وأُخرى، فتقسم هذا الجنس أنواعاً متباينة بطبيعتها، ثم ينشق النوع إلى أجناس، ثم كل جنس بعد ذلك إلى أنواع، ويعمل الزمن عمله في تمكين هذه الطباع بالوراثة، وفي توكيدها بما يستحدثه نظام الاجتماع في القبائل والشعوب، الثانية: حياطة هذه النسبة الإنسانية فيما يُبتلى به الإنسان من الخير والشر فتنة، حتى لا يَحيف القوي ولا يَستيئس الضعيف، ولتنصرف رغائب الأمم على تباينها في السياسة إلى جهة من هذه النسبة المعينة، فلا تكون وقائع السياسة وأحداث الاجتماع، وما إليها من الهزَاهزِ، كالحروب ونحوها، إلا عملاً إنسانياً يُبتَغى به دفعُ اعتداء وإقرارُ حق ورد باطل وتقويم زيغ الثالثة: حد هذه النسبة في الإنسان بالقياس إلى القوة الأزلية، حتى يتحقق معنى المساواة فيها، فإن كل ما هو أدنى فهو سواة في النسبة إلى ما هو أعلى وإن اختلف مع ذلك في نفسه وبان بعضه من بعض. وأنت إذا تدبرت آداب القرآن الكريم حيث أصبتها منه، رأيتها قائمة على تلك الثلاث جميعاً. فإن روح هذه الآداب كلها في ثلاث كلمات من قوله تعالى:

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (348) فليس في الناس اختلاف كاختلافهم في كل ما يرد إلى تعيين حقيقة النسبة في المساواة بين الإنسان والإنسان، وما الظلم والتعسفُ والمكابرة والمخاتلةُ ولا كل الرذائل الاجتماعية، إلا مظاهر متعددة لهذا الاختلاف بعينه، ولا القوانينُ والعادات والشرائع وكل الفضائل الاجتماعية، إلا وسائل مختلفة لتبين هذا الاختلافَ على حدود بينة من الحق.

القرآن والعلوم

والقرآن من حيث تأثيرُه في العقل الإنساني، وهو معجزة التاريخ العربي خاصة، ثم هو بآثاره النامية معجزة أصلية في تاريخ العلم كله على بَسيط هذه الأرض فإنما كان القرآن أصلَ النهضة الإسلامية وهذه كانت على التحقيق هي الوسيلةُ في استبقاء علوم الأولين وتهذيبها وتصفيتها، وإطلاق العقل فيما شاء أن يرتعَ منها، وأخذِه على ذلك بالبحث والنظرِ والاستدلالِ والاستنباط، وتوفير مادة الرَّوية عليه بما كانَ سبباً في طلب العلم

(348) النحل 64

للعمل، ومزاولة هذا لذاك، إلى صفات أخرى ليس هذا موضع بَسطها - وإن لها لموضعاً متى انتهينا إلى بابها من الكتاب - وهذا كله كان أساس التاريخ العلمي في أوروبا وقد أومأنا إلى بدء تاريخ التدوين العلمي وبعض أسبابه في باب الرواية من الجزء الأول من تاريخ آداب العرب، فنقتصر هنا على موجز من أسباب النشأة العلمية).ودعنا(نكشفَ لك عن معنى عجيب في هذا الكتاب الكريم، فهو قد نزل في البادية على نبي أُمّي وقوم أميين لم يكن لهم إلا ألسنتُهم وقلوبهم، وكانت فنونُ القول التي يذهبون فيها مذاهبهم ويتواردون عليها، لا تجاوز ضروباً من الصفات، وأنواعاً من الحكم، وطائفة من الأخبار والأنساب، وقليلاً مما يجري هذا المجرى، فلما نزل القرآن بمعانيه الرائعة التي افتن بها في غير مذاهبهم، ونزع منها إلى غير فنونهم، لم يقفوا على ما أريد به من ذلك، بل حملوه على ظاهره وأخذوا منه حُكم زمانهم، وكان لهم في بلاغته المعجزة مَقنَع، وما درى عربي واحد من أولئك لِمَ جعل الله في كتابه هذه المعاني المختلفة، وهذه الفنونَ المتعددة، التي يهيجُ بعضُها النظر، ويشحذ بعضها الفكر، ويمكن بعضها اليقين، ويبعث بعضها على الاستقصاء. وهي لم تكن تلتئم على ألسنتهم من قبل؛ بيدَ أن الزمان قد كشف بعدهم عن هذا المعنى، وجاء به دليلاً بيناً منه على أن القرآن كتاب الدهر كله؛ وكم للدهر من أدلة على هذه الحقيقة ما تبرح قائمة؛ فعلمنا من صَنيع العلماء أن القرآن نزل بتلك المعاني، ليخرج للأمة من كل معنى علماً برأسِه، ثم يعمل الزمن عمله فتخرج الأمة من كل علم فروعاً، ومن كل فرع فنوناً إلى ما يستوفي في هذا الباب على الوجه الذي انتهت إليه العلوم في الحضارة الإسلامية؛ وكان سبباً في هذه النشأة الحديثة من بعد أن استدار الزمان وذهبت الدنيا مُستدبرة وأنشأ الله القرونَ والأجيالَ لتبلغ هذه الحادثة أجلَها ويتناهى بها القضاء وإن من شيء إلا عند الله خزائنه ولقد كانت النهضة العلمية في زمن بني أمية قائمة بأكثر العلوم الإسلامية التي مرَّت الإشارة إليها، حتى امتهد أبو جعفر المنصور؛ ثم الرشيد من بعده للنهضة العباسية الكبرى التي نشات من جمع كلمة أهل الفقه والحديث بعد انشقاقهم زمناً وافتراق الكلمة بينهم - ومن إقبال الناس على الطلب والاستيعاب؛ فكان ذلك تهيئة لانشقاق علوم الفلسفة والكلام وما إليها وظهور أهلها وانحياز السنة عنها جانباً، ثم اجتماعها على مناظرتها .

سرائر القرآن

بعد أن صدرت الطبعة الأولى من كتابنا هذا خرج في الآستانة القديمة. . كتاب جليل للقائد العظيم والعالم الرياضي الفلكي المشهور الغازي أحمد مختار باشا رحمه الله، أسماه (سرائر القرآن) وبناه على سبعين آية من كتاب الله تعالى فسَّرها بآخر ما انتهى إليه العلم الحديث في الطبيعة والفلك، فإذا هي في القرآن منْطَبق السماء عن نفسها، لا يتكذَّبُ ولا يَزيغ ولا يلتوي، وإذا هي تثبت أن هذا الكتاب الكريم سبقَ العقلَ الإنساني ومخترعاته بأربعة عشر قرناً إلى زمننا، وما ذاك إلا فصل من الدهر، وستعقبه فصول بعد فصول. قال الغازي في مقدمة كتابه: " وفي القرآن غير ما يكفل للهيئة الاجتماعية سعادتها وسلامتها في معاشها ومعادها مما حواه من الدساتير الأخلاقية والقضائية والإدارية والسياسية وعظةِ الأمثال والقصص - فيه إشارات وآيات بينات في مسائل ما برحت العلوم الطبيعية تحاول الكشف عن كنهها منذ عصور، ولا سيما في علم التكوين والتخريب (القيامة) الذي دل الآن بنظريات الإخصائيين من علماء الفلك ومباحثهم ومشاهداتهم في طور التقدم والارتقاء وإنك لا تكاد تقلب من المصحف الشريف بضع صفحات حتى تجد آية في أسرار الكائنات وأحوال السماء منظومة في نسَقها بمناسبة من أبدع المناسبات. كتابُ " سرائر القرآن " ثلاثة فصول: الأول في كيفية تكوين العالم ووجود الحياة. والثاني في يوم القيامة أو خاتمة عمر الأرض. والثالث في المباحث والآيات القرآنية المتعلقة بإعادة الخلق وكل ذلك مطبق على نظريات وآراء الحكماء الأولين والآخرين إلى عصرنا، ثم ما يؤيد حقيقة ما انتهوا إليه من آيات القرآن الكريم. وكان الغازي يفكر في هذا الكتاب خمسة وعشرين عاماً فرحمة الله عليه كفاء ما أحسن إلى أمته.

تفسير آية

وقد رأينا أن نسوق هنا تفسير آية من القرآن الكريم أصبناه في بعض كتب الحكيم العلامة داود الأنطاكي ، فُتح عليه به وهو في أضعف الأزمنة وأشدها انحطاطاً وفقراً من الوسائل العلمية. ولا تنسَ أن الآية أنزلت على نبي أُمّي في قوم لا يعرفون كثيراً ولا قليلاً من علم التشريح أو علم التكوين. أما الآية فهي قوله تعالى:(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ

مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (349). (وفي هذه الآية دقائق: (الأولى) عبر في الأول ب (خلقنا) ، لصدقه على الاختراع، وفي الثاني ب (جعلنا) لصدقه على تحويل المادة، ثم عبر في الثالثة وما بعدها كالأول لأنه أيضاً إيجاد ما لم يسبق، (الثانية) مطابقة هذه المراتب لأيام الكواكب المذكورة ومقتضياتها للمناسبة الظاهرة وحكمة الربط الواقع بين العوالم، (الثالثة) قوله (فَكَسَوْنَا) وهي إشارة إلى أن اللحم ليس من أصل الخلقة اللازمة للصورة، بل كالثياب المتخذة للزينة والجمال، وأن الاعتماد على الأعضاء والنفس خاصة، (الرابعة) قوله تعالى: (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ) سماه بعد نفخ الروح إنشاء لأنه حينئذ قد تحقق بالصورة الجامعة، (الخامسة) قوله (خَلْقًا) ولم يقل إنساناً ولا آدمياً ولا بشراً لأن النظر فيه حينئذ لما سيُفاضُ عليه من خلع الأسرار الإلهية، فقد آن خروجه من السجن وإلباسه المواهب فقد يتخلق بالملكيات فيكون خلقاً ملكياً قدسياً، أو بالبهيمية فيكون كذلك، أو بالمجرية إلى غير ذلك، فلذلك أبهمَ الأمرَ وأحاله على اختياره وأمر بتنزيهه على هذا الأمر الذي لا يشاركه فيه غيره. وفي الآية من العجائب ما لا يمكن بسطه هنا، وكذلك سائر آيات هذا الكتاب الأقدس وأنت لو عرضت ألفاظَ هذه الآية على ما انتهى إليه علماء تكوين الأجنة وعلماء التشريح وعلماء الوراثة النفسية، لرأيت فيها دقائق علومهم، كان هذه الألفاظ إنما خرجت من هذه العلوم نفسها، وكأن كل علم وضع في الآية كلمته الصادقة، فلا تملك بعد هذا أن تجد ختام الآية إلا ما ختمت هي به من هذا التسبيح العظيم (فَتَبَارَكَ اللَّهُ)

الفصل الثاني : إعجاز القرآن

الإعجاز شيئان: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه، فكأن العالم كله في العجز إنسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت، فيصير من الأمر المعجزِ إلى ما يشبه في الرأي مقابلة أطول الناس عمراً بالدهر على مداه كله. فإن المعمر دهرَ صغير، وإن لكليهما مدة في العمر هي من جنس الأخرى، غير أن واحدة منهما قد

(349) المؤمنون 12،13،14

استغرقت الثانيةَ، فإن شاركتها الصغرى إلى حد فما عسى أن يشركهما فيما بقي.

الأقوال في الإعجاز

كان أول ما ظهر من الكلام في القرآن، مقالة تُعزى إلى رجل يهودي يسمى لَبيد بن الأعصم فكان يقول: إن التوراة مخلوقة، فالقرآن كذلك مخلوق، ثم أخذها عنه طالوت ابن أخته وأشاعها، فقال بها بَنَان بن سمعان الذي إليه تُحْسب البنانية، وتلقاها عنه الجعْد بن درهم (مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية) وكان زنديقاً فاحش الرأي واللسان، وهو أول من صرَّح بالإنكار على القرآن والرد عليه، وجَحَدَ أشياء مما فيه. وأضاف إلى القول بخلقه أن فصاحته غير معجزة.

أما الجاحظ فإن رأيه في الإعجاز كرأي أهل العربية، وهو أن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها، وله في ذلك أقوال نشير إلى بعضها في موضعه غير أن الرجل كثير الاضطراب، فإن هؤلاء المتكلمين كأنما كانوا من عصرهم في مُنخُل. ولذلك لم يسلم هو أيضاً من القول بالصرفة، وإن كان قد أخفاها وأومأ إليها عن عُرض، فقد سرد في موضع من كتاب (الحيوان) طائفة من أنواع العجز، وردها في العلة إلى أن الله صرف أوهام الناس عنها ورفع ذلك القصد من صدورهم، ثم عد منها: " ما رَفعَ من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة لقرآنه بعد أن تحداهم الرسول بنُظمه "(350) وبعض الفِرَق، فإنهم يقولون: إن وجه الإعجاز في القرآن هو ما اشتمل عليه من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم، في مطالعه ومقاطعه وفواصله، أي فكأنه بدعٌ من ترتيب الكلام لا أكثر. وبعضهم يقول: إن وجه الإعجاز في سلامة ألفاظه مما يَشين اللفظَ: كالتعقيد والاستكراه ونحوهما مما عرفه علماء البيان، وهو رأي سخيف يدل على أن القائلين به لم يُلابسوا صناعة المعاني. وآخرون يقولون: بل ذلك في خُلُوه من التناقض واشتماله على المعاني الدقيقة. وجماعة يذهبون إلى أن الإعجاز مجتمع من بعض الوجوه التي ذكرناها كثرة أو قلة، وهذا الرأي حسن في ذاته، لا لأنه الصواب، ولكن لأنه يدل على أن كل وجه من تلك الوجوه ليس في نفسه الوجه المتقبَّل. أما الرأي المشهور في الإعجاز البياني الذي ذهب إليه عبد القادر الجُرجاني صاحب (دلائل الإعجاز) فكثير من

(350) تاريخ اداب العرب97/2

المتوسمين بالأدب يظنون أنه أول من صنف فيه ووضع من أجله كتابه المعروف، وذلك وهم، فإن أول من جوَّد الكلام في هذا المذهب وصنف فيه، أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي ثم أبو عيسى الرمّاني ثم عبد القادر، وهذا الرأي كان هو السبب في وضع علم البيان، كما نبسطه في موضعه من تاريخ آداب العرب إن شاء الله.

أما الذين يقولون إن القرآن غيرُ معجز، لا بقوة القدَر ولا بضعف القدرة، فقد ذكرنا من أمرهم طرفاً، وأشدهم بعد الجعد بن درهم: عيسى بنُ صَبيح المُزدارُ وأصحابه المزدارية، وكان عيسى هذا تلميذاً لبِشر بن المعتمر - من أكبر شيوخ المعتزلة وأفراد بلغائهم - ثم كان مبتلى بجنون التكفير، حتى سأله إبراهيم بن السِّندي مرة عن أهل الأرض جميعاً، فكفرهم، فأقبل عليه وقال: الجنة التي عَرضها السموات والأرض لا يدخلها إلا أنت، وثلاثة وافقوك ! ومع هذا فكان الرجل من الزهد والورَع بمكانٍ حتى لقبوه راهب المعتزلة. وقد زعم أن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحةً ونظماً وبلاغة؛ وعلى ذلك أصحابه، وهو جنون بلا ريب ليس أقبح منه إلا جنون الحسينية أصحاب الحسين بن القاسم العناني الذين يزعمون أن كتبهم وكلامهم أبلغ وأهدى وأبين من القرآن.

حقيقة الإعجاز

إن الذي ظهر لنا بعد كل ذلك واستقر معنا، أن القرآن معجز بالمعنى الذي يُفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حين ينفى الإمكان بالعجز عن غير الممكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً وليس إلى ذلك ماتى ولا جهة؛ وإنَّما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية، يشاركها في إعجاز الصنعة وهيئة الوضع، وينفرد عنها بان له مادة من الألفاظ كأنها مفرغة إفراغاً من ذوْب تلك المواد كلها. وما نظنه إلا الصورة الروحية للإنسان، إذا كان الإنسان في تركيبه هو الصورة آلروحية للعالم كله. فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب، ومعجز في أثره الإنساني؛ ومعجز كذلك في حقائقه؛ وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء؛ فهي باقية ما بقيت ولا بد لنا قبل الترسل في بيان ذلك الإعجاز، أن نَوطِئ بنبذ من الكلام في الحالة اللغوية التي كان عليها العربُ عندما نزل القرآن، فسنقلبُ من كِتاب الدهر ثلاثَ عشرةَ صفحة تحتوي ثلاثةَ عشر قرناً؛ لنتصل بذلك العهد حتى نُخبر عنه كأننا من أهله وكأنه رأيُ العين. وكل من يبحث في

تاريخ العرب وآدابهم، وينفذ إلى ذلك من حيث تنفذ به الفطنة وتتأتى حكمة الأشياء فإنه يرى كل ما سبق على القرآن - من أمر الكلام العربي وتاريخه - إنما كان توطيداً له وتهيئة لظهوره وتناهياً إليه ودُربة لإصلاحهم به وليس في الأرض أمة كانت تربيتها لغوية غيرَ أهل هذه الجزيرة. وأي شيء في تاريخ الأمم أعجب من نشأة لغوية تنتهي بمعجزة لغوية، ثم يكون الدين والعلم والسياسة وسائر مقومات الأمه مما تنطوي عليه هذه المعجزة، وتأتي به على أكمل وجوهه وأحسنها، وتخرج به للدهر خير أمة كان عملها في الأمم صورة أخرى من تلك المعجزة. فلو أن هذا القرآن غير فصيح، أو كانت فصاحته غير معجزة في أساليبها التي ألقيت إليهم، لما نال منهم على الدهر منالاً، ولخلا منه موضعه الذي هو فيه، ثم لكانت سبيله بينهم سبيل القصائد والخطب والأقاصيص، وهو لم يخرج عن كونه في الجملة كأنه موجود فيهم بأكثر معانيه، قبل أن يوجد بألفاظه وأساليبه، ثم لنقضوه كلمة كلمة، وآية آية، دون أن تتخاذل أرواحهم، أو تتراجع طباعهم، ولكان لهم وله شأن غير ما عرف، ولكن الله بالغ أمره، وكان أمر الله قدَراً مقدوراً.

التحدي والمعارضة

كان العرب قد بالغوا لعهد القرآن مبلغهم من تهذيب اللغة ومن كمال الفطرة، ومن دقة الحس البياني، حتى أوشكوا أن يصيروا في هذا المعنى قبيلاً واحداً باجتماعهم على بلاغة الكلمة وفصاحة المنطق فجاء القرآن الكريم أفصح كلام وأبلغَه لفظاً وأسلوباً ومعنى، ليجد السبيل إلى امتلاك الوحدة العربيـة التي كانت معقودة بالألسنة يومئذ وهو متى امتلكها استطاع أن يصرفها، وأن يحدث منها فمن ثم لم تقم للعرب قائمة بعد أن أعجزهم القرآنُ من جهة الفصاحة التي هي أكبر أمرهم، ومن جهة الكلام الذي هو سيدُ عملهم، بل تصدعوا عنه وهم أهلُ البسالة والبأس وهم مَساعير الحروب ومغاويرها، وهم كالحصى عدداً وكثرة، وليس لرسول الله جمتٍ إلا نفسهُ، وإلا نفرٌ قليل معه، لم يستجيبوا له ولم يبذلوا مفادَتهم ونصرَهم إلا بعد أن سمعوا القرآن ورأوا منه ما استهواهم وكاثرَهم وغلبهم على أنفسهم، فكانت الكلمة منه تقع من أحدهم وإن لها ما يكون للخطبة الطويلة والقصيدة العجيبة في قبيلة بأجمعها. ونزل القرآن على الوجه الذي بيناه، فظنه العرب أول وهلة من كلام النبي – صلى الله عليه وسلم - وروحوا عن قلوبهم بانتظار ما أمَّلوا أن يَطلِعوا

عليه في آياته البينات، كما يعتري الطبع الإنساني من الفترة بعد الاستمرار، والتراجع بعد الاستقرار، ومن اضطراب القوة البيانية بعد إمعانها، وجماحِها الذي لا بد منه بعد إذعانها، ثم ما هو في طبع كل بليغ من الاختلاف في درجات البلاغة علوا ونزولاً وقد كان من عادتهم أن يتحدى بعضهم بعضاً في المساجلة والمقارضة بالقَصيد والخطب، ثقةَ منهم بقوة الطبع، ولأن ذلك مذهب من مفاخرهم، يستَعلون به ويذيع لهم حسن الذكر وعلو الكلمة؛ وهم مجبولون عليه فطرة. ولهم فيه المواقف والمقامات في أسواقهم ومجامعهم، فتحداهم القرآن في آيات كثيرة أن يأتوا بمثله أو بعضه، وسلك إلى ذلك طريقاً كأنها قضية من قضايا المنطق التاريخي، فإن حكمة هذا التحدي وذكره في القرآن، إنما هي أن يشهد التاريخ في كل عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللدُّ والفصحاء اللسن، وهم كانوا في العهد الذي لم يكن للغتهم خير منه ولا خير منهم في الطبع والقوة، فكانوا مَظنةَ المعارضة والقدرة عليها. أما الطريقة التي سلكها إلى ذلك، فهي أن التحدي كان مقصوراً على طلب المعارضة بمثل القرآن، ثم بعشر سوَر مثله مفتريات لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة، وليس إلا النظم والأسلوب، وهم أهل الله ولن تضيق أساطيرهم وعلومهم أن تسعها عشر سور. . . ثم قرَن التحدي بالتأنيب والتقريع، ثم استفزَّهم بعد ذلك جملة واحدة كما ينفجُ الرَّمادُ الهامدُ، فقال :

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (351) .

أسلوب القرآن

وهذا الأسلوب فإنما هو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله، ليس من ذلك شيء إلا وهو معجز، وليس من هذا شيء يمكن أن يكون معجزاً وهو الذي قطع العرب دون المعارضة، واعتقلهم عن الكلام فيها، وضربهم بالحجة من أنفسهم وتركهم على ذلك يتلكأون. فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم باعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق.ليس في ذلك إعناتَ ولا معاياة، غير أنهم ورد عليهم من

(351) البقرة 23،24

طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته - ما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة وروعة مخوفة، وخوف تقشعر منه الجلود، حتى أحسُّوا بضعف الفطرة القوية، وتخلف الملكة المستحكمة؛ ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه، وأن هذا التركيب هو روح الفطرة اللغوية فيهم، وأنه لا سبيل إلى صرفه عن نفس أحد العرب أو اعتراض مساغه إلى هذه النفس، إذ هو وجه الكمال اللغوي الذي عرف أرواحهم واطلع على قلوبهم، بل هو السر الذي يفشي بينهم نفسَه، وإن كتموه، ويظهر على ألسنتهم ويتبين في وجوههم وينتهي إلى حيث ينتهي الشعور والحس، فليس للخلابة أو المؤاربة وجة في نقض تأثيره. وقد استيقن بلغاء العرب كل ذلك فاستيأسوا من حق المعارضة، إذ وجدوا من القرآن ما يغمر القوة ويحيل الطبع ويخاذل النفس مصادَمة لا حيلة ولا خدعة. معارضة السور القصار أشد على المولَّدين ومن في حكمهم من إرادة الطوال بالمعارضة وهذه الطوال، فكل آية منها في الاستحالة على المعارضة تقوم بما في السور القصار كلها، لتحقيق وجه النظم وأسرار التركيب واستفاضة ذلك وترادفها بما هو مقطعة للأمل، ومن تعلق الآية بما قبلها، وتسببها لما بعدها، وظهورها في جملة النسق، فأين يجولُ الرأي في هذا كله ومن أين يستطرد؟ وسبيل نظم القرآن في إعجازه سبيل هذه المعجزات المادية التي تجيء بها الصناعات، وكثيرة ما هي، إلا في شيء واحد وهو في القرآن سر الإعجاز إلى الأبد، وذلك أن معجزات الصناعة إنما هي مركبات قائمة من مفردات مادية، متى وقف امرؤ من الناس على سر تركيبها ووجه صنعتها فقد بَطلَ إعجازها بخلاف الكلام الذي هو صور فكرية لا بد من أوضاعها من التفاوت على حسب ما يكون من اختلاف الأمزجة والطباع وآثار العصور - ولا تجزئ فيها الصناعة وآلاتها - من صفاء الطبع ودقة الحس وسلامة الذوق ونحوها مما يرجع أكثره إلى الفطرة النفسية في أي مظاهرها. ويعد خروج القرآن من أساليب الناس كافة دليلاً على إعجازه، وعلى أنه ليس من كلام إنسان، بيد أننا لم نرَ أحداً كشف عن سر هذا المعنى، ولا ألمَّ بحقيقته، ولا أوضح الوجهَ الذي من أجله خالف أسلوب القرآن كل ما عرف من أساليب الناس ولم يشبه واحداً منها، ونحن نوجز القول فيه لأنه أصل من أصول الكلام في أساليب الإنشاء ولبسطه موضع سيأتيك في بابه إن شاء الله. يخلُص لنا أن القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه، لأنه ليس

وضعاً إنسانياً ألبتة، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد، ولا من الاختلاف فيه عند ذلك بد في طريقته ونسقه ومعانيه (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) ومعنى آخر وهو أننا نرى أسلوب القرآن من اللين والمطاوعة والمرونة في التأويل، بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التي تخرج بها طبائع العصور المختلفة، فهو يفسر في كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه، واختلاف وتمحيص، وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة، وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلوم، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل، وأثبتت العلوم الحديثة كثيراً من حقائقه التي كانت مغيبة وفي علم الله ما يكون من بعد.

نظمُ القرآن

كل بليغ يعرف ما هي البلاغة وكيف هي، إلا استشعار العجز عنها والوقوف من دونها. وإنَّما تلك الجهات صفات من نظم القرآن وطريقة تركيبه، فنحن الآن قائلون في سر الإعجاز الذي قامت عليه هذه الطريقة وانفرد به ذلك النظم؛ وهو سر لا ندعي أننا نكشفه أو نستخلصه أو ننتظم أسبابه، وإنما جهدنا أن نومئ إليه من ناحية ونعينَ بعض أوصافه من ناحية، فإن هذا القرآن هو ضمير الحياة العربية، وهو من اللغة كالروح الإلهية التي تستقر في مواهب الإنسان فتضمن لآثاره الخلود. والكلام بالطبع يتركب من ثلاثة حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجُمَل هي من الكلم.

وقد رأينا سر الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التي قامت به؛ فليس لنا بد في صفته من الكلام في ثلاثتها جميعاً. ونحن إنما نبحث في القرآن من جهة ما انفرد به في نفسه على وجه الإعجاز، لا من جهة ما يشركه فيه غيره على أي وجه من الوجوه وأنواعُ البلاغة مستفيضة في كل نظام سوِي وكل تإليف مونق، وكل سبك جيد، وما كان من الكلام بليغاً فإنه بها صار بليغاً، لمان كانت هي بعدُ في أكثر الكلام إلى تفاوت واختلاف. ومن أظهر الفروق بين أنواع البلاغة في القرآن، وبين هذه الأنواع في كلام البلغاء، أن نظم القرآن يقتضي كلَّ ما فيه منها اقتضاءاً طبيعياً بحيث يُبنى هو عليها لأنها في أصل تركيبه، ولا تبنى هي عليه؛

فليست فيها استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا شيء من مثل هذا يصح في الجواز أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره في موضعه إذا تبدلته منه، فضلاً عن أن يفي به، وفضلاً عن أن يربى عليه، ولو أدرتَ اللغة كلها على هذا الموضع. فكأن البلاغة فيه إنما هي وجه من نظم حروفه بخلاف ما أنت واجد من كلام البلغاء، فإن بلاغته إنما تصنع لموضعها وتبنى عليه، فربما وَفَت وربما أخلفت. ولو هي رفعت من نظم الكلام ثم نزل غيرها في مكانها لرأيت النظم نفسه غير مختلف، بل لكان عسى أن يصح ويجود في مواضع كثيرة من كلامهم، وأن نعرف له بذلك مزية في توازن حروفه وائتلاف مخارجها وتناسب أصواتها، ونحو هذا مما هو أصل الفصاحة، ومما لا تغني فيه استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا غيرها. لأنه وجه من تإليف الحروف ونسق اللفظ فيها؛ وأنواع البلاغة إنما هي وجوه التإليف بين معاني الكلمات. فالحرف الواحد من القرآن محجز في موضعه، لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجازاً أبدياً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية، وفوق ما يتسبب إليه الإنسان إذ هو يشبه الخلق الحي تمام المشابهة، وما أنزله إلا الذي يعلم "السر" في السموات والأرض. فأنت الآن تحلم أن سر الإعجاز هو في النظم، وأن لهذا النظم ما بعده، وقد علمت أن جهات النظم ثلاث: في الحروف، والكلمات، والجُمل، فههنا ثلاثة فصول تعرفها فيما يلي:

الحروف وأصواتها

مخارج الحروف وصفاتها إنما أُخذ أكثرها من ألفاظ القرآن لا من كلام العرب وفصاحتهم، لأن ههنا موضعَ القول فيه، فإن طريقة النظم التي اتسقت بها ألفاظ القرآن، وتألفت لها حروف هذه الألفاظ، إنما هي طريقة يتوخى بها إلى أنواع من المنطق وصفات من اللهجة لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب فلما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جُمله، ألحاناً لغوية رائعة؛ كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها فلم يفتهم هذا المعنى، وأنه أمرٌ لا قِبل لهم به، وكان ذلك أبينَ في عجزهم؛ حتى إن من عارضه منهم، كمسيلمة، جَنَحَ في خرافاته إلى ما حسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية، وإنَّما هي في أوزان الكلمات

وأجراس الحروف دون ما عداها، وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع. وأنت تتبين ذلك إذا أنشأت ترتل قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم على طريقة التلاوة في القرآن، مما تراعي فيه أحكامَ القراءة وطرق الأداء، فإنك لا بد ظاهر بنفسك على النقص في كلام البلغاء وانحطاطه في ذلك عن مرتبة القرآن وحسبك بهذا اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن، وأنه مما لا يتعلق به أحد، ولا ينفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبةِ بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق والتفشي والتكرير، وغير ذلك ولقد كان هذا النظم عينه هو الذي صفى طباعَ البلغاء بعد الإسلام، وتولى تربية الذوق الموسيقي اللغوي فيهم، حتى كان لهم من محاسن التركيب في أساليبهم ولولا القرآن وهذا الأثر من نظمه العجيب، لذهب العرب بكل فضيلة في اللغة، ولم يبق بعدهم للفصحاء إلا كما بقي من بعد هؤلاء في العامية، بل لما بقيت اللغة نفسها ومما انفرد به القرآن وبايَنَ سائر الكلام، أنه لا يخلق على كثرة الرد وطول التكرار، ولا تمل منه الإعادة؛ وكلما أخذت فيه على وجه الصحيح فلم تخل بأدائه، رأيته غضاً طرياً، وجديداً مونقاً، وصادفت من نفسك له نشاطاً مستأنفاً وحساً موفوراً، وهذا أمر يستوي في أصله العالم الذي يتذوق الحروف ويستمري تركيبها ويُمعن في لذة نفسه من ذلك، والجاهل الذي يقرأ ولا يثبت معه من الكلام إلا أصوات الحروف، وإلا ما يميزه من أجراسها على مقدار ما يكون من صفاء حسه ورقة نفسه ولا يذهبن عنك أن الحروف لم تكن في القرآن على ما وصفنا بأنفسها دون حركاتها الصرفية والنحوية، وليست هذه الحركات إلا مظاهر الكلم فمن ههنا يستجر لنا القول في النوع الثاني من سر الإعجاز.

الكلمات وحروفها

والكلمة في الحقيقة الوضعية إنما هي صوت النفس؛ لأنها تَلَبَس قطعة من المعنى فتختص به على وجه المناسبة وصوت النفس أولُ الأصوات الثلاثة التي لا بد منها في تركيب النسق البليغ، حتى يستجمعَ الكلام بها أسباب الاتصال بين الألفاظ ومعانيها، وبين هذه المعاني وصورها النفسية، أما الأصوات الثلاثة التي أومأنا إليها فهي: صوت النفس، وهو

الصوت الموسيقي الذي يكون من تإليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة متساوقة صوت العقل، وهو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام، ومن الوجوه البيانية التي يداورُ بها المعنى، لا يخطئ طريقَ النفس من أي الجهات انتحى إليها. صوت الحس، وهو أبلغهن شأناً، لا يكون إلا من دقة التصور المعنوي، والإبداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النفس مرة وموادعتها مرة، واستيلائه على محضها بما يورد عليها من وجوه البيان وعلى مقدار ما يكون في الكلام البليغ من هذا الصوت، يكون فيه من روح البلاغة. وليس إلا أن تقرأه (أي القرآن) حتى تحس من حروفه وأصواتها وحركاتها ومواقع كلماته وطريقة نظمها ومداورتها للمعنى - بأنه كلام يخرج من نفسك، وبأن هذه النفس قد ذهبت مع التلاوة أصواتاً، واستحال كل ما فيك من قوة الفكر والحس إليها وجرى فيها مجرى البيان، فصرت كأنك على الحقيقة مطوي في لسانك. ولو ذهبنا نبحث في أصول البلاغة الإنسانية عن حقيقة نفسية ثابتة قد اطردت في اللغات جميعاً وهي في كل لغة تعد أصلاً في بلاغتها، لما أصبنا غير هذه الحقيقة التي لا تظهر في شيء من الكلام ظهورها في القرآن وهي: (الاقتصاد في التأثير على الحس النفسي) . ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجري مجرى الحشو والاعتراض، أو ما يقال فيه إنه تغوث واستراحة كما تجد من كل ذلك في أساليب البلغاء، بل نزلت كلماته منازلها على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة، وما قد يشبه أن يكون من هذا النحو الذي تمكنت به مفردات النظام الشمسي وارتبطت به سائر أجزاء المخلوقات، ولقد صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة، فإن أحداً من البلغاء لا تمتنع عليه فصح هذه العربية متى أرادها، وهي بعد في الدواوين والكتب، ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن في كلامه، وإن اتفقت له نفس هذه الألفاظ بحروفها ومعانيها، لأنها في القرآن تظهر في تركيب ممتنع فتعرَف به، ولهذا ترتفع إلى أنواع أسمى من الدلالة اللغوية أو البيانية التي هي طبيعية فيها، فتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم، ولو تدبرتَ ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة

فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضاً، ولن تجدها إلا مؤتلفةً مع أصوات الحروف، مُساوقةً لها في النظم الموسيقي، وبهذا الذي قدمناه ونحوه مما أمسكنا عنه ولم نستقصِ في أمثلته لأنه أمر مُطرد - تعرف أن القرآن إنما أعجز في اللغة بطريقة النظم وهيئة كوضع ولن تستويَ هذه الطريقة إلا بكل ما فيه على جهته ووضعه، فكل كلمة منه ما دامت في موضعها فهي من بعض إعجازه، ومن ههنا ينساق بنا الكلام إلى القول في النوع الثالث.

الجمل وكلماتها

والجملة هي مظهرُ الكلام، وهي الصورة النفسية للتإليف الطبيعي، إذ يُحيلُ بها الإنسان هذه المادة المخلوقة في الطبيعة، إلى معاني تُصورها في نفسه أو تصفها، ترى النفس هذه المادة المصورة وتحسها. على حين قد لا يراها المتكلم الذي أهدَفَها لكلامه غرضاً ولكنه بالكلام كأنه يراها. ولذا كانت المعاني في كلماتها التي تؤدي إليها كأنها في الاعتبار بقية الشعاع النظري الذي اتصل بالمادة الموصوفة، أو بقية حس آخر من الحواس التي هي في الحقيقة جملة آلات الإنسان في صنع اللغة. وإنما اطرد ذلك للقرآن من جهة تركيبه الذي انتظم أسباب الإعجاز من الصوت في الحرف، إلى الحرف في الكلمة، إلى الكلمة في الجملة، حتى يكون الأمر مقدراً على تركيب الحواس النفسية في الإنسان تقديراً يطابق وضعَها وقواها وتصرفها، وذلك إيجاد خلقي لا قِبَل للناس به ولم يتهيأ إلا في هذه العربية عن طريق المعجزة التي لا تكون معجزة حتى تخرق العادة، وتفوت المألوف، وتعجز الطوقَ، وإنما امتنع أن يكون في مقدور الخلق، لأنه تفصيل للحروف على النحو الذي يأخذه فيه تركيب الحياة، من تناسب الأجزاء في الدقيق والجليل، وقيام بعضها ببعض لا يغني منها شيء عن شيء في أصل التركيب وحكمته ولا يرد غيرها مردها ولا يأتلف ائتلافها. ولقد كانت هذه الطريقة المعجزة التي نزل بها القرآن هي السبب في حفظ العربية واستخراجِ علومها؛ وما كان أصل ذلك إلا التحدي بها، فإن من حكمة هذا التحدي أن يدعوهم إلى النظر في أساليبه ووجه نظمه وتدبُر طريقته، وأن يروزوا أنفسهم منها ويَزنوها به، حتى إذا استيقنوا العجز وأطرقوا عليه، كان ذلك سبباً لمن يخلفهم على اللغة إلى استبانة وجوه الإعجاز، ومن البيّن أن أخص أسباب الارتقاء كائن في الغَلبة، والتميز والانفراد حيث وُجدت، فلو جاء القرآن مثل كلام العرب في الطريقة والمذهب،

وفي الصفة والمنزلة، لما صَلُحَ أن يكون سبباً لما أحدثه، ولذهب مع كلام العرب، ثم لتدافعته العصور والدول إن لم يذهب، ثم لبقي أمره كبعض ما ترى من الأمور الإنسانية؛ لا ينفرد ولا يستعلي. تختلف الألفاظ ولا تراها إلا متفقة، وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة، وتذهب في طبقات البيان وتنتقل في منازل البلاغة، وأنت لا تعرف منها إلا روحاً تداخلُك بالطرب، وتُشرِب قلبكَ الروعة.

إن طريقة نظم القرآن تجري على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، وفي التمكين للمعنى بحس الكلمة وصفتِها، ثم الافتنان فيه بوضعها من الكلام، وباستقصاء أجزاء البيان وترتيب طبقاته على حسب مواقع الكلمات، لا يتفاوت ذلك ولا يختل، وإن من أعجب ما يحقق الإعجاز أن معاني هذا الكتاب الكريم لو ألبست ألفاظاً أخرى من نفس العربية، ما جاءت في نمطها وسمتها والإبلاغ عن ذات المعنى لا في حكم الترجمة، ولو تولى ذلك أبلغ بلغائها ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؛ فقد ضاقت اللغة عنده على سعتها؛ حتى ليس فيها لمعانيه غير ألفاظه باعيانها وتركيبها، ومتى كانت المعارضة والترجمة سواء إلا في المعجز الذي يساوي بين القوى في المعجز وهي بعد في ذات بينها مختلفات؟

(فصل) البلاغة في القرآن

لا سبيلَ من كتابنا هذا إلى بسط الكلام وتقسيمه فيما تضمنه القرآن من أنواع البلاغة التي نصَبَ لها العلماء أسماءها المعروفة: كالاستعارة والمجاز وغيرهما، فضلاً عن أنواع البديع الكثيرة؛ فإن ذلك يُخرج استخراجه من القرآن باباً مفرداً صنف فيه جماعة من العلماء المتأخرين (كالرازي وابن أبي الإصبع وابن القيم) (فضلا عما قدمه المتقدمون(كالرماني، والواسطي، والعسكري، والجرجاني، وغيرهم. ولسنا نقول إن القرآن جاء بالاستعارة لأنها استعارة أو بالمجاز لأنه مجاز، أو بالكناية لأنها كناية، أو ما يطردُ مع هذه الأسماء والمصطلحات إنما أريدَ به وضع معجز في نسق ألفاظه وارتباط معانيه على وجوه السياستين من البيان والمنطق، فجرى على أصولهما في أرقى ما تبلغه الفطرة اللغوية على إطلاقها في هذه العربية، فهو يستعير حيث يستعير، ويتجوز حيث يتجوز، ويُطنِبُ ويوجز ويؤكد ويعترض ويكرر إلى آخر ما أحصي في البلاغة ومذاهبها.

الكتاب الثاني: الفصل الأول: البلاغة النبوية

رسول الله- صلي الله عليه وسلم- كان أفصح العرب، على أنه لا يتكلف القول، ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده، ثم لا يعرض له في ذلك سقَط ولا استكراه، ولا تستزله الفُجاءة وما يَبْدَه من أغراض الكلام عن الأسلوب الرائع، وعن النمط الغريب والطريقة المحكمة، بحيث لا يجد النظر إلى كلامه طريقاً يتصفح منه صاعداً أو منحدراً. وإن كان كلامه -صلي الله عليه وسلم- لكما قال الجاحظ: " هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف. . استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي؛ فلم ينطق عن ميراث حكمه، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة، وشُدَّ بالتأييد، يُسِّر بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام هو مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب. ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له- صلي الله عليه وسلم- إلا توفيقاً من الله وتوقيفاً، إذ ابتعثه للعرب وهم قوم يقادون من ألسنتهم، ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة، ثم هم مختلفون في ذلك على تفاوت ما بين طبقاتهم في اللغات آداب العرب، فمنهم الفصيح والأفصح، ومنهم الجافي والمضطرب، ومنهم ذو اللوثة والخالص في منطقه، إلى ما كان من اشتراك اللغات وانفرادها بينهم، وتخصص بعض القبائل بأوضاع وضيع مقصورة عليهم، لا يساهمهم فيها غيرهم من العرب، إلا من خالطهم أو دنا منهم دنو المأخذ. فكان- صلي الله عليه وسلم- يعلم كل ذلك على حقه، كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها، وتبادره بحقائقها، فيخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطاباً، وأسدهم لفظاً، وأبينهم عبارة، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب، ولو عرف لقد كانوا نقلوه وتحدثوا به واستفاض فيهم. (وقد) كان- صلي الله عليه وسلم- في اللغة القرشية التي هي أفصحُ اللغات وإلينها، بالمنزلة التي لا يدافع عليها، ولا ينافس فيها وكان من ذلك في

أقصى النهاية، وإنما فضلهم بقوة الفطرة واستمرارها وتمكنها مع صفاء الحسق ونفاذ البصيرة واستقامة الأمر كله ولا يذهبنَّ عنك أن للنشأة اللغوية في هذا الأمر ما بعدها، وأن أكبر الشأن في اكتساب المنطق واللغة، للطبيعة والمخالطة والمحاكاة، ثم ما يكون من سمو الفطرة وقوتها فإنما هذه سبيله؛ يأتي من ورائها وهي الأسباب إليه؛ وقد نشأ النبي - صلي الله عليه وسلم - وتقلب في أفصح القبائل وأخلصها منطقاً، وأعذبها بياناً، فكان مولده في بني هاشم، وأخواله في بني زهرة، ورضاعه في سعد بن بكر، ومنشؤه في قريش، ومتزوجه في بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو، وهم الأوس والخزرج من الأنصار، لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة؛ ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة، ولذا قال - صلي الله عليه وسلم" : " أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد ابن بكر

صفته - صلي الله عليه وسلم-

ليس في التاريخ العربي كله مَن جُمِعَتْ صفاته وأحصيت شمائله وتواتر النقل بذلك جميعه من طرق مختلفة على توثق إسنادها - غير النبي- صلي الله عليه وسلم-، وهذا أصل لا يُعْدَلُ به شيء في بيان حقائق الأخلاق، والاستدلال على قوة الملكات، واستخرج الصفات النفسية التي حَصلَ من مجموعها أسلوبُ الكلام على هيئته وجهته، وانفراد بما عسى أن يكون منفرداً به، أو شارك فيما عسى أن يكون مشاركاً فيه؛ وعلى هذه الجهة نأتي بطرف من صفته - صلي الله عليه وسلم - ومما ورد في وصفه ووصف منطقه مختصرا بعد حذف الأسانيد أنه كان:) نخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رجل الشعر، إن انفرقت عقيصته فرق وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب سوابغ في غير قرن، بينهما عرق يدره الغضب، أقنى العرنين له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم كث اللحية سهل الخدين ضليع الفم أشنب مفلج الأسنان دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادنا متماسكا، سواء البطن والصدر، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس أنور المتجرد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك، أشعر الذراعين

والمنكبين وأعإلى الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة سبط القصب شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف، خمصان الأخمصين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء إذا زال زال قلعا يخطو تكفيا ويمشي هونا، ذريع المشية إذا مشى كأنما يخط من صبب، وإذا التفت التفت جميعا، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه يبدر من لقيه بالسلام متواصل الأحزان، طويل الفكرة، ليس له راحة لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتح كلامه ويختمه بأشداقه يتكلم بجوامع الكلم، فضل لا فضول ولا تقصير، دمث ليس بالجافي ولا المهين يعظم النعمة، وإن دقت، لا يذم منها شيئا لا يذم ذواقا ولا يمدحه (و) لم يكن ذواقا، ولا مدحة ولا تغضبه الدنيا، وما كان لها وإذا تعوطى الحق، لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فضرب براحته إليمنى باطن إبهامه إليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام. وإذا رَجعتَ النظر في تلك الصفات الكريمة واعتبرتها بآثارها ومعانيها رأيت كيف يكون الأساس الذي تُبنى عليه فراسةُ الكمال في نوعِ الإنسان من دلالة الظاهر على الباطل، وتحصيل الحقيقة النفسية التي هي بطبيعتها روح الإنسان في أعماله، أو أثرُ هذه الروح، أو بقيةُ هذا الأثر.

إحكام منطقه - صلي الله عليه وسلم-

قد رأيت فيما مر من صفته عليه الصلاة والسلام أنه ضليع الفم، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، وعلمت من معنى ذلك أنه كان يستعمل جميع فمه إذا تكلم، لا يقتصر على تحريك الشفتين فحسب. ولقد كانت العرب تتمادَح بسعة الفم وتذم بصغره، لأن السعة أدل على امتلاء الكلام، وتحقيق الحروف وجهارةِ الأداء وإشباع ذلك في الجملة، ولأن طبيعة لغتهم ومخارج حروفها تقتضي هذا كله ولا تحسُنُ في النطق إلا به، ولا تبلُغ تمامها إلا أن يبلغ فيها، وهو بعد مزيتها الظاهرة في أفصح أساليبها. فكانت محاسن هذا الباب في النبي -صلي الله عليه وسلم- طبيعة كما رأيت، لأنها عن أسباب طبيعية، وقد وصفوه مع ذلك بحسن الصوت وهو تمامها وحليتُها. فلا جرمَ كان منطقه- صلي الله عليه وسلم- على أتم

ما يتفق في طبيعة اللغة ويتهيأ لها إحكام الضبط وإتقان الأداء: لفظَ مشبعَ، ولسانَ بليلَ، وتجويد فخمَ، ومنطق عذبَ، وفصاحة متأدية، ونظم متساوقَ وطبع يجمع ذلك كله، مع تثبت وتحفظ وتبيين وترسل وترتيل. وقد قالت عائشة رضي الله عنه: ما كان رسول الله- صلي الله عليه وسلم - يَسرُدُ كسردِكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل، يحفظه من جلس إليه. فإذا أضفت إلى ذلك أن نبينا - صلي الله عليه وسلم - كان طويلَ السكوت، ولم يتكلم في غير حاجة، فإذا تكلم لم يَسردَ سَرداً، بل فصلَ ورتلَ وأبان وأحكم، بحيث يخرج كل لفظة وعليها طابعها من النفس - علمت أن هذا المنطق النبوي لا يكون بطبيعة إلا على الوجه الذي بسطناه آنفاً، وأنه بذلك قد جمع خصالاً من إحكام الأداء، لا يشاركه فيها منطق أحد إلى حد، ولا تتوافى إلى غيره ولا تتساوى في سواه.

اجتماع كلامه وقلته - صلي الله عليه وسلم -

ومن كمال تلك النفس العظيمة، وغلبَةِ فكره- صلي الله عليه وسلم - على لسانه قل كلامه وخرج قصداً في ألفاظه، محيطاً بمعانيه، تحسب النفس قد اجتمعت في الجملة القصيرة والكلمات المعدودة بكل معانيها: فلا ترى من الكلام ألفاظاً ولكن حركات نفسية في ألفاظ، ولهذا كثرت الكلمات التي انفرد بها دون العرب، وكثرت جوامعُ كلِمه، كما ستعرفه، وخلص أسلوبه، فلم يقصر في شيء، ولم يبلغ في شيء، واتسق له من هذا الأمر على كمال الفصاحة والبلاغة ما لو أراده مريد لعجز عنه، ولو هو استطاع بعضه لما تم له في كل كلامه، لأن مجرى الأسلوب على الطبع، والطبع غالب مهما تشدد المرءُ وارتاض ومهما تثبت وبالغ في التحفظ. هذا إلى أن اجتماع الكلام وقلة ألفاظه، مع اتساع معناه وإحكام أسلوبه في غير تعقيد ولا تكلف، ومع إبانة المعنى واستغراق أجزائه، وأن يكون ذلك عادة وخلقاً يجري عليه الكلام في معنى معنى وفي باب باب - شيء لم يعرف في هذه اللغة لغيره - صلي الله عليه وسلم - على أنه لا يؤخذ مما قدمنا أنه - صلي الله عليه وسلم - لم يكن يطيل الكلام إن رأى وجهاً للإطالة، فقد كان ربما فعل ذلك إن لم يكن منه بد، وقد روى أبو سعيد الخدري أنه - صلي الله عليه وسلم - خطب بعد العصر فقال: " ألا إن الدنيا خضرة حلوة، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظرٌ كيف تعلمون؛ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء! ألا لا يمنعهن رجلاً مخافة الناس أن يقول الحق إذا علمه! ".

قال أبو سعيد: ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف فقال: " إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى! ". قلنا: وهذه مدة لا تقدر في عرفنا بأقل من ساعتين، وحسبك بكلام من البلاغة النبوية يستوفيهما، بيد أن الإقلال كان الأعم الأغلب.

نفي الشعر عنه - صلى الله عليه وسلم-

ونحن نتمُّ القول فيما بدأ به الجاحظ آنفاً، من تنزيه النبي - صلى الله عليه وسلم- عن الشعر، وأنه لا ينبغي له، فإن الخبر في ذلك مكشوف متظاهر والروايات صحيحة متواترة، وقد قال الله تعالى:

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ (352).

فكان عليه الصلاة والسلام لا يتهدَّى إلى إقامة وزن الشعر إذا هو تمثل بيتاً منه بل يكسره ويتمثل البيت مكسوراً. فإنه على كونه أفصح العرب إجماعاً، لم يكن ينشد بيتاً تاماً على وزنه، إنما كان ينشد الصدر أو العجز فحسب؛ فإن ألقى البيت كاملاً لم يصحح وزنه بحال من الأحوال، وأخرجه عن الشعر فلا يَلتئم على لسانه. أنشد مرة صدر البيت المشهور للبيد، وهو قوله: ألا كل شيء ما خلا الله باطل فصححه، ولكنه سكت عن عجزه (وكل نعيم لا مَحالة زائل). ولم تجر على لسانه - صلى الله عليه وسلم - مما صح وزنه إلا ضربان من الرجز المنهوك والمشطور أما الأول فكقوله في رواية البَراء: إنه رأى النبي -صلى الله عليه وسلم-

على بغلة بيضاء يوم أُحد ويقول:أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدِ المطلب

والثاني كقوله في رواية جندب إنه -صلى الله عليه وسلم- دَمِيَت أصبعه فقال:

هل أنت إلا إصبعٌ دميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ وإنما اتفق له ذلك، لأن الرجز في أصله ليس بشعر إنما هو وزن، كأوزان السجع، وهو يتفق للصبيان والضعفاء من العرب، يتراجزون به في عملهم وفي لعبهم وفي سَوقِهم، ومثل هؤلاء لا يقال لهم شعراء، والذي عندنا، أنه- صلى الله عليه وسلم - لم يمنع إقامة وزنِ الشعر في إنشاده إلا لأنه منع من إنشائه، فلو استقام له وزن بيت واحد، لغلبت عليه فطرته القوية، فمرَّ في الإنشاد، وخرج

(352) يسين 69

بذلك - لا محالة - إلى القول والاتساع وإلى أن يكون شاعراً، ولو كان شاعراً لذهب مذاهب العرب التي تبعث عليها طبيعة أرضهم ولتكلف لها، ونافس فيها، ثم لجاراهم في ذلك إلى غايته، حتى لا يكون دونهم فيما تستوقِد له الحمية، وما هو من طبع المنافسة والمغالبة، وهذا أمر، كما ترى، يدفع بعضه إلى بعض، ثم لا يكون من جملته إلا أن ينصرف عن الدعوة، وعما هو أزكى بالنبوة وأشبه بفضائل القرآن، ولا من أن يتسعَ للعرب يومئذ بد، فيقرهم على شيء، ويجاريهم على شيء، وينقض شعره أمر القرآن عروة عروة، ولذا قال تعالى: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ.([353])

تأثيره في اللغة – صلي الله عليه وسلم-

قد علمت مما بسطناه في مواضع كثيرة، أن قريشاً كانوا أفصح العرب ألسنة، وأخلصهم لغة، وأعذبهم بياناً، وأنهم قد ارتفعوا عن لهجات رديئة اعترضت في مناطق العرب، فسلمت بذلك لغتهم، وإنَّما كان هؤلاء القوم أنضاد النبي –صلي الله عليه وسل - من أعمامه وأهله وعشيرته، ثم علمت ما قلناه آنفاً في نشأته اللغوية، وما وصفناه من أمره فيها، وأن له في تلك رتبة بعيدة المصعد، فلا جَرَم كان - صلي الله عليه وسلم - على حد الكفاية في قدرته على الوضع، والشقيق من الألفاظ، وانتزاع المذاهب البيانية، حتى اقتضب ألفاظاً كثيرة لم تسمع من العرب قبله، ولم توجد في متقدم كلامها، وهي تعد من حسنات البيان، لم يتفق لأحد مثلها في حسن بلاغتها، وقوة دلالتها، وغرابة القريحة اللغوية في تإليفها وتنضيدها، وكلها قد صار مثلاً، وأصبح ميراثاً خالداً في البيان العربي، كقوله: ماتَ حتف أنفه وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ما سمعتُ كلمة غريبة من العرب - يريد التركيب البياني - إلا وسمعتها من رسول الله- صلي الله عليه وسلم- ، وسمعته يقول: " مات حتفَ أنفه " وما سمعتها من عربي قبله. ومثل ذلك قوله في الحرب: " الآن حميَ الوَطِيس "فهذه واحدة في الأوضاع التركيبية. والثانية في الأوضاع المفردة، مما يكون مجازة مجاز الإيجاز والاقتضاب، وهذا الباب كانت تنصرف فيه العرب بالاشتقاق والمجاز، فتضع الألفاظ وتنقلها من معنى إلى معنى، غير

(353) يسين،69

أنها في أكثر ذلك إنما تتسع في شيء موجود ولا توجِد معدوماً؛ فلم يعرف لأحد من بلغائهم وضع بعينه يكون هو انفرد به وأحدثه في اللغة ويكون العرب قد تابعوه عليه، إلا ما ندر لا يعد شيئاً؛ بخلاف المأثور عنه - صلى الله عليه وسلم - في مثل ذلك، فهو كثير تعد منه الأسماء والمصطلحات الشرعية مما لم يرد في القرآن الكريم؛ ومنه ألفاظ كان العربُ أنفسهم يسألونه عنها ويعجبون لانفراده بها وهم عربٌ مثله؛ كما عجبوا لفصاحته التي اختص بها ولم يخرج من بين أظهرهم، كما روي من أنه - صلى الله عليه وسلم - قال لأبي تَميمة الهُجَيمي: " إياك والمخيلةَ " فقال: يا رسول الله، نحن قوم عرب؛ فما المخيلة؟ فقال عليه الصلاة والسلام:، سَبلُ الإزار " وليس ذلك بأعجب من مخاطبته وفود العرب بما كان لهم من اللغات والأوضاع الغريبة التي لا تعرفها قريش من لغتها، ولا تتهدَّى إلى معانيها، ولا يعرفها بعضُ العرب عن بعض، ثم فَهمه عنهم مثل ذلك على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، حتى قال له علي رضي الله عنه وقد سمعه يخاطب وفدَ بني نهد: يا رسول الله، نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره! فقال عليه الصلاة والسلام " :أدبني ربي فأحسنَ تأديبي ".

لماذا كانت تلك فطرته اللغوية، في تمكنها، وشدتها، واستحصافها، وسبيلها إلى الإلهام، وانطوائها على أسرار الوضع، فانظر ما عسى أن يحدث من مبلغ أثرها في اللغة وضعاً واشتقاقاً واستجازة وتقليباً، وما عسى أن يبلغ القول في مظاهرها من مخارج الكلام ووجه إرساله وإحكام تنضيده واجتماع نسقه، ثم تدبر ما عسى أن تكون جملة ذلك قد أثرت في العرب ومناطقها وأساليبها.

نسق البلاغة النبويَّة

قد قلنا في بيان أسلوب كلامه - صلى الله عليه وسلم - ، أنه أسلوب منفرد في هذه اللغة، قد بان من غيره بأسباب طبيعية فيه، وأن ما أشبهه من بلاغة الناس في الكلمات القليلة والجمل المقتَضبَة، لا يشبهه في العبارة المبسوطة، ولا يستوي له الشبه مع ذلك في كل قليل ولا في كل مقتَضَب، حتى يقع التنظير بين الأسلوبين على الكفاية، وحتى يميل الحكم إلى الجزم بأن بعض ذلك كبعضه: بلاغة ونسقاً وبياناً. ونحن الآن قائلون في نسق هذا الأسلوب؛ ليتأدَّى بك القول إلى صميم مذهبه، وينتظم هذا القول بعضه ببعض.

إذا نظرت فيما صح نقله من كلامِ النبيِ - صلى الله عليه وسلم - على جهة الصناعتين اللغوية والبيانية، رأيته في الأولى مسدد اللفظ مُحكم الوضع جزل التركيب. متناسِب الأجزاء في تإليف الكلمات: نخم الجملة واضح الصلة بين اللفظ ومعناه واللفظ وضريبه في التإليف والنسق، ثم لا ترى فيه حرفاً مضطرباً، ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه، ولا كلمة غيرُها أتم منها أداة للمعنى وتأتياً لسره في الاستعمال، ورأيته في الثانية حسن المعرِض، بين الجملة، واضحَ التفضيل، ظاهرَ الحدود جيدَ الرصفِ، متمكن المعنى، واسع الحيلة في تصريفه، بديعِ الإشارة، غريبِ اللمحة، ناصع البيان، ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراهاً، ولا ترى اضطراباً ولا خطلاً، ولا استعانة من عجز، ولا توسعاً من ضيق، ولا ضعفاً في وجه من الوجوه.وكان له خاصة، من عظمة النفس، وكمال العقل، وثقوب الذهن ومن المنزعَة الجيدة، واللسان المتمكن - رأيت من جملة ذلك نسقاً في البلاغة قلما يتهيأ في مُثول أغراضه وتساوق معانيه لبليغ من البلغاء، على أن كلامه - صلى الله عليه وسلم - ليس مما تكلف له، ولا داخلته الصنعة، ولا كان يَتلوم على حَوكِهِ وسَردِه، ولكنه عَفوُ البديهة، ومساقطة الحديث، مما يجريه في مناقلةِ الكلام ومَساق المحاضرة، وأنه مع ذلك لعلى ما وصفنا وفوق ما وصفنا، فقد تراه وما يتفق فيه من الأوضاع التركيبية الغريبة، وتعرف أن ذلك شيء لم يتفق مثله في هذا الباب لشاعر ولا خطيب ولا كاتب على إطالة الرواية، ومراجعة الطبع، والغلوّ في الصنعة، وعلى أن لهم السبكَ الخالص والمعدنَ الصريح. والبيان الذي يتفجَّر في الألسنة لرقته وعذوبته واطراده.

الخلوص والقصد والاستيفاء

نسق البلاغة النبوية يمتاز في جملته بأنه ليس من شيء أنت واجده في كلام الفصحاء وهو معدود من ضروب الفصاحة ومتعلقاتها - إلا وجدته في هذا النسق على مقدار من الاعتبار يفرِدهُ بالميزةِ، ويخصه بالفضيلة، لأن كلامه – صلى الله عليه وسلم- في باب التمكين لا يعدِله شيء من كلام الفصحاء. إذ هو مبني على ثلاثة الخلوص، والقصد، والاستيفاء.

أما الأول فهو في اللغة ما علمت وفي الأسلوب ما عرفت مما وقفناك عليه وهو منفرد فيهما جميعاً، لأنه لم يكن في العرب ولن يكون فيمن بعدهم أبدَ الدهر من ينفذُ في اللغة

وأسرارها وضعاً وتركيباً، ويستعبدُ اللفظ الحر، ويحيط بالعتيق من الكلام، ويبلغ من ذلك إلى الصميم على ما كان من شأنه - صلي الله عليه وسلم- ، ولا نعرف في الناس من يتهيأ له الأسلوب العصبي الجامعُ المجتمعُ على توثق السرد وكمال الملاءمة، كما تراه في الكلام النبوي، وما من فصيح أو بليغ إلا وهو في إحدى هاتين المنزلتين دون ما يكون في الأخرى على ما يلحقه من النقص فيهما جميعاً إذا تصفحتَ وجوهَ كلامه وضروب الفصاحة فيه، واعتبرت ذلك بما سلف؛ وأبلغُ الناس من وفق أن يكون في المنزلة الوسطى بين منزلتيه -صلي الله عليه وسلم-

وأما القصدُ والإيجاز والاقتصار على ما هو من طبيعة المعنى في ألفاظه ومن طبيعة الألفاظ في معانيها. ومن طبيعة النفس في حظها من الكلام وجهتيهِ (اللفظية والمعنوية) - فذلك مما امتازت به البلاغة النبوية حتى كان الكلام لا يعدو فيها حركةَ النفس، وكان الجملة تخلق في منطقه – صلي الله عليه وسلم - خَلقاً سوياً، أو هي تنزع من نفسه انتزاعاً، وهذا عجيب حتى ما يمكن أن يعطيهُ امرؤ حظه من التأمل إلا أعطاه حظ نفسه من العجب، وإنَّما تتم في بلاغته - صلي الله عليه وسلم-

الأمر الثالث: وهو الاستيفاء، الذي يخرج به الكلام - على حذف فضوله وإحكامه ووجازَته مبسوط المعنى باجزائه ليس فيها خداج ولا إحالة ولا اضطراب حتى كان تلك الألفاظ القليلة إنما ركبت تركيباً على وجه تقتضيه طبيعة المعنى في نفسه، وطبيعته في النفس، فمتى وعاها السامع واستوعبها القارئ، تمثل المعنى وأتمه في نفسه، في حسب ذلك التركيب، فوقع إليه تاماً مبسوط الأجزاء، وأصاب هو من الكلام معنى جموماً لا ينقطع به ولا يكبو دون الغاية، كأنما هذا الكلام قد انقلب في نفسه إحساساً لنظر معنوي. وهذا ضرب من التصرف بالكلام في أخلاق النفوس الباطنة التي تذعن لها النفوس وتتصرف معها، وقلما يستحكم لامرئ إلا بتأييد من الله وتمكين من اليقين والحجة فهو على حقيقته مما لا تعين عليه الدُّربة والمزاولة إلا شيئاً يسيراً لا يستوفي هذه الحقيقة.

الفصل الثاني: وحي القلم

إن الأديب البارع المفكر مصطفى صادق الرافعي رحمه الله ، كان صاحب قلم سيال ، وفكر أصيل ، فقد دافع عن الإسلام ، وعن القرآن ، وردَّ على شبهات المستغربين مثل طه حسين وغيره ممن تأثروا بالحضارة الغربية العفنة .وردَّ على هؤلاء بقوة ، ولاسيما في كتابه النفيس" تحت راية القرآن" .

أما كتابه " وحي القلم " فهو عبارة عن مجموعة كبيرة من القصص الواقعية والرمزية أحياناً والحكم والأمثال ، والخواطر التي مرت به رحمه الله . الان أقدم تلخيص هذا الكتاب أولا أذكر مباحث هذا الكتاب ثم تقريظها حسب المباحث.

نبذة عن محتوى الكتاب

"وحي القلم" عمل أدبي لمصطفى صادق الرافعي، ويعتبر من أجمل ما كتبه، و هو عبارة عن مجموعة من مقالاته النقدية والإنشائية، تتناول مواضيع اجتماعية وأخرى عن الوصف والحب، كما فيه مواضيع توضح ما التبس من حقائق الإسلام وآدابه وخلفياته وبعض جماليات القرآن، ينتزع من الدنيا حقائقها، ويرسلها ضمن نصوص صيغت بصيغة القصة التي تلفت نظر القارئ إلى المغزى.

يجمع الكتاب كل خصائص الرافعي الأدبية متميزة بوضوح في أسلوبه، فمن شاء أن يعرف الرافعي عرفان الرأي والفكرة والمعاشرة فليعرفه في هذا الكتاب.

يتكون الكتاب من ثلاثة أجزاء:

الجزء الأول (346 ص) يضم 40 مقالة منها: اليمامتان، المعنى السياسي في العيد، الربيع، في الربيع الأزرق (البحر)، أحلام في الشارع، سمو الحب، قصة زواج وفلسفة المهر، زوجة إمام، قبحٌ جميل، فلسفة الطائشة، أرملة حكومة (ويقصد الرجل العازب)، بنته الصغيرة (قصة توبة مالك بنت دينار)، رؤية في السماء (تبين فضل وبركة السعي على العيال يوم القيامة)، الجمال البائس، عربة اللقطاء...

الجزء الثاني (350 ص) يتكون من 46 مقالة منها: حقيقة المسلم، سمو الفقرفي المصلح

الاجتماعي الأعظم، شهر للثورة فلسفة الصيام، قلت لنفسي وقالت لي، الانتحار (6 أجزاء وتعرض أمثلة من الذين وسوست لهم أنفسهم بالانتحار عندما اسودت الدنيا في أعينهم، وينقدح نور الله في قلوبهم فتهب من غفلتها وهي تصيح: الله أكبر من الدنيا...)، موت أمٍّ، إبليس يُعلِّم، تاريخ يتكلم، قصة الأيدي المتوضئة، المعجم السياسي، المجنون...

الجزء الثالث (392 ص) يتكون من 45 مقالة منها: قرآن الفجر، أمراء للبيع، العجوزان، عاصفة القدر، القلب المسكين، انتصار الحب، شيطان وشيطانة، صعاليك الصحافة، حافظ إبراهيم، البؤساء، الملاح التائه، أبو حنيفة ولكن بغير فقه، المرأة والميراث، كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة...

مختارات من الكتاب

يقول الكاتب في صدر الكتاب وأخاله يتكلم عن مقالاته:

لا وجود للمقالات البيانية إلا في المعاني التي اشتملت عليها... ونقل حقائق الدنيا نقلا صحيحا إلى الكتابة أو الشعر هو انتزاعها من الحياة وإظهارها للحياة في أسلوب آخر يكون أوفى وأدق وأجمل... وتلك هي الصناعة الفنية الكاملة: تستدرك النقص فتتمه وتتناول السر فتعلنه، وتلمس المقيد فتطلقه وتأخذ المطلق فتحده وتكشف الجمال فتظهره.

في الربيع الأزرق

لا تتم فائدة الانتقال من بلد إلى بلد إلا إذا انتقلت النفس من شعور إلى شعور، فإذا سافر معك الهم فأنت لم تبرح.(354)

بنته الصغيرة

إن للمؤمن ظنين: ظنا بنفسه وظنا بربه، فأما ظنه بنفسه فينبغي أن ينزل بها دون جمحاتها ولا يفتأ ينزل، فإذا رأى لنفسه أنها لم تعمل شيئا أوجب عليها أن تعمل فلا يزال دائما يدفعها، وكلما أكثرت من الخير قال لها أكثري، وكلما أقلت من الشر قال لها أقلي ولا يزال هذا دأبه ما بقي

(354) وحي القلم 1/ 43

وأما الظن بالله فينبغي أن يعلو به فوق الفترات والعلل والآثام، ولا يزال يعلو فإن الله عند ظن عبده به، إن خيرا فله وإن شرا فله... والإنسان عند الناس بهيئة وجهه وحليته التي تبدو عليه، ولكنه عند الله بهيئة قلبه وظنه الذي يظن به، وما هذا الجسم من القلب إلا كقشرة البيضة مما تحتها.

ليس حفظ القرآن في العقل بل حفظه في العمل به، فإن أنت أتيت الآية منه وكنت تعمل بغير معناها وتعيش في غير فضيلتها، فهذا ويحك نسيانها لا حفظها... وقد كان قومنا الأولون بمعانيه كالشجرة الخضراء النامية فيها ورقها الأخضر وزهرها، وعلى ظاهرها حياة باطنها فلما ثبت الناس على الشكل وحده ولم يبالوا بالقلب وأحواله أصبحوا كالشجرة إليابسة عليها ورقها الجاف ليس في بقائه ولا سقوطه طائل.

إنما السعيد من يختار فيما يعمل أحسن ما يعمل، ومن ثم لا يكون جهاده في سبيل الوجود كالحيوان بل في صحة وجوده وفي شرف الحياة لا الحياة نفسها...والشقاء في هذه الدنيا إنما يجره على الإنسان أن يعمل في دفع الأحزان عن نفسه بمقارفته الشهوات وبإحساسه غرور القلب، وبهذا يبعد الأحزان عن نفسه ليجلبها على نفسه في صور أخرى.([355])

الانتحار

والنفس وحدها كنز عظيم وفيها وحدها الفرح والابتهاج لا في غيرها، وما لذات الدنيا إلا وسائل لإثارة هذا الفرح وهذا الابتهاج، فإن وُجدا مع الفقر بطلت عزة المال وأصبح حجرا من الأحجار، والبلبل يتغرد بحنجرته الصغيرة ما لا تغني فيه آلات التطريب كلها... وفي النفس حياة ما حولها فإذا قويت هذه النفس أذلت الدنيا وإذا ضعفت أذلتها الدنيا!([356])

قرآن الفجر

كنت في العاشرة من سني وقد جمعت القرآن كله وجودته بأحكام القراءة... وذهبت ليلة فبتُّ عند أبي في المسجد (إحدى الليإلى العشر الأخيرة من رمضان)...لا أنسى أبدا

(355) وحى القلم 1/ 229ـ ـ231

(356) وحى القلم 2/ 89

تلك الساعة. وقد انبعث في جو المسجد صوت غرد رخيم يشق سُدفة (ظلمة) الليل في مثل رنين الجرس تحت الأفق العالى وهو يرتل أواخر سورة النحل: " أُدع إلى سبيل ربك... واصبر وما صبرك إلا بالله...". وسمعنا القرآن غضا طريا كأول ما نزل به الوحي...وكنا نسمع قرآن الفجر وكأنما مُحيت الدنيا التي في الخارج من المسجد وبطُل باطلها، فلم يبق على الأرض إلا الإنسانية الطاهرة ومكان العبادة، وهذه هي معجزة الروح متى كان الإنسان في لذة روحه مرتفعا على طبيعته الأرضية.

أما الطفل الذي كان فيَّ يومئذ فكأنما دُعي بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويؤديها إلى الرجل الذي يجئ فيه من بعد، فأنا في كل حالة أخضع لهذا الصوت: "ادع إلى سبيل ربك..."، وأنا في كل ضائقة أخشع لهذا الصوت: "وما صبرك إلا بالله..."([357])

ان الرافعي رحمه الله يخاطبنا اليوم والمسلمون في فلسطين خاصة وفي غيرها عامة يمرون بمحن شديدة ، فمدوا لهم يد المساعدة والعون ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- " مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ فِى عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِى عَوْنِ أَخِيهِ ".([358])

حاول الكثيرون ممن لهم مصالح في انسلاخ الأمة العربية من جلدها إهالة التراب على هذا الرجل وعلى أدبه؛ لأنه آثر الأصالة والإسلام والمروءة، ولأنه لم ينافق في أدبه ولم يداهن، ولم يبتغ إلا ارتقاء هذا الدين واللغة التي أنزل بها.

إن هناك أديبًا عاش مدافعًا عن العربية والإسلام طيلة حياته، ولم يجد من أمته إلا التجاهل والتناسي غمطًا لحق، ومحاولة لطمس معالم أديب اسمه "مصطفي صادق الرافعي".

فقد عاش الرافعي ما عاش يكتب لنفسه وينشر لنفسه، لا يعنيه مما يكتب وينشر إلا أن يُحيل فكرة في رأسه أو لمحة في خاطره أو خفقة في قلبه، إلى تعبير في لسانه أو معنى في ديوانه، ولا عليه بعد ذلك أن يتأدى معناه إلى قارئه كما أراده أو يُغلق دونه، فلما اتصل سببه بمجلة "الرسالة" رأى لقارئه عليه حقًّا أكثر من حق نفسه، فكان أسلوبه الجديد الذي

(357) المصدر السابق ص 3/25-26

(358) صحيح مسلم (7028)

أنشأ به الكتاب.

فمن شاء أن يقرأ ما كتب الرافعي ليتذوق أدبه فيأخذ عنه أو يحكم عليه، فليستوثق من نفسه قبلُ، ويستكمل وسائله، فإن اجتمعت له أداته من اللغة والذوق البياني، وأحس إحساس النفس العربية المسلمة فيما تحب وما تكره وما يخطر في أمانيها، فذوقه ذوق وحكمه حكم، وإلا فليُسقط الرافعي من عداد من يقرأ لهم، أو فليسقط نفسه من عداد هذه الأمة.(359)

والكتاب كما يشعر به عنوانه، هو مجموعة فصول ومقالات وقصص، من وحي القلم وفيض الخاطر في ظروف متباينة ، إن هذا الكتاب يجمع كل خصائص الرافعي الأدبية متميزة بوضوح في أسلوبه، كذلك أقول هنا: إنه يجمع كل خصائصه العقلية والنفسية متميزة بوضوح في موضوعه، ففيه خلقه ودينه، وفيه شبابه وعاطفته، وفيه تزمته ووقاره، وفيه فكاهته ومرحه، وفيه غضبه وسخطه، فمن شاء أن يعرف الرافعي عرفان الرأي والفكرة والمعاشرة فليعرفه في هذا الكتاب.

تلخيص الكتاب حسب المباحث

صدر الكتاب البيان

يقول الرافعي في مقدمة كتاب "وحي القلم ":

لا وجود للمقالة البيانية إلا في المعاني التي اشتملت عليها يقيمها الكاتب على حدود ويديرها على طريقة، مصيباً بألفاظه مواقع الشعور، مثيراً بها مكامن الخيال، آخذًا بوزن تاركًا بوزن لتأخذ النفس كما يشاء وتترك.

ونقل حقائق الدنيا نقلًا صحيحًا إلى الكتابة أو الشعر، هو انتزاعها من الحياة في أسلوب وإظهارها للحياة في أسلوب آخر يكون أوفى وأدق وأجمل، لوضعه كل شيء في خاص معناه وكشفه حقائق الدنيا كشفة تحت ظاهرها الملتبس. وتلك هي الصناعة الفنية الكاملة، تستدرك النقص فتتمه، وتتناول السر فتعلنه، وتلمس المقيد فتطلقه، وتأخذ المطلق فتحده، وتكشف الجمال فتظهره، وترفع الحياة درجة في المعنى وتجعل الكلام كأنه وجد لنفسه عقلًا يعيش به.

(359) حياة الرافعي ،ص 27

فالكاتب الحق لا يكتب ليكتب، ولكنه أداة في يد القوة المصورة لهذا الوجود، تُصوِّر به شيئًا من أعمالها فنًّا من التصوير. الحكمة الغامضة تريده على التفسير، تفسير الحقيقة، والخطأ الظاهر يريده على التبيين، تبيين الصواب، والفوضى المائجة تسأله الإقرار، إقرار التناسب، وما وراء الحياة، يتخذ من فكره صلة بالحياة، والدنيا كلها تنتقل فيه مرحلة نفسية لتعلو به أو تنزل. ومن ذلك لا يخلق الملهم أبدًا إلا وفيه أعصابه الكهربائية، وله في قلبه الرقيق مواضع مهيأة للاحتراق تنفذ إليها الأشعة الروحانية، وتتساقط منها بالمعاني.([360])

المجلد الأول

المبحث الأول: اليمامتان

ذكر فيه القصة أرمانوسة المصرية وقال

جاء في تاريخ الواقدي "أن "المقوقس" عظيم القبط في مصر، زوج بنته "أرمانوسة" من "قسطنطين بن هرقل" وجهزها بأموالها حشمًا لتسير إليه، حتى يبني عليها في مدينة قيسارية، فخرجت إلى بلبيس وأقامت بها وجاء عمرو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حصارًا شديدًا، وقاتل من بها، وقتل منهم زهاء ألف فارس، وانهزم من بقي إلى المقوقس، وأخذت أرمانوسة وجميع ما لها، وأخذ كل ما كان للقبط في بلبيس. فأحب عمرو ملاطفة المقوقس، فسير إليه ابنته مكرمة في جميع ما لها، "مع قيس بن أبي العاص السهمي"، فسُرَّ بقدومها".

هذا ما أثبته الواقدي في روايته، ولم يكن معنيًّا إلا بأخبار المغازي والفتوح، فكان يقتصر عليها في الرواية، ثم قال :

كانت لأرمانوسة وصيفة مولدة تسمى "مارية"، ذات جمال يوناني أتمته مصر ومسحته بسحرها، فزاد جمالها على أن يكون مصريا، ونقص الجمال إليوناني أن يكونه، فهو أجمل منهما، ولمصر طبيعة خاصة في الحسن، فهي قد تخمل شيئًا في جمال نسائها أو تشعث منه، وقد لا توفيه جهد محاسنها الرائعة، ولكن متى نشأ فيها جمال ينزع إلى أصل أجنبي أفرغت فيه سحرها إفراغًا، وأبت إلا أن تكون الغالبة عليه، وجعلته آيتها في المقابلة بينه في طابعه

(360) وحي القلم ،ص 12،13

المصري، وبين أصله في طبيعة أرضه كائنة ما كانت؛ تغار على سحرها أن يكون إلا الأعلى.

وكانت مارية هذه مسيحية قوية الدين والعقل، اتخذها المقوقس كنيسة حية لابنته، وهو كان وإليا وبطريركًا على مصر من قبل هرقل؛ وكان من عجائب صنع الله أن الفتح الإسلامي جاء في عهده، فجعل الله قلب هذا الرجل مفتاح القفل القبطي، فلم تكن أبوابهم تدافع إلا بمقدار ما تدفع، تقاتل شيئًا من القتال غير كبير، أما الأبواب الرومية فبقيت مستغلقة حصينة لا تذعن إلا للتحطيم، ووراءها نحو مائة ألف رومي يقاتلون المعجزة الإسلامية التي جاءتهم من بلاد العرب أول ما جاءت في أربعة آلاف رجل، ثم لم يزيدوا آخر ما زادوا على اثني عشر ألفًا. كان الروم مائة ألف مقاتل بأسلحتهم -ولم تكن المدافع معروفة- ولكن روح الإسلام جعلت الجيش العربي كأنه اثنا عشر ألف مِدْفَع بقنابلها، لا يقاتلون بقوة الإنسان، بل بقوة الروح الدينية التي جعلها الإسلام مادة منفجرة تشبه الديناميت قبل أن يُعرَف الديناميت!

ولما نزل عمرو بجيشه على بلبيس، جزعت مارية جزعًا شديدًا؛ إذ كان الروم قد أرجفوا أن هؤلاء العرب قوم جياع ينفضهم الجدب على البلاد نفض الرمال على الأعين في الريح العاصف، وأنهم جراد إنساني لا يغزو إلا لبطنه، وأنهم غلاظ الأكباد كالإبل التي يمتطونها، وأن النساء عندهم كالدواب يُرتبطْنَ على خَسْف، وأنهم لا عهد لهم ولا وفاء، ثُقُلت مطامعهم وخَفَّت أمانتهم، وأن قائدهم عمرو بن العاص كان جزَّارًا في الجاهلية، فما تدعه روح الجزار ولا طبيعته، وقد جاء بأربعة آلاف سالخ من أخلاط الناس وشذاذهم، لا أربعة آلاف مقاتل من جيش له نظام الجيش!

وتوهمت مارية أوهامها، وكانت شاعرة قد درست هي وأرمانوسة أدب يونان وفلسفتهم، وكان لها خيال مشبوب متوقد يشعرها كل عاطفة أكبر مما هي، ويضاعف الأشياء في نفسها، وينزع إلى طبيعته المؤنثة، فيبالغ في تهويل الحزن خاصة، ويجعل من بعض الألفاظ وقودًا على الدم.

قالت أرمانوسة: إن العلماء بهيئة السماء وأجرامها وحساب أفلاكها، ليسوا هم الذين يشقون الفجر ويُطلعون الشمس؛ وأنا أرى أنه لا بد من أمة طبيعية بفطرتها يكون عملها في الحياة إيجاد الأفكار العلمية الصحيحة التي يسير بها العالم، وقد درست المسيح وعمله

وزمنه، فكان طيلة عمره يحاول أن يوجد هذه الأمة، غير أنه أوجدها مصغرة في نفسه وحواريه، وكان عمله كالبدء في تحقيق الشيء العسير، حسبه أن يثبت معنى الإمكان فيه.

قالت مارية: إن هذا والله لسر إلهي يدل على نفسه، فمن طبيعة الإنسان ألا تنبعث نفسه غير مبالية الحياة والموت إلا في أحوال قليلة، تكون طبيعة الإنسان فيها عمياء، كالغضب الأعمى، والحب الأعمى، والتكبر الأعمى، فإذا كانت هذه الأمة الإسلامية كما قلت منبعثة هذا الانبعاث، ليس فيها إلا الشعور بذاتيتها العالية، فما بعد ذلك دليل على أن هذا الدين هو شعور الإنسان بسموّ ذاتيته، وهذه هي نهاية النهايات في الفلسفة والحكمة.

وجعلت هذه الحقائق الإسلامية وأمثالها تُعرّب هذا العقل اليوناني، فلما أراد عمرو بن العاص توجيه أرمانوسة إلى أبيها، وانتهى ذلك إلى مارية قالت لها: لا يجمل بمن كانت مثلك في شرفها وعقلها أن تكون كالأخيذة، تتوجه حيث يُسار بها، والرأي أن تبدئي هذا القائد قبل أن يبدأكِ، فأرسلي إليه فأعلميه أنك راجعة إلى أبيك، واسإليه أن يُصحبك بعض رجاله، فتكوني الآمرة حتى في الأسر، وتصنعي صنع بنات الملوك.

قالت أرمانوسة: فلا أجد لذلك خيرًا منك في لسانك ودهائك، فاذهبي إليه من قِبَلي، وسيصحبك الراهب "شطا"، وخذي معك كوكبة من فرساننا.

اجتلاء العيد

جاء يوم العيد، يوم الخروج من الزمن إلى زمن وحده لا يستمر أكثر من يوم.

زمن قصير ظريف ضاحك، تفرضه الأديان على الناس، ليكون لهم بين الحين والحين يوم طبيعي في هذه الحياة التي انتقلت عن طبيعتها. كما قيل عن يوم العيد :

يوم السلام، والبشر، والضحك، والوفاء، والإخاء، وقول الإنسان للإنسان: وأنتم بخير.

يوم الثياب الجديدة على الكل، إشعارًا لهم بأن الوجه الإنساني جديد في هذا اليوم.

يوم الزينة التي لا يراد منها إلا إظهار أثرها على النفس ليكون الناس جميعًا في يوم حب.يوم العيد، يوم تقديم الحلوى إلى كل فم لتحلو الكلمات فيه.

يوم تعم فيه الناس ألفاظ الدعاء والتهنئة مرتفعة بقوة إلهية فوق منازعات الحياة.

ذلك اليوم الذي ينظر فيه الإنسان إلى نفسه نظرة تلمح السعادة، وإلى أهله نظرة تبصر

الإعزاز، وإلى داره نظرة تدرك الجمال، وإلى الناس نظرة ترى الصداقة.
ومن كل هذه النظرات تستوي له النظرة الجميلة إلى الحياة والعالم؛ فتبتهج نفسه بالعالم والحياة.وما أسماها نظرة تكشف للإنسان أن الكل جماله في الكل!وخرجت أجتلي العيد في مظهره الحقيقي على هؤلاء الأطفال السعداء.على هذه الوجوه النضرة التي كبِرت فيها ابتسامات الرضاع فصارت ضحكات.وهذه العيون الحالمة، الحالمة إذا بكت بكت بدموع لا ثقل لها.وهذه الأفواه الصغيرة التي تنطق بأصوات لا تزال فيها نبرات الحنان من تقليد لغة الأم.

المعنى السياسي في العيد

ما أشد حاجتنا نحن -المسلمين- إلى أن نفهم أعيادنا فهمًا جديدًا، نتلقاها به ونأخذها من ناحيته، فتجيء أيامًا سعيدة عاملة، تنبه فينا أوصافها القوية، وتجدد نفوسنا بمعانيها، لا كما تجيء الآن كالحة عاطلة ممسوحة من المعنى، أكبر عملها تجديد الثياب، وتحديد الفراغ، وزيادة ابتسامة على النفاق.
فالعيد إنما هو المعنى الذي يكون في اليوم لا اليوم نفسه، وكما يفهم الناس هذا المعنى يتلقون هذا اليوم؛ وكان العيد في الإسلام هو عيد الفكرة العابدة، فأصبح عيد الفكرة العابثة؛ وكانت عبادة الفكرة جمعها الأمة في إرادة واحدة على حقيقة عملية، فأصبح عبث الفكرة جمعها الأمة على تقليد بغير حقيقة؛ له مظهر المنفعة وليس له معناها.
ليس العيد إلا إشعار هذه الأمة بأن فيها قوة تغيير الأيام.
وليس العيد للأمة إلا يومًا تعرض فيه جمال نظامها الاجتماعي.
وليس العيد إلا تعليم الأمة كيف تتسع روح الجوار وتمتد، حتى يرجع البلد العظيم وكأنه لأهله دار واحدة يتحقق فيها الإخاء بمعناه العملي.
وليس العيد إلا إظهار الذاتية الجميلة للشعب مهزوزة من نشاط الحياة؛ وإلا ذاتية للأمم الضعيفة؛ ولا نشاط للأمم المستعبدة.
وليس العيد إلا إبراز الكتلة الاجتماعية للأمة متميزة بطابعها الشعبي، مفصولة من الأجانب، لابسة من عمل أيديها، معلنة بعيدها استقلالين في وجودها وصناعتها، ظاهرة بقوتين في إيمانها وطبيعتها.

وليس العيد إلا التقاء الكبار والصغار في معنى الفرح بالحياة الناجحة المتقدمة في طريقها، وترك الصغار يلقون درسهم الطبيعي في حماسة الفرح والبهجة، ويعلّمون كبارهم كيف توضع المعاني في بعض الألفاظ التي فَرَغَتْ عندهم من معانيها.

وليس العيد إلا تعليم الأمة كيف توجه بقوتها حركة الزمن إلى معنى واحد كلما شاءت؛ فقد وضع لها الدين هذه القاعدة لتُخرِّج عليها الأمثلة، فتجعل للوطن عيدًا مإليا اقتصاديًّا تبتسم فيه الدراهم بعضها إلى بعض.

هذه المعاني السياسية القوية هي التي من أجلها فُرض العيد ميراثًا دهريًّا في الإسلام، ليستخرج أهل كل زمن من معاني زمنهم فيضيفوا إلى المثال أمثلة مما يبدعه نشاط الأمة، ويحققه خيالها، وتقتضيه مصالحها.

الربيع

خرجتُ أشهد الطبيعة كيف تُصبح كالمعشوق الجميل، لا يقدم لعاشقه إلا أسباب حبه! وكيف تكون كالحبيب، يزيد في الجسم حاسة لمس المعاني الجميلة!

وكنتُ كالقلب المهجور الحزين وجد السماء والأرض، ولم يجد فيهما سماءه وأرضه.

ألا كم آلاف السنين وآلافها قد مضت منذ أُخرج آدم من الجنة!

ومع ذلك، فالتاريخ يعيد نفسه في القلب؛ لا يحزن هذا القلب إلا شعر كأنه طُرد من الجنة لساعته.يقف الشاعر بإزاء جمال الطبيعة، فلا يملك إلا أن يتدفق ويهتز ويطرَب.لأن السر الذي انبثق هنا في الأرض، يريد أن ينبثق هناك في النفس.

والشاعر نبي هذه الديانة الرقيقة التي من شريعتها إصلاح الناس بالجمال والخير.وكل حُسن يلتمس النظرة الحية التي تراه جميلًا لتعطيه معناه.وبهذا تقف الطبيعة محتفلة أمام الشاعر، كوقوف المرأة الحسناء أمام المصور.لاحت لي الأزهار كأنها ألفاظ حب رقيقة مغشاة باستعارات ومجازات.والنسيم حولها كثوب الحسناء على الحسناء، فيه تعبير من لابسته.

وكل زهرة كابتسامة، تحتها أسرار من معاني القلب المعقدة. ما أعجب سر الحياة! كل شجرة في الربيع جمال هندسي مستقل.

ومهما قطعتَ منها وغيرتَ من شكلها أبرزتها الحياة في جمال هندسي جديد كأنك

أصلحتَها.

ولو لم يبق منها إلا جذر حي أسرعت الحياة فجعلت له شكلًا من غصون وأوراق.

الحياة الحياة، إذا أنت لم تفسدها جاءتك دائمًا هداياها.وإذا آمنت لم تعد بمقدار نفسك، ولكن بمقدار القوة التي أنت بها مؤمن.

﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ (361).

وانظر كيف يجعل في الأرض معنى السرور، وفي الجو معنى السعادة.

عرش الورد

كانت جَلْوَة العروس كأنها تصنيف من حلم، توافت عليه أخيلة السعادة فأبدعت إبداعها فيه، حتى إذا اتسق وتم، نقلته السعادة إلى الحياة في يوم من أيامها الفردة التي لا يتفق منها في العمر الطويل إلا العدد القليل، لتحقق للحي وجود حياته بسحرها وجمالها، وتعطيه فيما يُنسَى ما لا يُنسى.

خرج الحلم السعيد من تحت النوم إلى اليقظة، وبرز من الخيال إلى العين، وتمثل قصيدة بارعة جعلت كل ما في المكان يحيا حياة الشعر، فالأنوار نساء، والنساء أنوار، والأزهار أنوار ونساء، والموسيقى بين ذلك تتّم من كل شيء معناه، والمكان وما فيه، وزن في وزن، ونغم في نغم، وسحر في سحر.

ورأيت كأنما سُحر الربيع، فاجتمع في عرش أخضر، قد رُصِّع بالورد الأحمر، وأقيم في صدر البَهْو ليكون منصة للعروس، وقد نسقت الأزهار في سمائه وحواشيه على نظمين: منهما مفصل ترى فيه بين الزهرتين من اللون الواحد زهرة تخالف لونهما، ومنهما مكدس بعضه فوق بعض، من لون متشابه أو متقارب، فبدا كأنه عش طائر ملكي من طيور الجنة أبدع في نسجه وترصيعه بأشجار سقى الكوثر أغصانها.

وقامت في أرض العرش تحت أقدام العروسين، ربوتان من أفانين الزهر المختلفة ألوانه، يحملهما خَمْل من ناعم النسيج الأخضر على غصونه اللُّدْن تتهافت من رقتها ونعومتها.

سمو الحب

صاح المنادي في موسم الحج: "لا يُفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح" وكذلك كان يفعل

(361) الروم: 50

خلفاء بني أمية؛ يأمرون صائحهم في الموسم، أن يدل الناس على مفتي مكة وإمامها وعالمها، ليلقوه بمسائلهم في الدين، ثم ليمسك غيره عن الفتوى، إذ هو الحجة القاطعة لا ينبغي أن يكون معها غيرها مما يختلف عليها أو يعارضها، وليس للحجج إلا أن تظاهرها وتترادف على معناها.

وجلس عطاء يتحين الصلاة في المسجد الحرام، فوقف عليه رجل وقال: يا أبا محمد، أنت أفتيت كما قال الشاعر:

سل المفتي المكي: هل في تزاوروضمة مشتاق الفؤاد جُنَاح؟

فقال: معاذ الله أن يذهب التقتلاصق أكباد بهن جراح!

فرفع الشيخ رأسه وقال: والله ما قلت شيئًا من هذا، ولكن الشاعر هو نحلني هذا الرأي الذي نفثه الشيطان على لسانه، وإني لأخاف أن تشيع القالة في الناس، فإذا كان غد وجلست في حلقتي فاغد علي، فإني قائل شيئًا.

وذهب الخبر يؤُجّ كما تؤجج النار، وتعالم الناس أن عطاء سيتكلم في الحب، وعجبوا كيف يدري الحب أو يحسن أن يقول فيه من غَبَر عشرين سنة فراشه المسجد، وقد سمع من عائشة أم المؤمنين، وأبي هريرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن عباس بحر العلم.

قال: وكان مجلسه في قصة يوسف عليه السلام، ووافقته وهو يتكلم في تأويل قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ، وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ (362).

قال عبد الرحمن: فسمعت كلامًا قدسيًّا تضع له الملائكة أجنحتها من رضى وإعجاب بفقيه الحجاز. حفظت منه قوله:

عجبًا للحب! هذه ملكة تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمن بخس؛ ولكن أين مُلكها وسطوة ملكها في تصوير الآية الكريمة؟ لم تزد الآية على أن قالت: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي} و{الَّتِي} هذه كلمة تدل على كل امرأة كائنة من كانت؛ فلم يبق على الحب مُلك ولا منزلة؛ وزالت

(362) يوسف 23،24

الملكة من الأنثى!

وأعجب من هذا كلمة {وَرَاوَدَتْهُ} وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها، لون بعد لون، ذاهبة إلى فن، راجعة من فن، لأن الكلمة مأخوذة من رَوَدَان الإبل في مشيتها، تذهب وتجيء في رفق. وهذا يصور حيرة المرأة العاشقة، واضطرابها في حبها، ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها، كما يصور كبرياء الأنثى إذ تختال وتترفق في عرض ضعفها الطبيعي كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعتها، فهما تتهالك على من تحب وجب أن يكون لهذا "الشيء الآخر" مظهر امتناع أو مظهر تحير أو مظهر اضطراب، وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعة ماضية مصممة.

ثم قال: {عَنْ نَفْسِهِ} ليدل على أنها لا تطمع فيه، ولكن في طبيعته البشرية، فهي تعرض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها، وكأن الآية مصرحة في أدب سام كل السمو، منزه غاية التنزيه بما معناه: "إن المرأة بذلت كل ما تستطيع في إغرائه وتصبنيه، مقبلة عليه ومتدللة ومتبذلة ومنصبة من كل جهة، بما في جسمها وجمالها على طبيعته البشرية، وعارضة كل ذلك عرض امرأة خلعت -أول ما خلعت- أمام عينيه ثوب الملك".

ثم قال: {وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ} ولم يقل "أغلقت" وهذا يشعر أنها لما يئست، ورأت منه محاولة الانصراف، أسرعت في ثورة نفسها مهتاجة تخيل القفل الواحد أقفالًا عدة، وتجري من باب إلى باب، وتضطرب يدها في الأغلاق، كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط.

{وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ} ومعناها في هذا الموقف أن إليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده، فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعد لا ملكة ولا امرأة، بل أنوثة حيوانية صرفة، متكشفة مصرحة، كما تكون أنثى الحيوان في أشد اهتياجها وغليانها. هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض، وفيها طبيعة الأنوثة نازلة من أعلاها إلى أسفلها. فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها ولم يبق وراء ذلك شيء تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثم عظمة الرجولة السامية المتمكنة في معانيها، فقال يوسف: {مَعَاذَ اللَّهِ} ثم قال: {إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ} ثم قال: {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} أن الآية الكريمة تريد ألا تنفي عن يوسف -عليه السلام- فحولة الرجولة، حتى لا يُظن به، ثم هي تريد من ذلك أن يتعلم

الرجال، وخاصة الشبان منهم، كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق الشهوات، حتى في الحالة التي هي نهاية قدرة الطبيعة؛ حالة ملكة مطاعة فاتنة عاشقة مختلية متعرضة متكشفة متهالكة. هنا لا ينبغي أن ييأس الرجل، فإن الوسيلة التي تجعله لا يرى شيئًا من هذا، هي أن يرى برهان ربه.

وهذا البرهان يؤوله كل إنسان بما شاء، فهو كالمفتاح الذي يوضع في الأقفال كلها فيفُضها كلها؛ فإذا مثل الرجل لنفسه في تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتصبان أمام الله يراهما، وأن أماني القلب التي تهجس فيه ويظنها خافية إنما هي صوت عالٍ يسمعه الله؛ وإذا تذكر أنه سيموت ويقبر، وفكر فيما يصنع الثرى في جسمه هذا، أو فكر في موقفه يوم تشهد عليه أعضاؤه بما كان يعمل، أو فكر في أن هذا الإثم الذي يقترفه الآن سيكون مرجعه عليه في أخته أو بنته، إذا فكر في هذا ونحوه رأى برهان ربه يطالعه فجأة، كما يكون السائر في الطريق غافلًا مندفعًا إلى هاوية، ثم ينظر فجأة فيرى برهان عينه؛ أترونه يتردى في الهاوية حينئذ، أم يقف دونها وينجو؟ احفظوا هذه الكلمة الواحدة التي فيها أكثر الكلام، وأكثر الموعظة، وأكثر التربية، والتي هي كالدرع في المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان، كلمة {رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ}.

قصة زواج وفلسفة المهر

قال رسول عبد الملك: ويحك "يا أبا محمد" لكأن دمك والله من عدوك؛ فهو يفور بك لتلج في العناد فتقتل، وكأني بك والله بين سَبُعين قد فغرا عليك؛ هذا عن يمينك وهذا عن يسارك، ما تفر من حتف إلا إلى حتف، ولا ترحمك الأنياب إلا بمخاليبها.

ههنا هشام بن إسماعيل عامل أمير المؤمنين، إن دخلته الرحمة لك استوثق منك في الحديد، ورمى بك إلى دمشق، وهناك أمير المؤمنين، وما هو والله إلا أن يطعم لحمك السيف يعض بك عض الحية في أنيابها السم، وكأني بهذا الجنب مصروعًا لمضجعه، وبهذا الوجه مضرجًا بدمائه، وبهذه اللحية معفرة بترابها، وبهذا الرأس محتزًّا في يد "أبي الزعيزعة" جلاد أمير المؤمنين، يلقيه من سيفه رمي الغصن بالثمرة قد ثقلت عليه.

قال الشيخ: روينا أن عمر "رضي الله عنه" كان ينهى عن المغالاة في الصداق، ويقول: "ما تزوج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولا زوَّج بناته بأكثر من أربعمائة درهم"،

ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله، صلى الله عليه وسلم.
وروينا عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "خير النساء أحسنهن وجوهًا، وأرخصهن مهورًا".

ولقد تزوج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت، وكان الأثاث: رحى يد، وجرة ماء، ووسادة من أدم حشوها ليف.

وما الصداق في قليله وكثيره، إلا كالإيماء إلى الرجولة وقدرتها، فهو إيماء، ولكن الرجل قبْل. إن كل امرئ يستطيع أن يحمل سيفًا، والسيف إيماء إلى القوة، غير أنه ليس كل ذوي السيوف سواء، وقد يحمل الجبان في كل يد سيفًا، ويملك في داره مائة سيف، فهو إيماء، ولكن البطل قبْلُ، ولكن البطل قبْلُ.

أما من كتاب الله فقد قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (363). فهي زوجُه حين تجده هو لا حين تجد ماله؛ وهي زوجه حين تتمه لا حين تنقصه، وحين تلائمه لا حين تختلف عليه؛ فمصلحة المرأة زوجة ما يجعلها من زوجها، فيكونان معًا كالنفس الواحدة، على ما ترى للعضو من جسمه؛ يريد من جسمه الحياة لا غيرها.

ذيل القصة وفلسفة المال

ذهب الناس يمينًا وشمالًا فيما كتبناه من خبر الإمام سعيد بن المسيب وتزويجه ابنته من طالب علم فقير، بعد إذ ضن بها أن تكون زوجًا لولي عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؛ وقد جعلت قلوب بعض النساء العصريات المتعلمات تصيح وتُوَلْوِل... وحدثنا أديب ظريف أن إحداهن سألت عن عنوان عبد الملك بن مروان!.

أفتُراها ستكتب إليه أنها تقبل الزواج من ولي عهده؟

على أن للقصة ذيلًا، فإن الطبيعة الآدمية لا عصر لها، بل هي طبيعة كل عصر؛ والفضيلة الإنسانية يبدأ تاريخها من الجنة، فهي هي لا تتجدد ولا تزال تلوح وتختفي؛ أما الرذيلة فأول تاريخها من الطبيعة نفسها، فهي هي لا تتغير ولا تزال تظهر وتستسر.

لما زوج الإمام ابنته من ابن أبي وداعة، أخذها بنفسه إليه في يوم زوّجها منه، ومشى

(363) النساء: 1

بها في طريق حصاه عنده أفضل من الدر، وترابه أكرم من الذهب. طارت الحادثة في الناس، واستفاض لهم قول كثير: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (364) وقد قال جماعة منهم: تالله لئن انقطع الوحي، إن في معانيه بقية ما تزال تنزل على بعض القلوب التي تشبه في عظمتها قلوب الأنبياء، وما هذه الحادثة على الدنيا إلا في معنى سورة من السور قد انشقت لها السماء، ونزل بها جبريل يخفُق على أفئدة المؤمنين خفقة إيمان.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ (365). وقال أناس منهم: أما والله لو تهيأ لأحدنا أن يكون لصا يسرق أمير المؤمنين، أو ابن أمير المؤمنين، لركب رأسه في ذلك، ما يردّه عن السرقة شيء، فكيف بمن تهيأ له الصهر والحسب، وجاءه الغنى يطرق بابه، ما باله يردّ كل ذلك ويخزي ابنته برجل فقير تعيش في داره بأسوأ حال، وكيف تثقل همته وتبطؤ وتموت، إذا كان الدر والجوهر والذهب والخلافة، ثم ينبعث ويمضي لا يتلكأ عزمه، إذا كان العلم والفقر والدين والتقوى؟

وانتهى كلام الناس إلى الإمام العظيم، فلم يجئه إلا من الظن خفيًّا خفيًّا، كأنما هي أقوال حسبها ثقال عنه بعد خمسين وثلاثمائة وألف سنة "في زمننا هذا" حين يكون هو في معاني السماء، ويكون القائلون في معاني التراب النجس الذي نفضته على الشرق نعال الأوروبيين؟

وكان إمامنا يفسر قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (366) .

قال الراوي: فكان فيما قاله الشيخ:

إذا هُدي المرء سبيله كانت السبل الأخرى في الحياة إما عداء له، وإما معارضة، وإما ردًّا، فهو منها في الأذى، أو في معنى الأذى، أو عُرْضة للأذى.

استنوق الجمل

قال الشاب: لا قِبَلَ لي بهذا التعب المعني الذي يسمونه "الزواج" فما هو إلا بيت ثقله على

(364) التوبة: 124
(365) التوبة: 125
(366) إبراهيم: 12

شيئين: على الأرض، وعلى نفسي؛ وامرأة همها في موضعين: في دارها، وفي قلبي؛ وما هو إلا أطفال يُلزمونني عمل الأيدي الكثيرة من حيث لا أملك إلا يدين اثنتين، وأتحمل فيهم رهقًا شديدًا كأنما أبنيهم بأيامي، وأجمع هموم رءوسهم كلها في رأس واحد هو رأسي أنا.

يولد كل منهم بمعدة تهضم لتوها وساعتها، ثم لا شيء معها من يد أو رجل أو عقل إلا هو عاجز لا يستقل، متخاذل لا يطيق ولا يقدر.

قال: وإذا كان أول الزواج أي: عسله وحلواه أنه امرأة تُذهب عزوبتي، فأنا وأمثالي ما نزال في عسل وحلوى ولكل وقت زواج، ولكل عصر أفكار، وما أسخف الليالي إذا هو ترادفت على ضرب واحد من أحلامها، فهذا يجعل النوم حكمًا بالسجن عشر ساعات!

قال: وإذا أردت أن تستكشف القصة فاعلم أننا -نحن العزاب- قوم كرجال الفن؛ رذيلتهم فنية، وفضيلتهم فنية، فتلك وهذه بسبيل؛ وكل شيء في الفن هو لموضعه من الفن لا من غيره، فإذا قلتَ: هذا خالٍ من الفضيلة، عار من الأدب؛ وعبت الفن لذلك، فما هو إلا كعيبك وجه المرأة الجميلة لأنه خال من لحية! هات الظلام وسواده، فإنه لون كالنور وإشراقه، لا بد من كليهما؛ إذ المعنى الفني إنما يكون في تناسب الأشياء لا في الأشياء ذاتها؛ ويد الفني كيد الغني؛ هذه لا يقع فيها الذهب إلا ليعدد ثم يتعدد؛ وتلك لا تقع فيها المرأة إلا لتتعدد ثم تتعدد؛ وفي كل دينار قوة جديدة، وفي كل امرأة فن جديد.

قال: ومذهبنا في الحياة أن نستمتع بها ضروبًا وأفانين؛ من أطاق لم يقتصر على نوعين، ومن قدر على نوعين لم يرض الواحد؛ ولو أن زوجة كانت من أشعة الكواكب أو من قطرات الندى، لثقل منها على حياتنا ما يثقل من الحديد والصَّوَّان؛ إذ هي لا تلد أشعة كواكب، ولا قطرات ندى؛ وحَسْب الجسد برأس واحد حِمْلًا.

المجلد الثاني

الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام

كما تطلع الشمس بأنوارها فتفجر ينبوع الضوء المسمى النهار، يولد النبي فيوجد في الإنسانية ينبوع النور المسمى بالدين. وليس النهار إلا يقظة الحياة تحقق أعمالها، وليس الدين إلا

يقظة النفس تحقق فضائلها.
والشمس خلقها الله حاملة طابعه الإلهي، في عملها للمادة تحول به وتغير، والنبي يرسله الله حاملا مثل ذلك الطابع في عمله تترقى فيه وتسمو.
ورعشات الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون في كلام من النور، وأشعة الوحي في النبي هي قصة الهداية لإنسان الكون نور من الكلام.
والعامل الإلهي العظيم يعمل في نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين: أجرام النور من الشموس والكواكب، وأجرام العقل من الرسل والأنبياء.
فليس النبي إنسانا من العظماء يقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق، ومع المنطق الشك، ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة، ولكنه إنسان نجمي يقرأ بمثل "التلسكوب" في الدقة، معه العلم، ومع العلم الإيمان، ثم يدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها.
والحياة تنشئ علم التاريخ، ولكن هذه الطريقة في درس الأنبياء -صلوات الله عليهم- تجعل التاريخ هو ينشئ علم الحياة، فإنما النبي إشراق إلهي على الإنسانية، يقومها في فلكها الأخلاقي، ويجذبها إلى الكمال في نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب.
وما الشهادة للنبوة إلا أن تكون في نفس النبي أبلغ نفوس قومه، حتى لهو في طباعه وشمائله طبيعة قائمة وحدها، كأنها الوضع النفساني الدقيق الذي ينصب لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية في عالم المادة وتنازع البقاء. وكأن الحقيقة السامية في هذا النبي تنادي الناس: أن قابلوا على هذا الأصل وصححوا ما اعترى أنفسكم من غلط الحياة وتحريف الإنسانية.ومن ثم فنبي البشرية كلها من بعث بالدين أعمالا مفصلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها، فهو يعطي الحياة في كل عصر عقلها العملي الثابت المتجدد المتغير تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى، وهذه هي حقيقة الإسلام في أخص معانيه، لا يغني عنه في ذلك دين آخر، ولا يؤدي تأديته في هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة، كأنما هو نبع في الأرض لمعاني النور، بإزاء الشمس نبع النور في السماء.

حقيقة المسلم

لا يعرف التاريخ غير محمد صلى الله عليه وسلم رجلًا أفرغ الله وجوده في الوجود الإنساني

كله، كما تنصب المادة في المادة، لتمتزج بها فتحولها، فتحدث منها الجديد، فإذا الإنسانية تتحول به وتنمو، وإذا هو صلى الله عليه وسلم وجود سار فيها فما تبرح هذه الإنسانية تنمو به وتتحول.

كان المعنى الآدمي في هذه الإنسانية كأنما وهن من طول الدهر عليه، يتحيفه ويمحوه ويتعاوره بالشر والمنكر؛ فابتعث الله تاريخ العقل بآدم جديد بدأت به الدنيا في تطورها الأعلى من حيث يرتفع الإنسان على ذاته، كما بدأت من حيث يوجد الإنسان في ذاته؛ فكانت الإنسانية دهرها بين اثنين: أحدهما فتح لها طريق المجيء من الجنة، والثاني فتح لها طريق العودة إليها، كان في آدم سر وجود الإنسانية، وكان في محمد سر كمالها.

ولهذا سمي الدين "بالإسلام"؛ لأنه إسلام النفس إلى واجبها، أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية؛ كأن المسلم ينكر ذاته فيسلمها إلى الإنسانية تصرفها وتعتملها في كمالها ومعاليها؛ فلا حظ له هو من نفسه يمسكها على شهواته ومنافعه، ولكن للإنسانية بها الحظ.

بالانصراف إلى الصلاة وجمع النية عليها، يستشعر المسلم أنه قد حطم الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان، وخرج منها إلى روحانية لا يحد فيها إلا بالله وحده.

وبالقيام في الصلاة، يحقق المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر السامي على الجسم كله، ليمتزج بجلال الكون ووقاره، كأنه كائن منتصب مع الكائنات يسبح بحمده.

وحي الهجرة

إن التاريخ ليتكلم بلغة أوسع من ألفاظه إذا قرأه من يقرؤه على أنه بعض نواميس الوجود، صورت فيها النفس الإنسانية كيف اعتورت أغرضها، وكيف مدت في نسقها، وكيف تغلغلت في مسالكها، وما تأتي لها فجرت به مجراها، وما دفعها فانحدرت منه إلى مقارها، فهو ليس بكلام تستقبله تقرأ فيه، ولكنه أحوال من الوجود تعترضها فتغير عليك حسك بإلهامها وأحلامها، وتتناولها من ناحية فتتناولك من الأخرى؛ فإذا الكلمة من ورائها معنى، من ورائه طبيعة، من ورائها سبب وحكمة؛ وإذا كل حادثة فيها إنسانيتها وإلهيتها معا، وإذا الوجود في ذهنك كالساعة ترسم لك حد الثانية بخطرتين، وحد الدقيقة من عدد محدود من الثواني، وحد الساعة إلى حد اليوم؛ وإذا البيان في نفسك من كل هذه الحواشي، وإذا التاريخ فيا تقرؤه مفنن في ظاهره وباطنه يفيء عليك من ألفاظه ومعانيه

بظلال هي صلتك أنت أيها الحي الموجود بأسرار ما كان موجودًا من قبل.
كذلك قرأت بالأمس تاريخ الهجرة النبوية في كتاب أبي جعفر الطبري لأكتب عنه هذه الكلمة، فلم أكن -علم الله- في كتاب ولا في حكاية، بل في عالم انبثق في نفسي مخلوقا تأما بأهله، وحوادث أهله، وأسرار أهله جميعًا، كما يرى المحب حبيبه، لا يكون الجميل في محل إلا امتلأ مكانه بعاشقه، فهو مكان من النفس، لا من الدنيا وحدها، وفيه الحياة كما هي في الوجود بمظهر المادة، وكما هي في الحب بمظهر الروح.
ثم كان أول النمو في الإسلام بحر وعبد: أما الحر فأبو بكر، وأما العبد فبلال، ثم اتسق النمو قليلا قليلا ببطء الهموم في سيرها، وصبر الحر في تجلده؛ وكأن التاريخ واقف لا يتزحزح، ضيق لا يتسع، جامد لا ينمو؛ وكأن النبي صلى الله عليه وسلم أخو الشمس، يطلع كلاهما وحده كل يوم. حتى إذا كانت الهجرة من بعد، فانتقل الرسول إلى المدينة، بدأت الدنيا تتقلقل، كأنما مر بقدمه على مركزها فحركها؛ وكانت خطواته في هجرته تخط في الأرض، ومعانيها تخط في التاريخ؛ وكانت المسافة بين مكة والمدينة، ومعناها بين المشرق والمغرب.

فلسفة قصة

ماتت خديجة الكبرى رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم ومات عمه أبو طالب في عام واحد، في السنة العاشرة من النبوة، فعظمت المصيبة فيهما عليه، إذ كان عمه هذا يمنعه من أذى قريش، ويقوم دونه فلا يخلصون إليه بمكروه؛ وكان أبو طالب من قريش كالعقيدة السياسية، هي بطبيعتها قوة نافذة على قوة القبيلة؛ فمن ثم كان هو وحده المشكلة النفسية المعقدة التي تعمل قريش جاهدة في حلها، وقامت المعركة الإسلامية الأولى بين إرادتهم وإرادته، وهم أمة تحكمهم الكلمة الاجتماعية التي تسير عنهم في القبائل؛ وتاريخهم ما يقال في الألسنة من معاني المدح والذم، فيخشون المقالة أكثر مما يخشون الغارة، وقد لا يبالون بالقتلى والجرحى منهم، ولكنهم يبالون بالكلمات المجروحة.
فكان من لطيف صنع الله للإسلام، وعجيب تدبيره في حماية نبيه صلى الله عليه وسلم، وضع هذه القوة النفسية في أول تاريخ النبوة، تشتغل بها سخافات قريش، وتكون عملا لفراغهم الروحي، وتثير فيهم الإشكال السياسي الذي يعطل قانونهم الوحشي إلى أن يتم

عمل الأسباب الخفية التي تكسر هذا القانون، فإن المصنع الإلهي لا يخرج أعماله التامة العظيمة إلا من أجزاء دقيقة.

أما خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فكانت في هذه المحنة قلبا مع قلبه العظيم، وكانت لنفسه كقوله "نعم" للكلمة الصادقة التي يقول لها كل الناس "لا"؛ وما زالت المرأة الكاملة المحبوبة هي التي تعطي الرجل ما نقص من معاني الحياة، وتلد له المسرات من عواطفها كما تلد من أحشائها فالوجود يعمل بها عملين عظيمين: أحدهما زيادة الحياة في الأجسام، والآخر إتمام نقصها في المعاني.

قصة الإسراء والمعراج هي من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هذا النجم الإنساني العظيم؛ وهو النور المتجسد لهداية العالم في حيرة ظلماته النفسية؛ فإن سماء الإنسان تظلم وتضيء من داخله بأغراضه ومعانيه. والله -تعالى- قد خلق للعالم الأرضي شمسا واحدة تنيره وتحييه وتتقلب عليه بليله ونهاره، بيد أنه ترك لكل إنسان أن يصنع لنفسه شمس قلبه وغمامها وسحائبها وما تسفر به وما تظلم فيه. ولهذا سمي القرآن نورا لعمل آدابه في النفس، ووصف المؤمنون بأنهم ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ ([367])، وكان أثر الإيمان والتقوى في تعبير القرآن الكريم أن يجعل الله للمؤمنين نورا يشمون به. وقد حار المفسرون في حكمة ذكر "الليل" في آية "الإسراء" من قوله -تعالى-: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ ([368]) . فإن السرى في لغة العرب لا يكون إلا ليلا.

والحكمة هي الإشارة إلى أن القصة قصة "النجم" الإنساني العظيم الذي تحول من إنسانيته إلى نوره السماوي في هذه المعجزة، ويتم هذه العجيبة أن آيات "المعراج" لم تجئ إلا في سورة: "والنجم".

ومن ثم كان الإنسان إذا سما درجة واحدة في ثبات قواه الروحية، سما بها درجات فوق الدنيا وما فيها، وسخرت له المعاني التي تسخر غيره من الناس، ونشأت له نواميس أخلاقية غير النواميس التي تتسلط بها الأهواء. ومتى وجد الشيء من الأشياء كانت طبائع وجوده هي نواميسه؛ فالنار مثلا إذا هي تضرمت أوجدت الإحراق فيما يحترق،

(367) الحديد: 12

(368) الإسراء: 1

فإن وضع فيها ما لا يحترق أبطل نواميسها وغلب عليها.
فحقيقة النبوة أنها قوة من الوجود في إنسان مختار جاءت تصلح الوجود الإنساني به لتقر في هذه الحيوانية المهذبة مثلها الأعلى، بدلالتها على طريقها النفسي مع طريقها الطبيعي، فيكون مع الانحطاط الرقي، ومع النقص الكمال، ومع حكم الغريزة التحكم في الغريزة، ومع الظلمة المادية الإشراق الروحاني.

الإنسانية العليا :

من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم إنه كان متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة، ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت لا يذم منها شيئا، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها؛ وكان خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه ولا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه، ولا يطوي عن أحد من الناس بشره، قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبا، وصاروا عنده في الحق سواء؛ يحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف؛ وكان أشد الناس حياء، لا يثبت بصره في وجه أحد، له نور يعلوه كأن الشمس تجري في وجهه، لا يؤيس راجيه، ولا يخيب عافيه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول؛ أجود الناس بالخير.([369]).

صلى الله وسلم على صاحب هذه الصفات التي لا يجد الكمال الإنساني مذهبا عنها ولا عن شيء منها، ولا يجد النقص البشري مساغا إليها ولا إلى شيء منها؛ ففيها المعنى التام للإنسانية، كما أن فيها المعنى التام للحق، ومن اجتماع هذين يكون فيها المعنى التام للإيمان.
هي صفات إنسانها العظيم، وقد اجتمعت له لتأخذ عنه الحياة إنسانيتها العالية؛ فهي بذلك من برهانات نبوته ورسالته.ولو جمعت كل أوصافه صلى الله عليه وسلم ونظمتها بعضها إلى بعض، واعتبرتها بأسرارها العلمية لرأيت منها كونا معنويا دقيقا قائما بهذا الإنسان الأعظم، كما يقوم هذاالكون الكبير بسننه وأصول الحكمة فيه، ولأيقنت أن هذا النبي

(369) حياة الرافعي ص 241

الكريم إن هو إلا معجم نفسي حي ألفته الحكمة الإلهية بعلم من علمها، وقوة من قوتها، لتتخرج به الأمة التي تبدع العالم إبداعا جديدًا، وتنشئه النشأة المحفوظة له في أطوار كماله.

حماسة الشعب

وحدثني باشا قال: لما رجع سعد باشا من أوروبا في سنة 1921، كانت الأمة في استقباله كأنها طائر مد جناحيه، لا خلاف لشيء منه على شيء منه، بل كله هو كله؛ وكانت المعارضة في الاستحالة يومئذ كاستحالة وجود رقعة في ريش الطائر.

على أن ثوب السياسة المصرية كثير الرقع دائما بالجديد والخلق، فرقعة من المعارضين، وأخرى من المتعنتين، وثالثة من المتخاذلين، ورابعة من المعادين، وخامسة وسادسة وسابعة من الحاسدين والمنافسين والمختلفين لشهوة الخلاف؛ ورقاع بعد ذلك مما نعلم وما لا نعلم، فإن من العجيب أن هذا الجو الذي لا يتقلب إلا بطيئا، يتقلب أهله بسرعة؛ وهذه الطبيعة التي لا تكاد تختلف، لا يكاد أهلها يتفقون.

ولكن سعدا "رحمة الله" رجع من أوروبا رجعة الكرامة لأمة كاملة، ففاز بأنه لم يخسر شيئا من الحق، وانتصر بأنه لم يهزم، ودل على ثباته بأنه لم يتزعزع، وذهب صولة ورجع صولة وعزيمة؛ فكان إيمان الشعب هو الذي يتلقاه، وكانت الثورة هي التي تحتفل به، وبطلت العلل كلها فلم يجد الاعتراض شيئا يعترض عليه، واتفقت الأسباب فاجتمعت الكلمة، وظهر سعد كأنه روح الأمة متمثلًا في قدرة، حاكما بقوة، متسلطا بيقين

المجلد الثالث

السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية

لما أردت أن أكتب هذا الفصل وهممت به، عرضت لي مسألة نظرت فيها أطلب جوابها، ثم قدرت أن يكون أبلغ فلاسفة البيان في أوربا لعهدنا هذا رجلًا يحسن العربية المبينة، وقد بلغ فيها مبلغ أئمتها علمًا وذوقًا، ودرَس تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم درْس الروح لأعمال الروح، وتفقه في شريعته فقْه الحكمة لأسرار الحكمة، واستوعب أحاديثه واعتبرها بفن النقد البياني الذي يبحث في خصائص الكلام عن خصائص النفس؛ وتمثلت أني لقيت هذا الرجل فسألته: ما هو الجمال الفني عندك في بلاغة محمد صلى الله

عليه وسلم.

فكلامه صلى الله عليه وسلم مجرى عمله: كله دين وتقوى وتعليم، وكله روحانية وقوة وحياة؛ وإنه يخيل إلى وقد أخذت بطهره وجماله أن من الفن العجيب أن يكون هذا الكلام صلاة وصيامًا في الألفاظ.

أما أسلوبه صلى الله عليه وسلم فأجد له في نفسي روح الشريعة ونظامها وعزيمتها، فليس له إلا قوة قوة أمر نافذ لا يختلف، وإن له مع ذلك نسقًا هادئًا هدوء اليقين، مبينًا بيان الحكمة، خالصًا خلوص السر، واقعًا من النفس المؤمنة موقع النعمة من شاكرها؛ وكيف لا يكون كذلك وهو أمر الروح العظيمة الموجهة بكلمات ربها ووحيه؛ ليتوجه بها العالم كأنه منه مكان المحور: دورته بنفسه هي دورته بنفسه وبما حوله، روح نبي مصلح رحيم، هو بإصلاحه ورحمته في الإنسانية، وهو بالنبوة فوقها، وهو بهذه وتلك في شمائله وطباعه مجموع إنساني عظيم لو شبه بشيء لقيل فيه: إنه كمجموع القارات الخمس لعمران الدنيا.

ونرى في لفظ الحديث أن كل رجل من هؤلاء الذين مثلوا رواية الإنسانية الفاضلة في فصولها الثلاثة، لا يقول إنه فعل ما فعل من صالح أعماله: ﴿إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ (370) ، وقد تطابقوا جميعًا على هذه الكلمة، وهي من أدق ما في فلسفة الإنسانية في شعرها ذلك، فإن معناها أن الرجل في صالح عمله إنما كان مجاهدًا نفسه، يمنعها ما تحرص عليه من حظها أو لذتها أو منفعتها، أي منخلعًا من طبيعته الأرضية المنازعة لسواها، المنفردة بذاتها، متحققًا بالطبيعة السماوية التي لا يرحم الله عبدًا إلا بها، وهي رحمة الإنسان غيره، أي اندماجه باستطاعته وقوته، وإعطاؤه من ذات نفسه ومعاونته كف أذاه.

وقد كتبنا في فلسفة الأدب وحقيقته، ومعانيه الإنسانية، وأن الأديب التام الأداة هو الإنسان الكوني، وغيره هو الإنسان فقط، وأن علم الأديب هو النفس الإنسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس؛ ولذلك فموضعه من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار -وأن الأديب مكلف بتصحيح النفس الإنسانية ونفي التزوير عنها، وإخلاصها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات، ثم تصحيح الفكرة الإنسانية في الوجود، ونفي الوثنية عن هذه الفكرة، والسمو بها إلى فوق، ثم إلى

(370) البقرة: 272

فوق، ودائمًا إلى فوق([371]).

فالفن في هذه البلاغة هو في دقائقه أثر تلك الروح العليا بكل خصائصها العظيمة التي يحتاج إليها الوجود الروحاني على هذه الأرض، ولذا ترى كلامه صلى الله عليه وسلم يخرج من حدود الزمان، فكل عصر واجد فيه ما يقال له، وهو بذلك نبوة لا تنقضي، وهو حي بالحياة ذاتها، وكأنما هو لون على وجه منها كما ترى البياض مثلًا هو اللون على وجه طائفة من الجنس البشري.

ثم إن الكلام في وصف الطبيعة والجمال والحب على طريقة الأساليب البيانية، إنما هو باب من الأحلام؛ إذ لا بد فيه من عيني شاعر، أو نظرة عاشق؛ وهنا نبي يوحى إليه، فلا موضع للخيال في أمره، إلا ما كان تمثيلًا يراد به تقوية الشعور الإنساني بحقيقة ما في بعض ما يعرض من باب الإرشاد والموعظة.

قرآن الفجر

يقول الرافعي :كنت في العاشرة من سني وقد جمعت القرآن كله حفظًا وجودة بأحكام القراءة، ونحن يومئذ في مدينة "دمنهور" عاصمة البحيرة، وكان أبي -رحمه الله- كبير القضاة الشرعيين في هذا الإقليم، ومن عادته أنه كان يعتكف كل سنة في أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان، يدخل المسجد فلا يبرحه إلا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم، فهناك يتأمل ويتعبد ويتصل بمعناه الحق، وينظر إلى الزائل بمعنى الخالد، ويطل على الدنيا إطلال الواقف على الأيام السائرة ويغير الحياة في عمله وفكره، ويهجر تراب الأرض فلا يمشي عليه، وتراب المعاني الأرضية فلا يتعرض له، ويدخل في الزمن المتحرر من أكثر قيود النفس، ويستقر في المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لا تتغير، ثم لا يرى من الناس إلا هذا النوع المرطب الروح بالوضوء، المدعوّ إلى دخول المسجد بدعوة القوة السامية، المنحني في ركوعه، ليخضع لغير المعاني الذليلة، الساجد بين يدي ربه، ليدرك معنى الجلال الأعظم.

وما هي حكمة هذه الأمكنة التي تقام لعبادة الله؟ إنها أمكنة قائمة في الحياة، تشعر القلب البشري في نزاع الدنيا أنه في إنسان لا في بهيمة.

(371) المقتطف شهر يوليو سنة 1932 ، حياة الرافعي ص169، 234

لا أنسى أبدًا تلك الساعة. وقد انبعث في جو المسجد صوت غرد رخيم يشق سدفة الليل في مثل رنين الجرس تحت الأفق العالي وهو يرتل هذه الآيات من آخر سورة النحل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ([372]).

وكان هذا القارئ يملك صوته أتم ما يملك ذو الصوت المطرب؛ فكان يتصرف به أحلى مما يتصرف القمري وهو ينوح في أنغامه، وبلغ في التطريب كل مبلغ يقدر عليه القادر، حتى لا تفسر اللذة الموسيقية بأبدع مما فسرها هذا الصوت؛ وما كان إلا كالبلبل هزته الطبيعة بأسلوبها في جمال القمر، فاهتز يجاوبها بأسلوبه في جمال التغريد.

جديد الإسلام: 1 رسالة الأزهر في القرن العشرين

"الأزهر" هذه هي الكلمة التي لا يقابلها في خيال الأمة المصرية إلا كلمة الهرم، وفي كلتا اللفظتين يكمن سر خفي من أسرار التاريخ التي تجعل بعض الكلمات ميراثًا عقليًّا للأمة، ينسي مادة اللغة فيها ولا يبقي منها إلا مادة النفس؛ إذ تكون هذه الكلمات تعبيرًا عن شيء ثابت ثبات الفكرة التي لا تتغير، مستقر في الروح القومية استقراره في الزمن، متجسم من معناه كأن الطبيعة قد أفردته بمادته دون ما يشاركه في هذه المادة؛ فالحجر في الهرم الأكبر يكاد يكون في العقل زمانًا لا حجرًا، وفنًّا لا جسمًا؛ والمكان في الأزهر يغيب فيه معنى المكان وينقلب إلى قوة عقلية ساحرة توجد في المنظور غير المنظور.

والخلاصة أن أول رسالة الأزهر في القرن العشرين: اهتداء الأزهر إلى حقيقة موضعه في القرن العشرين: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ([373]) .

صعاليك الصحافة

يبين الرافعي صعاليك الصحافة ويقول :لما ظهر كتابي "وحي القلم" حملت منه إلى فضلاء كتابنا في دور الصحف والمجلات أهديه إليهم؛ ليقرؤوه ويكتبوا عنه، وأنا رجل ليس في

(372) النحل، 125---128

(373) هود:120

أكثر مما في، كالنجم يستحيل أن يكون فيه مستنقع؛ فما أعلم في طبيعتي موضعا للنفاق تتحول فيه البصلة إلى تفاحة، ولا مكانًا من الخوف تنقلب فيه التفاحة إلى بصلة، ولست أهدي من كتبي إلا إحدى هديتين: فإما التحية لمن أثق بأدبهم وكفايتهم وسلامة قلوبهم، وإما إنذار حرب لغير هؤلاء!

والقرآن نفسه قد أثبت اللهُ فيه أقوال من عابوه، ليدل بذلك على أن الحقيقة محتاجة إلى من ينكرها ويردها، كحاجتها إلى من يقربها ويقْبلها، فهي بأحدهما تثبت وجودها، وبالآخر تثبت قدرتها على الوجود والاستمرار.

إن الكاتب الذي لا يسأل نفسه ما يقال عني في التاريخ، هو كاتب الصحافة الحقيقي؛ لأن القروش هي القروش والتاريخ هو التاريخ؛ ومطبعة الصحيفة الناجحة هي بنت خالة مطبعة البنك الأهلي؛ ولا يتحقق نسب ما بينهما إلا في إخراج الورق الذي يصرف كله ولا يرد منه شيء!

الأدب والأديب

إذا اعتبرت الخيال في الذكاء الإنساني وأوليته دقة النظر وحسن التمييز، لم تجده في الحقيقة تقليدًا من النفس للألوهية بوسائل عاجزة منقطعة، قادرة على التصور والوهم بمقدار عجزها عن الإيجاد والتحقيق.

وهذه النفس البشرية الآتية من المجهول في أول حياتها، والراجعة إليه آخر حياتها، والمسددة في طريقه مدة حياتها، لا يمكن أن يتقرر في خيالها أن الشيء الموجود قد انتهى بوجوه، ولا ترضى طبيعتها بما ينتهي؛ فهي لا تتعاطى الموجود فيما بينها وبين خيالها على أنه قد فرغ منه فما يبدأ، وتم فما يزاد، وخلد فلا يتحول؛ بل لا تزال تضرب ظنها وتصرف وهمها في كل ما تراه أو يتلجلج في خاطرها، فلا تبرح تتلمح في كل وجود غيبًا، وتكشف من الغامض وتزيد في غموضه، وتجري دأبًا على مجاريها الخيالية التي توثق صلتها بالمجهول؛ فمن ثم لا بد في أمرها مع الموجود مما لا وجود له، تتعلق به وتسكن إليه؛ وعلى ذلك لا بد في كل شيء-مع المعاني التي له في الحق- من المعاني التي له في الخيال؛ وها هنا موضع الأدب والبيان في طبيعة النفس الإنسانية، فكلاهما طبيعي فيها

كما ترى.[374]

مشاركة العلماء للأدباء توجب أن يتميز الأديب بالأسلوب البياني؛ إذ هو كالطابع على العمل الفني، وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الإنسان الموهوب الذي جاءت من طريقه، ثم لأن الأسلوب هو تخصيص لنوع من الذوق وطريقة من الإدراك، كأن الجمال يقول بالأسلوب

وفضل ما بين العالم والأديب، أن العالم فكرة، ولكن الأديب فكرة وأسلوبها؛ فالعلماء هم أعمال متصلة متشابهة يشار إليهم جملة واحدة، على حين يقال في كل أديب عبقري: هذا هو، هذا وحده؛ وعلم الأديب هو النفس الإنسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس؛ ولذلك فموضع الأديب من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار.

أجد أسلوب الكاتب راقيا جدا إلى جانب مضمونه الممتع والغني، إن لم أقل أن كتاباته لها روح تسري من القلب إلى القلب وتقارع هذا الواقع المفتون لتنير الدرب وتجاهد من أجل رسالة سامية وهي إحياء الإيمان.

وأرى مقالاته تنبئ عن طينة الكاتب المؤمنة والراسخة الإيمان، المتبصرة بأحوال من يحيطون بها، تحمل همهم وتبحث لهم عن الملاذ دنيا وآخرة.

(374) حياة الرافعي ص 234

الفصل الثالث: تحت رأية القران

كتاب "تحت راية القرآن - المعركة بين القديم والجديد" هى مجموعة من مقالات الأدب العربى التى يرد فيها الكاتب "مصطفى صادق الرافعى" على ما جاء فى كتاب "فى الشعر الجاهلى" لـ"طه حسين" من النقد والجدال مما تسبب فى اتهام الكثيرين لطه حسين بالكفر والزندقة ، وفى هذا الكتاب يبرز "الرافعى" بعض المغالطات التى ذكرها طه حسين فى كتابه مرتكزا على ذخيرته من الثقافة الإسلامية خاصة آيات القرآن الكريم ، فكان دفاعه تحت راية القرآن.

" المعركة بين القديم والجديد "رد على كتاب (في الشعر الجاهلي) لطه حسين وإسقاط البدعة الجديدة التي يريد دعاتها تجديد الدين .

إذن الكتاب وقفه -كما يقول- على تبيان غلطات المجددين الذي يريدون بأغراضهم وأهوائهم أن يبتلوا الناس في دينهم وأخلاقهم ولغتهم، الكتاب ضمّ سلسلة مقالاته التي نشرت بمجلة الهلال والزهراء والبيان وجريدة السياسة ومن ثم مقالات الأدب العربي في الجامعة . كما يتخلل الكتاب مقالات لشكيب أرسلان وغيره ومقتبس من جريدة الأهرام وبعض وقائع الجلسات التي دارت في مجلس النواب حول قضية طه حسين. وأكثر فصول الكتاب إثارة ، الفصلان اللذان تحدث فيهما بتفصيل عن قضية الكتاب الرئيسة وهما: الفصل الذي أورد الرافعي فيه نص خطاب لجنة العلماء إلى شيخ الأزهر والذي حذرت فيه من تدريس كتاب طه حسين (في الشعر الجاهلي) في الجامعة وطالبت بوضع حدٍّ للفوضى الإلحادية الواردة فيه. فهذا كتاب جمع محاسن الأدب، ودقة البحث، وهيبة الغيرة على الدين والخلق. يأخذك في ركابه، فتنتقل بين ظلال هذه الثلاثة، منبهرا بجمال الأولى، مذعنا لإتقان الثانية، مطمئنا إلى سلامة القصد والسبيل في الثالثة.ليس هذا كتابا يتغنى بجمال الطبيعة، أو يصدح بتغاريد الحب، أو ينشد حداء للعاشقين، ولكنه مع ذلك آية في البلاغة، وغاية في نصاعة اللفظ، ورقة المعاني.

تصريح أساليب الفصاحة القرانية والحديث النبوية

يصرح للرافعي – رحمه الله – بأنه لو ترك في أسلوبه الجملة القرآنية والحديث الشريف

لكان أجدى عليه، ولصار في الأدب مذهبا وحده. وهل هذا إلا صريح الهدم لأساليب الفصاحة، بحجة التجديد فيها؟ وكيف يكون التجديد في الأسلوب بقطع الوشيجة بأزكى أسلوب وأحلاه وأرفعه في مدارج الجمال.

ذاك الدعي نفسه، يخرج مكنون صدره في كتابه القذر، فيصرح بإنكار ما لا ينكره إلا كافر بالقرآن العظيم، ويعلن ضرورة التجرد من الدين عند البحث العلمي، ولا يدع شيئا من مقدسات المسلمين، إلا تعرض لها برأيه الفائل، وفكره المريض، تشكيكا بلا دليل، وتمردا بشبهة الباطل على سلطة الحق المبين.

ثم إن هذا الهدم، لا يأتي بعده شيء من البناء، ولو أن يكون كوخا من قصب، يعوض به هؤلاء تلك القصور المنيفة التي يسعون إلى جعلها خرابا يبابا. ولذا يخاطب الرافعي هؤلاء الأدعياء فيقول:

"لقد سئمت نفوسنا هذه الدعاوي الفارغة فاعملوا ثم سموا عملكم ،وصيدوا الدب ثم بيعوا للناس جلده ،فلعلكم وأنتم تبيعون فروة دب لا تحصلون الا علي جلدة هرة"ـ([375])

حتى لقد بلغ الضعف العلمي بتلك الطائفة ومقدمها أستاذ الجامعة، أنهم إذ ينكرون الأساليب القديمة في التعبير والبيان، لا يأتون ببديل من الأسلوب الجديد، غير الطنطنة والتكرار، وجمود القريحة، وتبلد الحس.

رأي الرافعي عن كتابه تحت رأية القران

"وأشهد ما رأيتُ قط كاتبا واحدا من أهل "المذهب الجديد" يحسن شيئا من هذا الأمر، ولو هو أحسنه لانكشف له من إحسانه ما لا يبقي عنده شكا في إبطال هذا المذهب وتوهيته، ولذا تراهم يعتلون لمذهبهم الجديد بالفن والمنطق والفكر وبكل شيء إلا الفصاحة، وإذا فصحوا جاؤوا بالكام الفج الثقيل، والمجازات المستوخمة، والاستعارات الباردة، والتشبيهات المجنونة، والعبارات الطويلة المضطربة التي تقع من النفس كما تقع الكرة المنفوخة من الأرض لا تزال تنبو عن موضع إلى موضع حتى تهمد !".([376])

وقد عرف الرافعي – رحمه الله – من طه حسين ذلك الضعف في ملكة التعبير،

(375) تحت رأية القران ص( ) (375)
(376) تحت رأية القران ص 17

والنضوب في ملكة الكتابة، فاستهزأ ما شاء، وتهكم بالرجل وأسلوبه في الشعر والنثر، حتى لم يُبقِ في كيانه موضع ذرة لم يملأه بدواعي الخجل، لو أن الخجل يعرف إلى ذلك المفتون سبيلا.

فهو ينقل مثلا قول طه في بعض ما كتب في تإليف تحت رأية القران:"نعم قصة المعلمين، فللمعلمين قصة وللمعلمين قضية، وكنا نحب ألا تكون للمعلمين قصة وألا تكون للمعلمين قضية، لأننا نربأ بمقام المعلمين عن أن تكون لهم قصة أو قضية، ولكن أراد الله ولا مرد لما أراد الله أن يتورط المعلمون في قصة، وأن يتورط المعلمون في قضية، ليست قضيتهم أمام المحاكم وإن كانت أوشكت في يوم من الأيام أن تصل إلى المحاكم، وليست قصتهم مفزعة مهلعة (كذا كذا) وإن كانت أوشكت في يوم من الأيام أن تكون مفزعة مهلعة".([377])

ولا يترك الرافعي فرصة تمر دون أن يذكر القارئ بأن طه حسين لا يساوي في ميزان البلاغة شيئا، إن هو إلا التكرار الممل، والتفاصح المخزي، والتعالم المقيت. ويقول له:"على أني لو أردتُ أن آخذ معك في كتابتي هذا المأخذ لجعلتك تتلوى من الكلام المؤلم على مثل أسنان الإبر، ولاستقبلتك بما لا تدري معه أين تذهب ولا كيف تتوارى، كالإعصار الذي يأخذ عليك الجهات الأربع من آفاقها، أفأنت تقوم لي في باب الاستعارة والمجاز والتشبيه؟".([378])

أما بالنسبة إلى الرافعي – عليه رحمة الله – لم يجمجم ولم يداهن، ولم يتبع طرائق السياسيين في قول بعض ما يرون، وإخفاء أضعاف ذلك، حرصا على وحدة موهومة، أو مودة مزعومة. بل أعلن برأيه في هؤلاء القوم صراحةً في مواضع متفرقة من كتابه، وأظهر كفرهم وزندقتهم، وأنهم يؤولون في رأيهم إلى إنكار الدين، والتفصي من الأحكام الإلهية. وما أجمل قوله:

"ولأقل لك في صراحة إن مساجد القاهرة ترى ألف سائح كل سنة ولا ترى في السنة كلها واحدا من أهل الجديد، فهذا هو مرد تلك النزعة"([379]).

(377) تحت رأية القران ص 81
(378) تحت رأية القران ص 86
(379) تحت رأية القران ص 52

وينكر على هؤلاء القوم سوء أدبهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول الرافعي:
"وأما رأيه في النبي صلى الله عليه وسلم فمن أعجب ما عجبنا له أنه ما من عالم أو كاتب مسلم يذكره صلى الله عليه وسلم إلا صلى عليه أو وضع رمز الصيغة ولو هذا الحرف ﷺ وترى كتاب المسيحية يأخذون بهذا الأدب في كتبهم العربية، لأن المسلمين يقرأونها؛ أما أستاذ الجامعة فكأنه لا يتولى النبي صلى الله عليه وسلم ولا يحس عظمته ولا أثره، فقد ذكره في كتابه مرارا تفوت العد فلم يتأدب معه ولا مرة واحدة، فلا بعقيدة المسلمين أخذ، ولا بمجاملة المسيحيين اقتدى، بل طريقته هي طريقة المبشرين بعينها" (380).

والرافعي في كتابه هذا، وفي كتابه الآخر الذي أرخ فيه لآداب العرب، يظهر من سعة الاطلاع، وطول الباع، في علوم اللغة والأدب، ما يقسر القارئ على الإذعان لرأيه، والتسليم لعصارات فكره.

لكأن الرجل حين يتكلم في مسألة من دقائق اللغة، يقرأ في كتاب مفتوح، جامع لمسائل اللغة، ومباحثها العظيمة، يأخذ ما يشاء، ويذر ما يشاء. ولكأنه حين يبحث منهجا أدبيا، أو طريقة من طرائق الشعر، قد تسنم قنة جبل شاهق، يطل على آداب العربية كلها، فهو يحكم عن علم، ويشهد عن معرفة دقيقة شاملة.

ويغذي هذه الإحاطةَ المعرفية الشاملة، عمق في التصور الفكري، ورسوخ في الحكمة الفلسفية، يصحبهما شدة نزع في توليد الأفكار، واستقصاء حقائق المعاني إلى الغاية التي ما بعدها غاية.

وللرافعي – رحمه الله – أساليب في السخرية والتهكم، تذكرني في بعض المواضع بابن الرومي في سخريته اللاذعة، التي يستغرق بها أهاجيه، مع كثير من الإقذاع والفحش. أما الرافعي، فسخريته سامية رفيعة، لكنها حادة كأنياب القرش، ما تترك من الجسد الذي تخترقه، سوى لحم ممزع، على وضم قاني اللون. كذا تصورتُ المسكين طاحين عندما ينشب فيه الرافعي أظافر سخريته !

ومن أجمل ما يستعمله الرافعي – رحمه الله – في أسلوبه إيضاحا للفكرة، وتثبيتا لجذورها

(380) تحت رأية القران ص164

في نفس القارئ، ضرب الأمثال. فلا تكاد تخلو فكرة مستحدثة يعرضها للقارئ من مثل يجعله بإزائها، كالصورة التي يستند إليها المعلم في شرح نص من نصوص اللغة لتلامذته. وقد بلغ الرافعي الغاية في هذه الأمثال المضروبة، في ما يسميه نسخة قديمة له من كتاب (كليلة ودمنة)، يرجع إليها بين الفينة والأخرى، فيستخرج منها مثلا، بل أمثالا، يضربها لما هو بصدد نقده من الجامعة، ومديرها، وأستاذ الأدب فيها.

ومن أمثلة ذلك، أن الرافعي يتكلف السجع في بعض ما يكتبه وهو نادر إذا قيس بغيره – ثم لا يكون إلا سجعا رائقا، ليس فيه برودة الصنعة، ولا سماجة المعالجة اللفظية. وهذه علامة الكاتب البليغ، الذي بلغ في الكتابة مبلغ الإتقان، بما هو قريب من الكمال. والرافعي الفيلسوف الحكيم، والأديب الناقد، له في كتابه هذا آراء تستحق أن تتناول بالبحث والتمحيص، وفاقا أو خلافا. فمن ذلك رأيه في أن تعلم اللغات الأجنبية، وإلقاء العلوم الحديثة بها، أولى من التعريب. يقول رحمه الله:

"فإن الزمن الذي تعرب فيه الكتب أو تمصر ثم تطبع وتنشر ثم تقرأ وتدرس لا يذهب باطلا إذا هو ذهب في تعليم لغة أجنبية من لغات العلوم والفنون محققة وتربح معها فضلا كبيرا، وأن تربح إلى لغتها لغة أخرى برمتها وتجمع إليها آدابها وفوائدها، وهذا ما لا يتيسر بعضه إذا مصرنا العربية لتلك الغاية التي زعموا وما يطلبون بها من الكفاية والإصلاح"([381]).

وهذه فكرة جديرة بالتأمل، والرافعي لم يزد على أن أشار إليها إشارة باهتة، ولا أدري إن كان قد بسط القول فيها في موضع آخر من كتبه.ومن ذلك أن له في عمر بن أبي ربيعة رأيا، حريا بالتدبر، والمقارنة بالذي قاله غيره من أهل النقد الأدبي. يقول – رحمه الله – :" وإني مع ذلك لا أرى أثقل ولا أبرد ولا أسمج من شعر ابن أبي ربيعة هذا حين يفضح النساء ويقول في شعره: قلت لها وقالت لي، وكان مني كذا وكان منها كذا. وما هو عندي بفن؛ بل خلق سافل وطبع غوي ونفس عاهرة، بل هو فن هجو النساء إذ كان ابن أبي ربيعة لا يحسن مدح رجل ولا هجوه، فسقط من هذه الناحية ليرتفع من الناحية التي تقابلها في النساء، فكأنه ارتفع بقوتين؛ ثم أراد الرجل أن يسير شعر في الأفواه

(381) تحت رأية القران ص 48

ولا أسير من أخبار النساء وأحاديثهن، فهذا هذا.([382])

وتعجبني غضبة الرافعي – رحمه الله – على من يقول في عصره: (لك مذهبك ولي مذهبي، ولك لغتك ولي لغتي)، فيقول لهم:"فمتى كنت يا فتى صاحب اللغة وواضعها ومنزل أصولها ومخرج فروعها وضابط قواعدها ومطلق شواذها؟ ومن سلم لك بهذا حتى يسلم لك حق التصرف "كما يتصرف المالك في ملكه"، وحتى يكون لك من هذا حق الإيجاد، ومن الإيجاد ما تسميه أنت مذهبك ولغتك"([383])

لكأن هذا الألمعي يخاطب أقواما في عصرنا هذا، يتخذون اللغة مرتعا مستباحا لأفكارهم التي يسمونها تجديدا. وهل يكون تجديد بغير ضوابط، تكون له كالصوى التي يهتدى بها في الطريق؟ وهل التجديد بغيرها إلا كالجواد الجموح الذي ليست له أرسان تكبحه وتخفف من غلوائه. وفي مثلهم يقول الرافعي:صارت الفصحى مرتعا مستباحا = كل غر يرعى به مُرتاحا قد تولى الإفساد في لغة القر = آنِ من حيث يدعي الإصلاحا يفسد اللفظ والمعاني ! إليستْ = للكلام الأبدانَ والأرواحا؟وللمؤلف كلمات نافعة عن العلاقة بين الدين والعلم ([384])

(382) تحت رأية القران ص 228
(383) تحت رأية القران ص 13-14
(384) تحت رأية القران ص 272

الفصل الرابع: أوراق الورد

عندما أصدر "مصطفى صادق الرافعي" أوراق الورد قال: إنه لون جديد من أدب الحب في الأدب العربي لم يكتب من قبل، وعرض في مقدمة مطولة الفن رسائل الحب في الأدب العربي خلص منها إلى أنه استحدث فنا جديدًا في الأدب العربي بكتابه هذا.

وقد واجه الرافعي مساجلات متعددة بالنسبة لأسلوبه وفنون كتاباته وكان هذا الكتاب فرصة جديدة لمعارك حول الأسلوب الجديد في الأدب العربي المعاصر ([385]).

"وضعنا كتابنا "أوراق الورد" في نوع من الترسل لم يكن منه شيء في الأدب العربي على الطريقة التي كتبناه بها، في المعاني التي أفردناه لها، وهو رسائل غرامية تطارحها شاعر فيلسوف وشاعرة فيلسوفة على ما بيناه في مقدمة الكتاب. وكانت قد ضاعت "ورقة ورد" وهي رسالة كتبها العاشق إلى صديق له، يصف من أمره وأمر صاحبته، ويصور له فيها سحر الحب كما لمسه وكما تركه. وقد عثرنا عليها بعد طبع الكتاب، فرأينا ألا ننفرد بها، وهي هذه:"

كانت لها نفس شاعرة، من هذه النفوس العجيبة التي تأخذ الضدين بمعنى واحد أحيانًا؛ فيسرها مرة أن تحزنها وتستدعي غضبها، ويحزنها مرة أن تسرها وتبلغ رضاها، كأن ليس في السرور ولا في الحزن معانٍ من الأشياء ولكن من نفسها ومشيئتها. وكان خيالها مشبوبًا، يلقي في كل شيء لمعانَ النور وانطفاءه؛ فالدنيا في خيالها كالسماء التي ألبسها الليل، مُلئت بأشيائها مبعثرة مضيئة خافتة كالنجوم.ولها شعور دقيق، يجعلها أحيانًا من بلاغة حسها وإرهافه كأن فيها أكثر من عقلها؛ ويجعلها في بعض الأحيان من دقة هذا الحس واهتياجه كأنها بغير عقل.

أوراق الورد

ديوان رسائل الحب تطارحها الرافعي مع حبائبه ، وكان العلمل الحاسم في دعوي التجديد التي لهج بها عصره ، وتوزعتها الأقلام مذاهب واراء وكانت معظم هذه الرسائل قد نشرت منجمة في الصحف والمجلات وان كان الجد في أعداده ديوانا لرسائل الحب يكون كتابا في فلسفة الجمال ، ومنعطفا للكتابة العربية التي تنطلق مع العصر تتقدم صفوف

(385) المعارك الادبية 388

اللغات ، و تعجز شانئيها من المستشرقين والشعوبين القدامي والجدد ، هو من أسني المطالب وأسمي الأهداف في تإليفه قدم له بمقدمة تاريخية بليغة ،استقصي فيها ما عرف لأدباء العربية من تإليف أو تصنيف في غير الشعر ، من رسائل الحب ، فما وجد غير نتف ومستظرف لا تبلغ أن تسمي رسائل وان حفل تاريخ الأدب برسائل الديوان والأخوان والوجدان حتي قال :"أنت تري أن الأدب العربي قد انطوي علي محجوبة من هذا الفن بقيت في الغيب إلى عهدنا ، ونرجو من فضل الله أن تكون كتبنا الثلاثة قد أظهرتها ، واستعلنت بها ، وأن تقول العربية اذا توصفوا كتب هذا الباب في بيان اللغات الأخري :"[386] ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [387]

وقد حاول أن يكتب شيئا من تاريخ حبه ، فكتب في الحب نفسه ،والصفات السامية فيه ، ورأي رأيه ،ثم ضم جناحيه علي رسائل في حقيقة الجمال وزجاجة العطر الهدية حتي اذا وافته برسمها وطارت بينهما الرسائل في وسائلها من البريد ، والمقالة ، والحديث ،و فضول القول هنا و هناك ، تكامل لديه هذا الديوان الفريد من أدب الرسائل "أوراق الورد"[388]

قول ابراهيم المصري عن الثقافة العربية

واعترف ابراهيم المصري أنه أقرب أدباء الثقافة العربية إلى روح العصر الحديث وقال :"ان في أسلوبه عذوبة ، وله نصوع، وفيه لمحات من الشعر الوجداني الصادق"، ثم بقولة للأديب الألماني "الفريد كبير" يقول فيها : "الأدب الصحيح يتخيل الحقائق لا الأوهما ،اذ قوة الخيال من قوة الحقيقة، وان الخيال بلا حقيقة ضرب من الهذيان"[389]

أما "أوراق الورد"فلعل العمر الذي امتد به الكتابة والفن ، وما سبقه من معالجة "اخوته"قد جعل له الامتياز الصحة، ووفر له العافية وقد كان يكتبه وينشره منجما مذ وقع له ذلك الحادث الغريب مع "فلانة "أو كما قال العريان:"تلك يستمد من لينها و سماحتها معاني الحب التي تملا النفس بأفراح الحياة ، وهذه يستوحيها معاني الكبرياء

(386) الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد ص 398ـ
(387) سورة الحاقة ،الاية 19ـ
(388) حياة الرافعي ص 104ـ
(389) الرافعى الكاتب بين المحافة والتجديد ص400

"والصد والقطيعة ،وذكريات الحب الذي أشرق في خواطره بالشعر ، وأفعم قلبه بالألم "([390])

يضاف مصطفي نعمان البدري إلى ذلك أن دعوة الرافعي إلى السمو بهذه العاطفة الانسانية الكريمة ، والتحول بالفكر الاسلامي إلى صفة فقه الحياة نفسها في هذا الطور ، واستعلانها مبدأ ووسيلة لأسني المقاصد وأعلي الغايات لهوالبيان "ما شيوع الكتابة في الحب الفاسق الا تحويل النساء التي يشيع فيها إلى بغايا"([391])

كا ن اوراق الورد ما يزال مجهولا عند أكثر قراء العربية وان كان في مكاتبهم ، لأن القارئ الذي يلذه أوراق الورد ما زال يتعلم في المدرسة كيف يقرأ ليستفيد ويضم فكرا إلى فكرة لا ليتسلي ويهرب من فكره ! لأن العربية ليس لها قرّاء ([392])

(390) حياة الرافعي ص 115
(391) الرفعي الكاتب بين المحافظة والتجديد ص 404
(392) حياة الرافعي ص 145

خاتمة الكتاب

القرآن الكريم هو الكتاب الرئيسي في الإسلام، الذي يُقدِّسه ويؤمن به المسلمون أنّه كلام الله المنزّل على نبيه محمد -صلي الله عليه وسلم -للبيان والإعجاز،المنقول عنه بالتواتر حيث يؤمن المسلمون أنه محفوظ في الصدور والسطور من كل مس أو تحريف، وهو المتعبد بتلاوته، وهو آخر الكتب السماوية بعد صحف إبراهيم والزبور والتوراة والإنجيل.كما يعدّ القرآن أرقى الكتب العربية قيمة لغوية ودينية، لما يجمعه بين البلاغة والبيان والفصاحة.وللقرآن أثر فصل في توحيد وتطوير اللغة العربية وآدابها وعلومها الصرفية والنحوية، ووضع وتوحيد وتثبيت اللّبنات الأساس لقواعد اللغة العربية.

قال الله تعالى:" إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَه (**سورة القيامة : ١٨**)

كان الإعجاز القرآني خليقا أن يثير في الحياة الإسلامية مباحث على جانب عظيم من الأهمية يتصدى بها العلماء للكشف على وجوه البلاغة القرآنية.

وبذل العلماء جهودا مشكورة، وقاموا بمحاولات مضنية، لإبراز البلاغة القرآنية في صورة موحية ذات ظلال، ولكنهم وقفوا غالبا عند النص الواحد، فاقتطعوه اقتطاعا من الوحدة القرآنية الكبرى ، ودرسوه دراسة تحليلية جزئية ذهب بمعالم جمالها الذي لا يتناهى حول مشكلة اللفظ والمعنى، فكانت النزعة الكلامية تفسد عليهم تذوقهم للنصوص، وإدراكهم مواطن البلاغة والإعجاز.

قال الجاحظ في كتابه الحيوان: "ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن الكريم لتعرف بها ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز، والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة.

اختلف العلماء -رحمهم الله تعالى- في لفظ القرآن لكنهم اتفقوا على أنه اسم فذهب جماعة من العلماء منهم الشافعي، الأشعري، ابن كثير ، الفراء، اللحياني ، الزجاج و ابن الأثير وغير ذلک من العلماء اللغويين الذين ذهبوا إلى أنه اسم جامد غير مهموز كما ذكر الأشعري: إنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممته إليه ومنه قولهم: قرن بين البعيرين إذا جمع بينهما ومنه سمي الجمع بين الحج والعمرة في إحرام واحد قران.

لقد بذل العلماء كل وسعهم لإيجاد تعريف للفظة القرآن فتناولوها من الجانبين اللغوي

والاصطلاحي كما هو معهود عند كل تعريف، وأوردوا في ذلك أقوالاً وآراء يكاد يكون كل واحد منها تكراراً للآخر.

و كذلك اختص القرآن الكريم بخصائص كثيرة ولعل هذه الخصائص سبب الاختلاف في تعريف القرآن بين العلماء، فكل تعريف يذكر خاصية للقرآن يعرف بها لا يذكرها الآخر ولهذا تعددت التعريفات.أما الأدب فروي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: " إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ، فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَأْدُبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ"(**المعجم الكبير 130/9**)

وكذلك الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط، وهي القرآن والحديث.

وقال الرافعي رحمه الله تعإلى: الأدب، أنه لا بد معه من البيان؛ لأن النفس تخلق فتصور فتحسن الصورة؛ وإنما يكون تمام التركيب في معرضه وجمال صورته ودقة لمحاته؛ بل ينزل البيان من المعنى الذي يلبسه منزلة النضج من الثمرة الحلوة إذا كانت الثمرة وحدها قبل النضج شيئًا مسمى أو متميزًا بنفسه، فلن تكون بغير النضج شيئًا تامًا ولا صحيحًا، وما بد من أن تستوفي كمال عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها .

ولكن لوعدنا إلى آراء العلماء المختلف لوجدناهم لم يفصلوا بين اللفظ والمعنى ولم يذهبوا إلى أن بلاغة الكلام تكمن في معناه دون لفظه. ولكن ابن جني يرى الاهتمام بالمعاني من خلال الألفاظ المتساوقة في الكلام لأن المعاني عنده أشرف من الألفاظ وهذه الألفاظ ما هي إلا خدم للمعاني لتوضيحها وكشف اسرارها.

كان العرب يتذوّقون بكلامهم في صورة الشعر التي تشتمل علي أوصاف مختلفة منها المدح ، الرثاء ،الهجاء ،الغزل ،التشبيب ،الحكمة و الكرامة وأما النثر التي يشمل الخطابة والكتابة منها أدب الرسائل والمسرح والأقاصيص ،لأن القرآن الكريم نزل بألسنتهم اللسان العربي المبين ورأؤ فيه فصحاء العرب وبلغاؤهم جوهر فطرتهم في اللغة والبيان، وأدركوا منذ أن استمعوا إلى آياته البينات، أنه فاق المستوى الذي تعارفوه في بيانهم وأشعارهم، فكانوا أول من شهد بإعجازه.

كان القرآن يروع أولئك الفصحاء بسحر بيانه، ويشد إليه أسماعهم، ويهز مشاعرهم هزا قويا، وينفذ إلى نفوسهم فيؤثر فيها، ثم تختلف استجاباتهم.

وكذلك إلى دراسة ادب الرافعي كان الرافعي يحمل الفكرة الاسلاميه و يدافع عنها ، وهو يقارع بذلك الاتجاهات الأدبية التي تنال من العقيدة الاسلامية واللغة العربية، بوادر تعفن في جسم الاسلامية ـ

وقد أتاحت له ثقافته الواسعة العميقة أن يشارك في معظم فنون الأدب العربي بنصيب وافر فنراه حينا كاتبا متميزا له مدرسته الخاصة مع التزامه الطابع الاسلامي والمحافظة علي قدسيه البيان القراني واللغة العربية.

عاش الرفعي حياته الأدبية و هيأ نفسه ليكون المدافع الصلب عن حمي الاسلام واللغة العربية و دحض هذه الافكار الهدامة وقد انبرى لهم بذلك بقلم حاد و ملكة أدبية واسعة ايمان غير محدود باسلامه و عروبته ، محملاً نفسه مسؤليه الرد علي اصحابها من أدباء و كتاب ، وقد عبر الرافعي عن هذا الاتجاه السامي فيه حين قال :"والقبلة التي اتجه إليها في الأدب انما هي النفس الشرقيه في دينها وفضائلها فلا اكتب الا ما يبقيها حية و يزيد في حياتها وسمو غايتها ثم أنه يخيل إلى دائما أنني رسول لغوي ،بعثت للدفاع عن القران ولغته و بيانه"ـ

يعد الرافعي في زمانه حامل لواء الأصالة في الأدب، ورافع راية البلاغة فيه، ثم إنه الرجل الذي وقف قلمه وبيانه في سبيل الدفاع عن القرآن ولغة القرآن، ولذا وجدنا الصراع يشتد بينه وبن أولئك الذين استراحوا للفكر الغربي وأقبلوا عليه حتى وإن كان حربا على أمتهم ودينهم ولغتهم.يقول الرافعي مخاطبا المستغربين :'علم الله ما فتن المغرورين من شبابنا إلا ما يأخذهم من هذه الحضارة فإن لها في زينتها ورونقها أخذة كالسحر فلا يميزون بين خيرها وشرها ولا يفرقون بين مبادئها وعواقبها ثم لا يفتنهم منها إلا ما يدعوهم إلى مايميت ويصدهم عما يحي وما يحول بينهم وبين قلوبهم فليس إلا المتابعة والتقليد.

وفي الختام أسأل الله تعإلى أن يوفقنا بخدمة القران الكريم الدين الحنيف رغم صعوبات أعداء الاسلام والدين وينجحنا في الدارين ، استغفرالله لي ولسائر المسلمين في العالم الاسلام، وماتوفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ـ

فهرس الآيات القرآنية

الرقم المسلسل	فهرست الآيات القرآنية
1.	إِنّ عَلَيْنَا جَمْعَهَ وَقُرْآنَهَ فَإِذَا قَرَأْنَاهَ فَاتّبِعْ قُرْآنَه
2.	لَا يَصَدّعَونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفونَ
3.	لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ
4.	واشْتَعَلَ الرّأسَ شَيْبَا
5.	وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ
6.	" لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ "
7.	﴿ وَلَقَدْ صَرّفْنَا لِلنّاسِ فِي هَذَا الْقُرآنِ مِنْ كُلّ مَثَل
8.	غُلِبَتْ الرّومَ *فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ
9.	سَيُهْزَمَ الْجَمْعَ وَيُوَلّونَ الدّبُرَ
10.	قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ،
11.	فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ
12.	قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ
13.	فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ
14.	أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
15.	وَلَقَدْ صَرّفْنَا لِلنّاسِ فِي هَذَا الْقُرآنِ مِنْ كُلّ مَثَلٍ
16.	أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ
17.	ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا
18.	" غَيْرَ مُتَبَرّجَاتٍ بِزِينَةٍ "
19.	فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ

20. لَوْلَا أَنْ تَفَنِّدُونِ
21. " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ
22. لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ
23. إِذَا قَضَى أَمْرًا
24. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
25. وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
26. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً
27. وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا
28. فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ . وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
29. وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ
30. وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ
31. " وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا
32. وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
33. " وَعَزَّرُوهُ
34. " قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ
35. إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا
36. فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ
37. اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

38. كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَه
39. " فَتَصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةَ
40. وَإِذْ يَرْفَعَ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ
41. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى
42. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ
43. إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ
44. وَإِذْ يَرْفَعَ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ
45. فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ
46. قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ
47. وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
48. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ
49. الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ
50. مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ
51. وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
52. وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ
53. حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ
54. وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزَ الْعَظِيمِ

55. وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ

56. يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ

57. إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ

58. يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ

59. إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

60. وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً، الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً

61. وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ

62. وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا

63. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً

64. قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

65. وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا

66. وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ

67. أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا

68. شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ
69. هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ
70. إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ
71. كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
72. وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
73. وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ
74. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا
75. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا
76. وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ
77. فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ
78. وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ، وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ
79. خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
80. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
81. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ

82. وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ

83. يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ

84. سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا

85. إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ

86. ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ

87. وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ

88. هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ

فهرس أطراف الأحاديث

الرقم	الأحاديث النبوية
1	"عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: " إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةَ اللهِ، فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَأْدُبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ.
02	عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ نَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعَرْجِ إِذْ عَرَضَ شَاعِرٌ يُنْشِدُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خُذُوا الشَّيْطَانَ، أَوْ أَمْسِكُوا الشَّيْطَانَ لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا۔
03	وقد روى ابن أبي حاتم أيضا، عن أبي سعيد الأشج، عن أبي أسامة، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي الحسن مولى بني نوفل، أن حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت: {والشعراء يتبعهم الغاوون} يبكيان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يقرؤها عليهما: {والشعراء يتبعهم الغاوون} حتى بلغ: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} ، قال: "أنتم"
04	إنما الأعمال بالنيات ". " الدين النصيحة ". " الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمورٌ متشابهات ". " المضعف أمير الرَّكب ". وقوله في معنى الإحسان: ". . . أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ."وقوله: " لا تجن يمينك عن شمالك ". " خير المال عين ساهرة لعين نائمة ". " آفة العلم النسيان. وإضاعته أن تحدّث به غير أهله ". " المرء مع من أحب ". " الصبر عند الصدمة الأولى ". وقوله في التوديع: " أستودع الله دينَك وأمانتك وخواتيم عملك ".
05	فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- " مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ فِى عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِى

عَوْنِ أخِيهِ "

المصادر و المراجع

القران الكريم: أنزل الله سبحانه و تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه و اله وسلم.

إبراهيم مصطفى وغيرهم:**المعجم الوسيط**، القاهرة: دار الدعوة.

إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري القيرواني ، **زهر الآداب وثمر الألباب**، بيروت: دار الجيل

ابن الأثير :مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، **النهاية في غريب الحديث والأثر** ، حققه: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي بيروت :المكتبة العلمية،الطبعة 1399هـ - 1979م

ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ، **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك** ،حققه: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا،بيروت: دار الكتب العلمية،الطبعة الأولى، 1412هـ-1992 م

ابن البيع: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد، **المستدرك على الصحيحين**،حققه: مصطفى عبد القادر عطا،بيروت: دار الكتب العلمية ،الطبعةالأولى، 1411 – 1990

ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي، **خزانة الأدب وغاية الأرب**،بيروت : دار ومكتبة الهلال-بيروت، دار البحار،الطبعة الطبعة الأخيرة 2004م.

ابن سعيد الأندلسي :**نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب**،حققه: الدكتور نصرت عبد الرحمن،مكتبة الأقصى، عمان – الأردن

ابن سنان الخفاجي: أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد، **سر الفصاحة** ،دار الكتب العلمية،الطبعة الأولى 1402هـ_1982م

ابن عبد ربه: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد ، **العقد الفريد**، بيروت: دار الكتب العلمية،الطبعة الأولى، 1404 هـ

ابن فارس: أبو الحسين ،أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، **معجم مقاييس اللغة**:،حققه:

عبد السلام محمد هارون،دار الفكر،الطبعة: 1399هـ - 1979م.
ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء** ، دار الحديث، القاهرة ،الطبعة 1423هـ

ابن قيم :الجوزية محمد بن أبي بكر، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** ،حققه: محمد المعتصم بالله البغدادي ،بيروت: دار الكتاب العربي،الطبعة الثالثة، 1416 هـ - 1996م

ابن منظور:الإفريقى،محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، **لسان العرب**، بيروت دار صادر،الطبعة: الثالثة 1414هـ

أبو أحمد: الحسن بن عبد الله بن سعيد، **المصون في الأدب** ، مطبعة حكومة الكويت ،حققه: عبد السلام محمد هارون،الطبعة الثانية، 1984 م-

أبو بكر الأنباري:محمد بن القاسم ، **الزاهر في معاني كلمات الناس**،حققه: حاتم صالح الضامن، بيروت:مؤسسة الرسالة ،الطبعة الأولى، 1412 هـ -1992

أبو الحسن: علي بن فَضَّال بن علي بن غالب ، **النكت في القرآن الكريم (في معاني القرآن الكريم وإعرابه)** ،دراسة وتحقيق: د. عبد الله عبد القادر الطويل، بيروت:دار النشر، دار الكتب العلمية - الطبعة: الأولى، 1428 هـ - 2007 م

أبو زكريا: يحيى بن زياد بن عبد الله،**معاني القرآن**،حققه: أحمد يوسف النجاتي،مصر: دار المصرية للتأليف والترجمة،الطبعة الأولى-

أبو العباس، أحمد بن عبد السلام الجرّاوي التادلي،(الحماسة المغربية) مختصر كتاب **صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب**، حققه: محمد رضوان الداية، بيروت:دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، 1991م

أبو العباس :محمد بن يزيد المبرد، **الكامل في اللغة والأدب**،حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم،القاهرة: دار الفكر العربي ،الطبعة الثالثة 1417 هـ - 1997 م

أبو العباس: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، **المصباح المنير في غريب الشرح**

الكبير،بيروت: المكتبة العلمية.
أبو الفرج: قدامة بن جعفر ، **نقد الشعر** ،قسطنطينية: مطبعة الجوائب ،الطبعة الأولى، 1302
أبو عبد الله : الحارث بن أسد المحاسبي، **فهم القرآن ومعانيه** ، بيروت: دار الكندي ، دار الفكر،الطبعة: الثانية، 1398 .
أبو علي القالي: إسماعيل بن القاسم، **الأمالي = شذور الأمالي = النوادر** ،دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، 1344 هـ - 1926م
أبو عمرو الشيباني: **شرح المعلقات التسع**،تحقيق وشرح: عبد المجيد همو،بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- لبنان،الطبعة:الأولى، 1422 هـ - 2001 م
أبو هلال العسكري : الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد، **الصناعتين** ،حققه: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت : المكتبة العنصرية ،الطبعة : 1419هـ
الأفريقي: ابن منظور، أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، بيروت: دار الكتب العلمية، 1996م.
الألوسي: محمود شكري، **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، بيروت: دار الكتب العلمية (بدون التاريخ).
البغدادي :أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله، **أخلاق أهل القرآن** بيروت :دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الثالثة، 1424 هـ - 2003 م.
البغدادي: عبد القادر بن عمر،**خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**،حققه: عبد السلام محمد هارون،القاهرة : مكتبة الخانجي، الطبعة: الرابعة، 1418 هـ - 1997 م
الباقلاني: أبو بكر، محمد بن الطيب، **إعجاز القرآن** ، حققه: السيد أحمد صقر، مصر: دار المعارف، الطبعة الخامسة، 1997م.
الثعالبي : ابو منصور ،عبد الملك بن محمد ،**ثمار القلوب في المضاف والمنسوب** ، القاهرة : دار المعارف

الثعالبي : أبو منصور،عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، **سحر البلاغة وسر البراعة** ، حققه: عبد السلام الحوفي،بيروت: دار الكتب العلمية – لبنان

الجرجاني : الشريف ،علي بن محمد بن علي ، **كتاب التعريفات**،بيروت: دار الكتب العلمية –لبنان،الطبعة الأولى 1403هـ -1983م-

الجوهري:أبو نصر إسماعيل بن حماد، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية** ، حققه: أحمد عبد الغفور ،عطار،بيروت: دار العلم للملايين،الطبعة الرابعة 1407 هـ-1987م

الجرجانى: أبو بكر، عبد القاهر بن عبد الرحمن، **أسرار البلاغة**،القاهرة: مطبعة المدني -

الاخطل غياث بن غوث ،**ديوان الاخطل** ،حققه عبدالرحمن المصطاوي ،بيروت : دار المعرفة لبنان الطبعة الاولي 2003

الاخطل غياث بن غوث ،**شعر الاخطل** ،حققه د نفخر الدين قبادة، بيروت:دار الافاق الجديدة، البطعة الاولي 1971م

الرازي : نفخر الدين ،أبو عبد الله محمد بن عمر، **مفاتيح الغيب = التفسير الكبير**، بيروت:دار إحياء التراث العربي،الطبعة الثالثة - 1420 هـ

الرازى: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ، **مختار الصحاح**،حققه: يوسف الشيخ محمد،بيروت: المكتبة العصرية -الدار النموذجية،- صيدا،الطبعة الخامسة، 1420هـ / 1999م-

الرافعي: مصطفى صادق بن عبد الرزاق ، **وحي القلم**،دار الكتب العلمية،الطبعة الأولى 1421هـ-2000م

الرافعي: مصطفى صادق بن عبد الرزاق ،**تاريخ آداب العرب**،دار الكتاب العربي-

الرافعي، **السحاب الأحمر**، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الثامنة 1402هـ/1982م.

الرافعي، **أوراق الورد** ، مصر:الطباعة السلفية، الطبعة 1349هـ/1931م.

الرافعي :مصطفى صادق بن عبدالرزاق، **تحت راية القرآن الكريم**، المكتبة التجارية

الزَّبيدي : مرتضى،محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق، **تاج العروس من جواهر القاموس**،دار

الهداية.
الزركشي : أبو عبد الله بدر الدين محمد، **البرهان في علوم القرآن**،حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية الطبعة:الأولى، 1376 هـ - 1957 م.
السيد مرسي أبو ذكري،**المقال وتطوره في الأدب المعاصر**، دار المعارف،الطبعة: 1981،1982
السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين ، **الإتقان في علوم القرآن** ،المطبعة ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/ 1974 م
الأصفهانى: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب، **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء** والبلغاء ،بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم،الطبعة: الأولى، 1420 هـ
الضبي : المفضل بن محمد، **المفضليات** ،حققه: احمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون،القاهرة : دار المعارف ،الطبعة السادسة
الطبراني : أبو القاسم،سليمان بن أحمد بن أيوب ، **المعجم الكبير**،حققه: حمدي بن عبد المجيد السلفي،مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.
الغزالى: أبو حامد محمد بن محمد ، **جواهر القرآن** ،بيروت : دار إحياء العلوم،الطبعة الثانية، 1406 هـ - 1986 م.
الفارابي: أبو نصر إسماعيل بن حماد، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**،بيروت: دار العلم للملايين ، الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987 م.
الفراهيدي:خليل بن أحمد ،أبو عبد الرحمن، **كتاب العين**،حققه: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي،دار ومكتبة الهلال.
القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد ،**صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، بيروت :دار الكتب العلمية.
الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد، **أدب الدنيا والدين** ،دار مكتبة الحياة،بدون طبعة.
المبرد: أبو العباس ،محمد بن يزيد ، **الكامل في اللغة والأدب** ،القاهرة : دار الفكر

العربي،الطبعة: الطبعة الثالثة 1417 هـ - 1997 م.
النويري: شهاب الدين أحمد ،**نهاية الأرب في فنون الأدب**،دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة الأولى 1424 هـ - 2004 م
الهاشمي: أحمدبن إبراهيم بن مصطفي،**جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب**، بيروت: مؤسسة المعارف.
الهواري : أحمد إبراهيم (الدكتور)،**أدباء معاصرون**، القاهرة: دار المعارف،1984م.
أحمد الشايب: **دراسة أدب اللغة العربية بمصر في النصف الأول من القرن العشرين**، مصر: مكتبة النهضة المصرية، 1966م.
أحمد هيكل (الدكتور): **تطور الأدب الحديث في مصر**، مصر: دار المعارف، الطبعة السادسة، 1994م.
أنور الجندي : أحمد سيد أحمد ، **المعارك الأدبية**،مكتبة الأنجلو المصرية،الطبعة: 1983.
أنيس المقدسي:**الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة الحديثة** ، الطبعة4، دار العلم للملايين، بيروت 1984م.
أنيس المقدسي: **العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث**، القاهرة: 1933م.
جاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر ، **الرسائل الأدبية**،بيروت: دار ومكتبة الهلال،الطبعة الثانية، 1423 هـ
جرجي زيدان: **تاريخ الآداب اللغة العربية**، بيروت: دار الهلال للطباعة والنشر، 1924م.
جواد علي: (الدكتور)، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**،بيروت: دار العلم للملايين الطبعة الثانية، 1978م.
جوهر: سيدة رشيدة ، **الأدب العربي الحديث**،لاهور: المكتبة العلمية.
حسين علي محمد حسين ، **التحرير الأدبي**، مكتبة العبيكان،الطبعة الخامسة 1425هـ / 2004م.
حلمي مرزوق، **تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين**،

بيروت، دار النهضة العربية، 1982ـ
حمدي السكوت (الدكتور) و مارسدن جونز (الدكتور): **أعلام الأدب المعاصر في مصر**، بيروت: دار الكتب اللبناني، 1982م.
حنا الفاخوري: **الجامع في تاريخ الأدب العربي(الأدب الحديث)**، بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى،1986م.
فتحي عبد القادر فريد، **بلاغة القرآن في أدب الرافعي**، ط. دار المنارة بالقاهرة، 1985ـ
راغب الأصفهانى: أبو القاسم الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن** ، حققه: صفوان عدنان الداودي،بيروت: دار القلم، الدار الشامية - دمشق ،الطبعة الأولى - 1412 هـ
شطئ، محمد صالح: **الأدب العربي الحديث: مدارسه وفنونه وتطوره وقضاياه ونماذج منه**، دارالأندلس، 1996م.
شوقي ضيف: (الدكتور)، **الأدب العربي المعاصر في مصر**، مصر: دار المعارف، الطبعة العاشرة، بدون سنة.
شوقي ضيف: أحمد عبد السلام،**الأدب العربي** المعاصر في مصر،دار المعارف
شوقي ضيف،**الفن ومذاهبه في النثر العربي** ،دارالمعارف، القاهرة، ط 12ـ
صبحي الصالح، **مباحث في علوم القرآن** ، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة والعشرون كانون الثاني/ يناير 2000ـ
صلاح الدين خليل بن ايبك ، **الوافي بالوفيات** ، حققه: احمد الارناؤوط وتركي مصطفى بيروت : دار احياء التراث ،الطبعة:1420هـ- 2000م
طه حسين: (الدكتور)، **التوجيه الأدبي**، مطبعة لجنة التإليف والترجمة والنشر،1947م.
عبد الله عبد الجبار - محمد عبد المنعم خفاجى، **قصة الأدب في الحجاز**،مكتبة الكليات الأزهرية
عبد الله المقدسي: **المناظرة في القرآن**، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1409،

عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني،**خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية** ،مكتبة وهبة،الطبعة الأولى، 1413 هـ - 1992 م.

عبد الكريم ، محمد بن منصور التميمي،**أدب الاملاء والاستملاء** ،بيروت دار الكتب العلمية،الطبعة: الأولى، 1401 – 1981.

عبد القادر بن عمر البغدادي، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، حققه: عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي، القاهرة،الطبعة الرابعة، 1418 هـ - 1997 .

عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن** تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف،الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي

عمر الدسوقي: **في الأدب الحديث**،دار الفكر العربي،الطبعة 1420 هـ- 2000م

عمر الدقاق:(الدكتور)،**مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم**، حلب: المكتبة العربية، 1968م.

عز الدين إسماعيل :**الأدب وفنونه دراسة ونقد** ،دار الفكر العربي.

علي حامد: **المذكرات الحامدية في تاريخ أدب اللغة العربية** ، القاهرة: المطبعة السلفية، الطبعة الثانية ، 1343هـ ـ 1925م.

علي الجندي، **في تاريخ الأدب الجاهلي** ،مكتبة دار التراث، الطبعة دار التراث الأول1412هـ - 1991م

فتحي أحمد عامر، **من قضايا التراث العربي**: الشعر و الشاعر، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1405هـ/1985م

فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، **دراسات في علوم القرآن الكريم** ، الطبعة الثانية عشرة 1424هـ - 2003م

كاظم حطيط: **دراسات في الأدب العربي**، بيروت: دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، 1977م.

كحالة: عمر رضا، **معجم المؤلفين**، دمشق: المكتبة العربية.
محمد، أحمد خلف الله، **القرآن وعلومه، الحديث وعلومه**،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،الطبعة الطبعة الأولى 1986ـ
محمود تيمور: **اتجاهات الأدب العربي (في السنين المائة الأخيرة)**، مكتبة الآداب للنشر والتوزيع.
محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنيبي، **معجم لغة الفقهاء**، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع،الطبعة الثانية، 1408 هـ - 1988 م
محمد صالح الشنطي، **فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه**،دار الأندلس للنشر والتوزيع - السعودية / حائل، الطبعة الخامسة 1422 هـ - 2001 م.
محمد طاهر بن عبد القادر ، **تاريخ القرآن الكريم**،جدة: مطبعة الفتح ،الطبعة الأولى 1365 هـ و 1946 م.
محمد كامل الفقي، **الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة**،المطبعة المنيرية بالأزهر الشريف
منصور بن الحسين الرازي، أبو سعد الآبى، **نثر الدر في المحاضرات ،** حققه: خالد عبد الغني محفوظ، بيروت :دار الكتب العلمية – لبنان،الطبعة الأولى، 1424هـ - 2004م
ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، بيروت: دار إحياء التراث العربي (بدون التاريخ).
ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ،**معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**،حققه: إحسان عباس،بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1993 م
يعقوب شيخو: رزق الله بن يوسف ،**مجاني الأدب في حدائق العرب**، بيروت:مطبعة الآباء إليسوعيين، الطبعة: 1913 م.
يعقوب شيخو : رزق الله بن يوسف ، **تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين**، بيروت: دار المشرق ، الطبعة الثالثة.

Muhammad Ilyas is serving as Assistant Professor of Arabic in the Department of Arabic, Faculty of Islamic and Arabic Studies, the Islamia University of Bahwalpur, Pakistan